

رشارد كريتشفيلد

سُحات رجل من مصر

ترجمة: سمير محفوظ بشير

1459

سلسلة
الإبداع
القمي



الغرض من تدبيج هذه الرواية هو استعراض ما تعرض له
فلاح صعيدى شاب من تفكك وضياع بسبب تلك
التغيرات الفجائية التى أدت إلى تغيير أسلوب كل مخالطيه
سواء فى مجال الفكر أو الشعور أو التصرف.

شحات، الذى نرى صورته على الغلاف، رجل مصرى
تجرى فى عروقه بعض من الدماء البدوية، لعله واجه
تقلبات حادة فى أسلوب حياته لو قورن بأى فلاح آخر من
أهله، هذا مع العلم بأن الصعايدة الذين يقطنون وادى النيل
من منتصفه حتى أسوان يشتهرون بمدى تمسكهم
بالتقاليد المتوارثة وتجرى فى عروقهم دماء حارة ويتميزون
بطباع حادة، لذلك نرى أن شحات هذا يماثل الكثير من
المصريين الفقراء الذين تتحكم فيهم العاطفة، فهم دائماً ما
يبحثون عن إجابات شافية لما يواجهونه من ظواهر طبيعية،
ليس بإعمال المنطق الحضارى، لكن باللجوء إلى عالم ما
فوق الطبيعة بما يحفل به من غوامض وأسرار ومقدسات.

شحات

رجل من مصر

(رواية)

المركز القومي للترجمة

إشراف : جابر عصفور

سلسلة الإبداع القصصى

المشرف على السلسلة : خيرى دومة

- العدد : 1459

- شحات المصرى : رجل من مصر

- ريتشارد كريتشفيلد

- سمير محفوظ بشير

- الطبعة الأولى 2010

هذه ترجمة رواية :

SHAHHAT, An Egyptian

by : Richard Critchfield

حقوق الترجمة والنشر بالعربية محفوظة للمركز القومي للترجمة .

شارع الجبلية بالأوبرا - الجزيرة - القاهرة . ت: ٢٧٣٥٤٥٢٤ - ٢٧٣٥٤٥٢٦

فاكس: ٢٧٣٥٤٥٥٤

El-Gabalaya St., Opera House, El-Gezira, Cairo

E.mail:egyptcouncil@yahoo.com

Tel.: 27354524 - 27354526

Fax: 27354554

شحات

رجل من مصر

(رواية)

تأليف : ريتشارد كريتشفيلد
ترجمة : سمير محفوظ بشير



2010

بطاقة الفهرسة
إعداد الهيئة العامة لدار الكتب والوثائق القومية
إدارة الشؤون الفنية

كريتشفيلد ، رتشارد
شحات رجل من مصر (رواية) / تأليف : رتشارد كريتشفيلد ؛
ترجمة : سمير محفوظ بشير ؛
ط ١ - القاهرة ، المركز القومى للترجمة ، ٢٠١٠
٤٧٢ ص ؛ ٢٠ سم
١ - القصص الأمريكية
(أ) بشير ، سمير محفوظ (مترجم)
(ب) العنوان
٨٢٣

رقم الإيداع ٢٠٠٩/١٤٠٤٤
الترقيم الدولى (I.S.B.N. 978-977-479-468-5)
طبع بالهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية

تهدف إصدارات المركز القومى للترجمة إلى تقديم الاتجاهات والمذاهب
الفكرية المختلفة للقارئ العربى وتعريفه بها، والأفكار التى
تتضمنها هى اجتهادات أصحابها فى ثقافتهم، ولا تعبر بالضرورة
عن رأى المركز .

المحتويات

7 مقدمة المؤلف
29 الجزء الأول
31 صلاة مقدمة لآمون رع
65 سننية
85 ليلة ظهور الجنى
105 تعال نملأ الكاسات
121 الأب وأمثاله
139 الجزء الثانى
141 الحياة المعتادة تأخذ مجراها
161 ركوبة صباحية إلى السوق
181 حول منقذ النار
195 طبعا، إنها المرأة
217 عالم الكفاية
239 الضحك الشافى

249 الجزء الثالث
251 الجاموسة وعين الحسود
273 أم حامد وفاروق
297 أجزاء من المباراة
323 وقت أن غرقت سنباط كلها بالدماء
353 الأم والابن
367 الجزء الرابع
369 تراجيديا وكوميديا
389 عن راكبي الخيول العربية.. وإرادة الله
421 ما بعد ذلك
431 ملحق الصور

مقدمة المؤلف

هى قصة شاب مصرى أصوله من أقاصى صعيد مصر، هذا الشاب واجهته تغيرات فجائية استطاعت أن تلوى مسار حياته المعتاد.. هنا نرى كيف أنه تلاءم مع مواقفه وتحكم فيها واستطاع أن يتواصل مع ما يحيط به من عوامل ومؤثرات.

هذا الشاب ينتمى إلى أقدم شعوب العالم، لكنه مشابها لمعظم مواطنيه، هو يدرج فى مراحل الشباب المبكر، وفى طيات هذه الرواية نشاهده وهو يتطور ويخطو ويبدأ فى رحلة حياته وعمره.

المكان هو قرية صغيرة تدعى "بيراط" تقع جنوب مصر قريبا من مدينة الأقصر ذات الشهرة على مستوى العالم كله.

كما هو الحال، عندما نستطلع موقع أى قصة ينتمى إلى العالم الثالث، لا سيما داخل نطاق الدول العربية، نصطدم بعقبات شتى ذات محتوى ثقافى سيكلوجى مضطرب، ذاك إذا كان بحثنا يدور داخل نطاق علم الدراسات الإنسانية.

نوعية الثقافة هي التي تحدد للبشر طريقة العيش واستخدام عدد من الحلول الجاهزة التي تمكن الفرد من التصدى للمشاكل اليومية، بذلك لن يضطر كل جيل جديد البحث عن حلول جديدة تبدأ من نقطة الصفر. هذا يعنى أن لب وقلب المحتوى الثقافى الناجح ينحصر فى مدى فاعليته وتوافقه مع احتياجات الفرد العادى، لكن تلك المعايير قد تتعرض للدمار والتفسخ عندما تمعن فى القدم أو عندما يحدث تغيير فجائى حاد فى الظروف والأحوال المعيشية.

فى أقصى صعيد مصر، نجد أن التعاليم الإسلامية التي تنتمى للعصور الوسطى، تتغلب على التأثيرات القبطية والعادات الفرعونية التي سبقتها وسادت منذ ٦٠٠٠ عام سابقة. نجد أيضا أن الغزاة الأجانب الذين قدموا غازين، رحلوا عائدين إلى بلادهم مرة أخرى سواء أكانوا من الفرس، اليونان، الرومان، البيزنطيين، الأتراك، الفرنسيين ثم أخيرا الإنجليز. وكما عبر عن ذلك السيد/ هنرى حبيب عيروط عندما قال إنه، "عندما يغير فلاحو الصعيد سادتهم ونوعية دينهم، كذلك لغاتهم ونوعية محاصيلهم، هم فى الواقع لا يغيرون أو يستبدلون أسلوبهم المتميز فى الحياة والعيش المشترك". سبب هذه الاستمرارية العجيبة هو أن قيم القرية تتحدد وتتشكل بموجب ما تستلزم فلاحه وزراعة الأرض، وهذه ارتبطت تماما منذ أجيال سابقة مضت بفيضان النيل الذى لم يخلف مواعيده السنوية المعتادة أبدا، لكن مع إنشاء السد العالى

وتوقف الفيضان المعتاد الذي كان آخره أغسطس ١٩٦٧ . كان هذا التطور العلمى التكنولوجى جديرا بأن يرسى ويخفف من وقع التغير فى أسلوب المعيشة، لكنه بالعكس، جعل من أناس الصعيد عموما أكثر عرضة لحدوث صدمات ثقافية وحضارية أشد وقعا .

الغرض من تدبيح هذه الرواية هو استعراض ما تعرض له فلاح صعيدى شاب من تفكك وضياع بسبب تلك التغيرات الفجائية إلى أدت إلى تغيير أسلوب كل مخالطيه سواء فى مجال الفكر أو الشعور أو التصرف .

شحات، هو بطل روايتنا، تجرى فى عروقه بعض من الدماء البدوية، لعله واجه تقلبات حادة فى أسلوب حياته لو قورن بأى فلاح آخر من أهله، هذا مع العلم بأن الصعايدة الذين يقطنون وادى النيل من منتصفه حتى أسوان يشتهرون بمدى تمسكهم بالتقاليد المتوارثة وتجرى فى عروقهم دماء حارة ويتميزون بطباع حادة، لذلك نرى أن شحات هذا يماثل عديد من المصريين الفقراء الذين تتحكم فيهم العاطفة، دائما ما يبحثون عن إجابات شافية لما يواجهونه من ظواهر طبيعية، ليس بإعمال المنطق الحضارى، لكن باللجوء إلى عالم ما فوق الطبيعة بما يحفل به من غوامض وأسرار ومقدسات .

فى هذه الرواية، نتقابل مع أم تسوقها وتتحكم فيها توقعات وتطلعات تفوق قدراتها، نرى أيضا ذلك الخال الذى يتقبل وينتهج

أساليب العيش الحضارى فى زماننا الحالى، أيضا تتعايش مع مشارك الزراعة الذى يستغل الآخرين وقد امتلأ قلبه بالسعادة والمسرة - جميعهم نماذج تتقابل معها دوما فى بلدان العالم الثالث، ولكل هذه الاعتبارات، وجدت أن شحات وما تعرض له من مشاكل، هو خير مثال.

طبقا لرغبات أبطال الرواية، ذكرت أسماءهم الحقيقية كذلك صورهم الفوتوغرافية، ولم أخف سوى شخصية كل من حسن وسليمان، فليس تلك هى أسماءهم الحقيقية. معظم القرويين كانوا يماثلوننى شغفا وتأييدا بأن يتم عرض أسلوبهم فى الحياة كما هو وأنه لا مانع لديهم أن تعرض أمام القارئ.

الفترة التى شغلتها أحداث الرواية - بعدما قمت بعرض سريع لطفولة شحات - عاما كاملا يبدأ من شهر أغسطس (وهو الشهر الذى يبدأ فيه الفيضان)، وينتهى فى أغسطس التالى. وقد حاولت أنا ومعى المترجم أن لا نتدخل أبدا فى تدفق الأحداث بسبب تواجدها بقربها، وأعتقد أننا نجحنا إلى حد كبير فى هذا الشأن.

كلمة "فلاح" فى اللغة العربية منشقة من كلمة "فلاحة" التى تعنى عزق وتقليب الأرض الزراعية، هى أيضا كلمة تنشئ علاقة حميمية مع الأرض الملاصقة لنهر النيل، كذلك مع قرية كل فرد منهم، كذلك أساليبهم المعهودة المفارقة فى القدم.

طالما أنه يتم ذكر النقود كثيرا فى هذه الرواية، فإن القارئ الغريب عن الموقع، وبالرغم من التغير المستمر فى أسعار صرف العملة، نقول إنه فى زمن هذه الرواية، كان سعر الجنية المصرى يبلغ دولارين أمريكيتين!.

تم اختيار موقع القصة - وهو السهل الطيبى المجاور لمدينة الأقصر - لأنه أكثر المناطق التى تتشبث بقوة بالتقاليد الراسخة.

هذه الرواية لا تهدف إلى رسم حياة كل الفلاحين المصريين، فهناك ستة أعشار الفلاحين المصريين يقطنون قرى الدلتا. هذه الدلتا هى على شكل مثلث كبير تقع شمال مدينة القاهرة وتمتد حتى شواطئ البحر الأبيض المتوسط.

فى الدلتا، نجد أن مظاهر الحضارة قد سادت بشكل تدريجى، لا سيما وأنه قد تم تطويع النيل باستخدام عدد من السود بقرب القاهرة وكذلك إنشاء عدد من القنوات التى جعلت من اليسير قيام الفلاحين بزراعة أراضيهم على مدار العام كله، وقد حدث هذا منذ قرن مضى.

لذا لا نجد سوى فى مناطق الصعيد الأعلى المنعزل بفضل الصحراء المحيطة بهم، أن ظلت التأثيرات الفرعونية القديمة سائدة ومسيطرة. عندما تتمعن فى وجوه التماثيل بالمتحف المصرى، تلاحظ أن ملامح الفلاحين الذين ينتمون إلى السهل الطيبى لم تتغير كثيرا منذ

أربعين قرناً، هي تختلف عن ملامح الوجوه التي تشاهدها في القاهرة والدلتا حيث صنعت الدماء العربية والتركية واليونانية مفعولها. أيضاً عندما تتمعن في الصور والأشكال المنحوتة في مقابر النبلاء والرسميين التابعين للأسرة الثامنة عشر والتاسعة عشر المنتشرة في تلال غرب الأقصر، تلاحظ أن طرق الزراعة وأساليبها بالكاد تغيرت.

نلاحظ أيضاً أن استخدام طلبات المياه الميكانيكية التي تعمل بالديزل والتي انتشر استخدامها خلال العقد الأخير، قد حلت بديلاً عن السواقي التي تعمل عليها الأبقار والجواميس. تلك الأخيرة استخدمت منذ العهد البطلمي (٢٢٢ حتى ٢٠ ق.م)، أما الآن فقد اختفى هذا الأسلوب تماماً وهجر استخدامها. لكن (الشابوف) ما زال منتشرًا هناك، كذلك (النورج) كذلك (المدرأة) وهي شوكة خشبية، أيضاً هناك (الفأس) التقليدي ذو اليد الخشبية القصيرة. كل هذه الأدوات تعود إلى أيام الفراعنة (التاريخ يبدأ في مصر من عام ٤٢٤١ ق.م، وأول أسرة ملكية تعود إلى الملك مينا عام ٢٤٠٠ ق.م. وبحوث التنقيب تؤكد أن مصر العليا قد استقرت أحوالها منذ العصر الحجري، هذا وتعود زراعة نبات القمح إلى ما قبل ١٣٠٠٠ عام، وهو فجر التاريخ الذي بدأ فيه الإنسان نشاطه الزراعي).

في قرى الصعيد وفي حالة حدوث وفاة أحد القرويين، نجد أن الصلوات التي يقوم بها المشايخ المسلمين تتوافق مع العادات والتقاليد

الفرعونية وليست الإسلامية، كذلك هذا ما نجده فى عديد ونوح النسوة على موتاهم. أيضا تستخدم نساء الصعيد الكحل لتسويد عيونهن وتحديد خطوطها، كذلك هن يستخدمن نبات الحنة لتلوين شعورهن، هذا ما كانت تفعله نفرثيتى. نلاحظ أيضا أن كل النساء والرجال يحلقون شعر أجسادهم، وهذه عادة موغلة فى القدم.

عندما نتطلع على حوليات المدعو (ميشيس)، ذاك الذى سجل الأنشطة اليومية لقرية تدعى (كريكيوسيرز) - عام ١٢٠:١١٠ ق.م - نلاحظ أن ملكية الأفراد لا تزيد عادة عن قدانين، أما المحاصيل المعتادة فهي القمح والشعير والعدس، بنفس مقدار ما يغله القدان الواحد حاليا، أيضا وجد عن القدماء هؤلاء تربية الحمام، كذلك تملك الأرض للمحاربين القدماء. كل هذا يؤكد أن مجالات التغيير كانت فى حدودها الدنيا. أيضا سجل ميشيس هذا طرق وأساليب الرى فى أيامه والمنازعات التى تحدث بسببها، والتى لا تختلف عما يحدث فى أيامنا هذه.

الرى باستخدام مياه النيل له خصوصية معينة، حيث يعتمد على اتباع أساليب تتوافق مع طقس يندر فيه سقوط الأمطار. فى مصر، تجد النيل وقد شق طريقه متجها نحو الشمال وسط صحراء جرداء - وادى النيل فى الصعيد هو عبارة عن خط أخضر رفيع يتراوح عرضه ما بين ٥-١٠ أميال حتى يصل إلى القاهرة. النيل يشق مجراه عميقا لدرجة أن التلال المحيطة به تشبه الجبال فى شكلها، وأرض الوادى تتكون من

طسمى قد يتراوح عمقه ما بين ٢٠-٣٠ قدما وهو ذاك الذى وفد على مدى آلاف السنين من الهضبة الإثيوبية، وإلى درجة محدودة من جبال وبحيرات أوغندا وتنزانيا.

يمد النيل الزراعة بالماء، وهذا يدعو بالطبع إلى نشوء سلطة مركزية لى تضبط تدفقه وتوزيع مياهه بالعدل، هذا بالتالى أدى إلى قيام دولة متحضرة لها أشكال اجتماعية متعددة. عندما كان النيل يفيض كل أغسطس، يبدأ الفرين الجديد فى تجديد التربة الزراعية، أيضا تنقذ المياه المتدفقة مصر من خطر تمليح الأرض، وهى الحالة التى كانت سببا فى اضمحلال حضارتين نهريتين سابقتين، هما حضارة ما بين النهرين وحضارة وادى الهندوس، وقد صدق هيرودوت عندما قال " مصر هى هبة النيل".

هذا التدفق المنتظم للنيل، خلف وراءه دورة من الحياة أثرت فى شعب تحيط به الصحراء من كل جانب، وتنتصب التماثيل الفرعونية الفارهة أمامه وخلفه، لذا انطبع فى ذهنه منظومة دينها هو الاحتفاظ بالثوابت مع تكرارها. النيل يكرر نفسه أيضا بلا ابتكار، ففى كل شهر أغسطس من العام، وقد تغذى بكم هائل من الأمطار التى تنصب على قلب إفريقيا، يسارع بالفيض. لأسابيع متعددة، يسارع الفلاحون إلى تقوية جسورهم، ثم يتركون له العنان فيغمر حقولهم ويغطيها بالمياه خلال الفترة ما بين شهر سبتمبر حتى نوفمبر، ثم يتراجع النيل ويستكن

فى مجراه المعروف تاركاً خلفه طبقة من الغرين الخصيب الغنى تغطى كل الأراضى الزراعية. هنا ليس على الفلاحين سوى أن يلقوا ببذور القمح أو الشعير أو العدس - وهى ذات المحاصيل التى تتكرر زراعتها منذ أجيال موعلة فى القدم - ثم ينتظرون صابرين حتى شهر أبريل حيث يجمعون محاصيلهم حينذاك، ولم يكن متيسرا سوى زراعة محصول واحد كل عام، بينما يعتبر كل فصل الصيف هو وقت للراحة.

ليس فى مقدور الإنسان سوى أن يخمن المدى الذى استمرت فيه هذه الظاهرة، لعلها استمرت على مدى ٢٤٠ جيلا من البشر وربما ضعف ذلك، وهذا نوع عجيب من الاستمرارية، هذا يدهشنا عندما ندرك أن مجيء المسيح قد مر عليه ٨٠ جيلا فقط وأن إنشاء الولايات المتحدة الأمريكية كان منذ ثمانية أجيال، لكن هذا النشاط توقف بشكل فجائى بعد آخر فيضان وقع فى أغسطس ١٩٦٠ .

بدأت مشكلة زيادة السكان فى مصر، كما فى أى مكان آخر، تضغط على حكام البلد بداية من النصف الثانى من القرن العشرين. الشعب المصرى، لم يزد عدده عن سبعة ملايين فى العصور الفرعونية، لكنه ربما وصل عدده إلى ٢٠ مليون نسمة فى الفترة المسيحية تحت حكم الرومان، إلا أن الإحصاء وصل إلى ٢.٥ مليون فرد أوائل القرن التاسع عشر بسبب الحروب والأوبئة، لكن منذ ذلك الوقت بدأت الزيادة تعلو تدريجيا وبشكل منتظم. إنهم الآن فى حدود ٤٠ مليون نسمة (عام ١٩٧٤)

ونصف عددهم يستقر فى المدن، ومن المتوقع أن يصل عددهم إلى ٧٢ مليون عام ٢٠٠٠ .

فى وقتنا الحالى، إذا سعى أحدهم لحكم مصر، فإن أولى اهتماماته سوف تنصب على توفير الطعام لهذه الجموع الغفيرة، هذا يمكن أن يتحقق إذا كان هناك تدفقا مائيا منتظما على مدار العام لكى يتم زراعة محصولين أو ثلاثة بدلا من محصول واحد كما كان يحدث فى السابق، وأن يتحقق هذا على نفس مساحة الأرض الزراعية على أن ترتفع غلة الفدان الواحد، وهذا ما يحدث فعلا فى مصر الآن.

السد العالى هو بناء تراكمى ضخم يبلغ طوله ميلين وعرضه عند مستوى قاعدته يبلغ ميلا ويزيد حجمه عن الهرم الأكبر بمقدار ١٧ مرة.

فكرة ترويض النيل لم تكن أبدا جديدة، لا سيما عندما يكون الفيضان عنيفا. وهذه الفكرة طرأت على بال أُمْنَحَب الأول الذى صمم أول هرم، كذلك فعل الإنجليز الذين احتلوا مصر، فهؤلاء هم الذين شيّدوا سد أسوان الأول عام ١٩٠٢ ثم قاموا بتعليته عام ١٩١٤ وعام ١٩٣٦، لكن مع ذلك لم ينجح أحد فى التحكم التام فى هذا النهر. لكن بعد حدوث فيضان مدمر عام ١٩٣٨، نشأت فكرة بناء سد عال يكون موقعه جنوب أسوان.

بعد تأخيرات كان من أسبابها قيام الحرب العالمية الثانية، صممت الثورة المصرية بقيادة جمال عبد الناصر على بناء السد العالى، ثم حدثت نزاعات مع البنك الدولى وأمريكا، لذا لجأ عبد الناصر إلى الاتحاد السوفييتى الذى رحب بالفكرة وتم بالفعل الشروع فى بناء السد بمعاونة وتمويل هذه الدولة بداية من عام ١٩٦٠ .

كان الهدف المعلن عن أسباب بناء السد هو الحصول على قدر كاف من المياه تجعل مصر قادرة على زيادة الرقعة الزراعية وليس للتحكم فى فيضان النيل. بدأ السد فعلا فى احتجاز الماء بداية من عام ١٩٦٤ وتم توليد الكهرباء من توربينات السد عام ١٩٧٠، ولم يكتمل تماما إلا عام ١٩٧١، بذلك أصبح واحدا من أكبر أربعة أو خمسة سدود على مستوى العالم.

فى البداية، نظر إلى السد العالى كمشروع ناجح تماما بالرغم من انتقادات علماء البيئة الغربيين الذين أهتموا تماما حاجة حكام مصر إلى توفير الغذاء الكافى للشعب المصرى المتزايد، وفى عام ١٩٧٤، اشترك بعض من علماء الولايات المتحدة مع المصريين فى دراسة "حركة النهر" بهدف قياس العوامل الكيميائية والبيولوجية والجغرافية التى تتحكم فى تدفق مياه النهر، وما كشفوا عنه هو أنه بالرغم من أن السد قد أسهم فى زيادة كمية الغذاء المقدمة للشعب المصرى (أيضا باستخدام التكنولوجيا الزراعية المتقدمة)، فإن الزيادة المقلقة فى حجم المياه الجوفية التى غزت كل الأراضى الزراعية فى وادى النيل سوف تهدد

أراضى كثيرة وتصيبها بالتمليح والقلوية وتراكم المياه أسفل المزروعات، لذا أشاروا بتنفيذ عدد من المشروعات التى يمكن بها تصريف هذه المياه الزائدة، هناك مشكلة أخرى أشاروا إليها وهى غياب الغرين الذى كان يجلبه الفيضان ويجدد شباب التربة، أيضا هناك مشكلة النحر التى تؤثر سلبا على بطن وجوانب النهر، كذلك زيادة انتشار الأعشاب الضارة مثل ورد النيل وانتشار القواقع الناقلة للأمراض مثل البلهارسيا.. لكن كل هذه العوامل يمكن بالجهد المخلص والكفاح واتباع الأساليب العلمية التخلص منها والحد من تأثيراتها.

وقع آخر فيضان للنيل وغطى السهل الطيبى فى أغسطس ١٩٦٠، بعدما انتهى العمل فعلا فى شق عدد من الترع تتبع من أسوان، بعد هذا التاريخ بدأت الزراعة المستديمة وإمكان زراعة نوعين أو ثلاثة من المحاصيل الزراعية، وتم للمرة الأولى استخدام المخصبات الكيماوية (نتروكيما من أسوان) والتى استخدمت بكثافة، لذا تنوعت المحصولات الزراعية فى السهل الطيبى وكان من ضمنها قصب السكر الذى هو محصول يغل عائدا ممتازا للفلاح، كذلك استبدلت السواقي بمضخات صغيرة تعمل بالديزل، بذلك أصبح العمل الفلاحي مستمرا شتاء وصيفا طوال العام.

هذا التحول من الزراعة الموسمية إلى الزراعة الدائمة حدث فى أراضى الدلتا منذ منتصف القرن التاسع عشر، وهذا يعنى أن الفلاحين هناك تلاءموا مع الطرق الحديثة للرى منذ مئة عام سابقة،

وأمكن لهم الاستغناء عن استخدام جهود الحيوانات فى الحقل، كذلك اعتادوا على استخدام أنواع مختلفة من المخصبات الكيماوية لتعويض نقص الغرين، وانهوا مشكلة تعرض الأرض للملوحة بعمل شبكة من المصارف المختلفة. لديهم هناك عدد من الشباب الذين لم يدخلوا المدارس، لكن أهمية التعليم راسخة فى أفئدتهم، لذا تجد حتى أقل العائلات فقرا تجتهد لأن ترسل بنتا أو ولدا يلتحق فى مجال التعليم الفنى، ومن المقبول عندهم أن يبعثوا بأبنائهم إلى المدن الكبرى أو حتى الخارج ليلتحثوا عن عمل. لكل هذا يمكن القول إن الثورة الزراعية التى بزغت فى الدلتا واستقرت منذ قرن من الزمان، استطاعت أن تخلق قيما ثقافية محددة وراسخة.

هذا بالكاد حدث فى أقصى الصعيد، حيث انخفضت قيمة المحاصيل بشكل تدريجى خلال العشر سنوات الماضية، كذلك لم يتعود الفلاحون هناك بعد على رى الأرض على مدى العام كله، وأكدوا بأن هذا سوف يؤدى إلى ارتفاع مستوى المياه الجوفية. ادعوا أيضا أنه عندما يصل مستوى المياه حتى أربعة أقدام من السطح، فإن الجذور سوف تموت ويتحول لون النبات إلى اللون الأصفر. لكن هذا فكر خاطئ ناتج عن سوء استخدام المخصبات الكيماوية. كذلك استمر استخدام فضلات الحيوانات واستخدامها كوقود، أيضا نلاحظ أن الأمية ما زالت منتشرة هناك، وقليل من الفلاحين الذين يسعون لتعليم أبنائهم، أما

معدلات الإنفاق والصرف فإنها تعتبر مرتفعة بالمقارنة بمستويات الدخل. نلاحظ أيضا أن حفلات الذكر والصلوات ما زالت مستمرة وقد تستغرق الليل كله، هناك أيضا ينتشر الزواج المتكرر ويفضل عن الاستثمار في الزراعة أو تعليم الأبناء، وهناك قدر كبير من الدخل ينفق على شراء السجائر والكحوليات والحشيش.

في الدلتا، تمتلك العائلة المثالية أرضا مساحتها تبلغ فدانين في المتوسط، كذلك تمتلك جاموسة أو بقرتين، بعض الأغنام، طيور داجنة، حمام وأرانب للاستخدام المنزلي. أيضا يزرع البرسيم لتغذية الحيوانات، كذلك يزرع القمح والذرة والخضروات للاستهلاك الأسرى.

يبلغ دخل الفلاح السنوى في الدلتا حوالى ١٢٠٠ دولار، تفصيلها كالاتى، (\$٤٠٠ من بيع محصول القمح، \$٢٤٠ نظير الزيت، \$٢٠٠ أغنام وماعز، \$٥٦٠ مقابل بيع المحاصيل النقدية مثل القطن أو بذور البطاطس. أما متوسط الإنفاق الشهري فإنه يتوزع بالشكل الآتى: \$٨ دولارات لشراء اللحوم (كيلو من اللحم يستهلك كل يوم خميس طبقا للتقاليد الإسلامية)، \$١٠ لشراء الملابس والصنادل، \$٦ للسجائر، ٢٠ سننًا للكبريت، \$٣ للسكر، \$٣ للشاي، \$١ للكيروسين، \$١.٣ دولار للصابون. والمجموع هو \$٢٢.٥. (فى الحقيقة، معدل الصرف الشهري عند العائلات الفقيرة التى لا تمتلك أرضا زراعية قد ينخفض ليصل إلى \$٢٥ فقط، لكن ليس أقل من ذلك).

على العكس من ذلك فى أقصى الصعيد، حيث نجد أن العائلة التى تمتلك نفس القدر من الأرض الزراعية قد تنفق ضعف ما يحدث فى قرى الدلتا، والفرق يصرف على شراء مزيد من السجائر واللحم والسكر (فهم كرماء للغاية أمام الأصدقاء والضيوف).

العائلة فى الدلتا قد تنفق \$٢٠ على تعليم أبنائها شهريا، لكن هذا المعدل ينخفض كثيرا فى جنوب الصعيد. كذلك نلاحظ أن مستوى أجر العامل الزراعى عندهم يتراوح ما بين ٧٠ سنتا حتى دولار واحد، أما فى الدلتا فإن هذا المعدل قد يبلغ الضعف مع إمكانية العثور على عمل فى المدن القريبة.

لكن على أية حال، فإنه مع مرور الزمن، من المتوقع أن تتوافق المعايير الثقافية مع ما هو حادث فى الدلتا، علما بأنه هناك حركة متصاعدة لإصلاح الأراضي الصحراوية وضمها إلى الأراضي الزراعية.

بالرغم مما ظهر من عيوب ظهرت بعد إنشاء السد العالى، أيضا عيوب الاستخدام المستمر للأراضي الزراعية فى الصعيد على مدار العام، نجد أن السد العالى تسبب فى ضم ٩٠٠ ألف فدان من الأراضي الصحراوية وجعلها أرضا زراعية وثلاثها خضع لنشاط المحراث، لكن هناك أراض زراعية عديدة انضمت إلى نطاق المباني السكنية أو تعرضت للتمليح، لذا استمرت حيازة مصر للأراضي الزراعية لا تزيد عن ٦. ٥ مليون فدان، وهو نفس الرقم الذى كان عندما تم بناء السد

العالي. لذا نجد أن أمل مصر لمجابهة تلك الزيادة الرهيبة فى معدلات النمو السكانى، ينحصر فى استصلاح مزيد من الأراضى الصحراوية.

فى حديث قام به مؤلف هذه الرواية مع الرئيس أنور السادات فى صيف عام ١٩٧٦، أشار الرئيس إلى أنه يهدف إلى مضاعفة حجم الأراضى الزراعية فى مصر مع قدوم عام ٢٠٠٠! وهو يخطط إستراتيجية تهدف إلى تشجيع التصنيع الزراعى، وأن يتم التقليل التدريجى من زراعة القمح والذرة والبرسيم فى مقابل زيادة إنتاج المحاصيل والسلع التى تحقق عائدا أكبر مثل الفواكه والخضروات والألبان والطيور التى توجه للتصدير. بهذا الأسلوب يمكن أن يوفر القمح للسكان الذين يتزايدون بمعدلات كبيرة عن طريق الاستيراد من الخارج. هو يؤمن بأن انتهاء هذه الإستراتيجية أفضل كثيرا من الاتجاه إلى التصنيع السريع فى مصر، واضعا فى اعتباره معدلات الجهل ونقص التعليم ورسوخ التقاليد الزراعية. السادات هو أول حاكم مصرى ينحدر من أصول قروية، بل وعمل فى مجال الزراعة فى شبابه، وما زال حتى الآن له روابط قوية مع قريته التى تقع فى قلب الدلتا. هو يهتم بشكل بالغ بالتأثيرات الثقافية التى يمكن أن تصدم الإنسان الناتجة عن التغيرات الفجائية، كما يحدث فى قصتنا هذه. أشار أيضا أنه قد أبلغ من يحاولون تثبيت دعائم الحضارة أن "ينظروا بتمعن إلى مجتمعنا وشعبنا وموروثاتنا"، قال أيضا إنه مهموم للغاية من احتمال

بزوغ مجتمع جديد تنقصه القيم الروحية الأصيلة، لا سيما وسط جموع الشباب، أضاف بقوله، "يجب أن تعود مصر وتتمسك بقيمها الروحية العتيدة، أنا لا أود بتاتا أن يصبح الجيل الجديد هو جيل مفقود"

يستطيع القارئ أن يعثر على قرية بيراط التي تقع بجوار مدينة الأقصر، حيث تقع على بعد ميلين شرق المدينة. كلمة الأقصر مشتقة من الكلمة العربية "القصور"، وهي مدينة مشهورة على مستوى العالم كله تقع في السهل الطيبي وتزدان بمجموعات ضخمة من التماثيل والمعابد الفرعونية.

هذه المدينة هي طيبة التي كانت يوما ما عاصمة لمصر بعدما فقدت ممفيس العاصمة أهميتها قبل ٣٦٠٠ عام سابقة، هربا من لصوص المقابر الذين دنسوا الأهرامات العظمى. وعندما انتقل الفراعنة إلى العاصمة الجديدة، استطاعوا قهر عدد كبير من الدول المعروفة في زمانهم، ووصل المجد الفرعوني إلى أقصى حد له. ظهر هناك عدد من الفراعنة العظام أمثال تحوتمس، أمنحتب، الهرطوقي أخناتون، توت عنخ آمون، رمسيس الثاني والثالث كذلك مرنبتاح الذي يعتقد أنه هو فرعون موسى.

الأقصر هي حاليا مدينة صغيرة تبعد عن القاهرة ٤٥٠ ميلا، ويمكن أن تقضى ساعة بالطائرة لتصل إليها. وسوف يندهش الزائر لهذه المدينة عندما يشاهد بعينه تلك المعابد الجبارة والكرنك والتماثيل

المدهشة وهى تلك التى ما زالت تنتصب هناك أو التى أعيد ترميمها خلال القرن الماضى. هى شواهد تقف صامدة أمام تلك الشوارع المزدهمة وشاطئ النيل الذى تنتصب على حوافه كل ما هو حضارى وحديث. حتى الآن تعتبر الأقصر مكانا تجرى فى شوارعه العربات التى تجرها الخيول، وتحفل بمن يرتدون الجلابيب التى تمتلئ بالهواء، مع قليل من البشر يعتمرون الملابس الحديثة، هذا بالإضافة إلى معابدها الفرعونية الشاهقة التى تضىء على المدينة جوا لازميا؛ فالإنسان قد لا يحس بعودته إلى الزمن الغابر، لكنه أيضا لن يشعر تماما أنه يعيش فعلا فى أواخر القرن العشرين.

عبر المدينة، فى الجانب الغربى منها، فى موقع صحراوى يبعد حوالى ميلين وفوق سهل أخضر، يمكن أن تسعد باستكشاف عدد كبير من المعابد بالإضافة إلى أكثر من ٤٠٠ مدفن محفور فى الهضاب المحيطة - وهى المنطقة التى كانت تدعى سابقا باسم مدينة الأموات - ثم مع نهاية هذا المكان، على بعد ميلين آخرين وبسلوك طريق ملتو متدرج خلال هضاب من الحجر الجيرى، تصعد فوراً إلى وادى الملوك، وهو المكان الذى تم فيه دفن فراعنة مصر. وفى نفس المكان، بعرض قدره ميل، تقع قرية القرنة، وهى تلك التى يقطنها بعض من سلالة قبيلة الحرويات، هم كانوا قد احتلوا هذا المكان فى القرن الثالث عشر ومهمتهم هى سرقة الآثار، وهى وظيفة ما زال الكثيرون منهم يمتهنونها.

جنوب القرنة، تقع قرية بيراط التى تمتد من حافة النيل حتى أطراف الصحراء الغربية. هى قرية زراعية صغيرة تمتد لمسافة أربعة أميال، يزرع فيها القمح، الذرة وقصب السكر. تربة القرية تتكون من التراب كذلك بقايا المدن الغابرة ببيوتها وقصورها. عندما يقوم الفلاحون بحرث أرضها، تظهر أحيانا قطع فخارية وأجزاء من الحلى والزجاج القديم وأحيانا بعض العظام وبقايا متهالفة من المنسوجات التى كانت تلف حول المومياءات. هى قرية حية عاشت على مدى أجيال عديدة، ومن العسير تخيل عدد من عاش أو مات ودفن تحت أرضها.

يتراوح عدد سكان قرية بيراط حوالى ٧ آلاف نسمة يشغلون أربعة عشر نجعا، كل منها يتكون من عدد من المباني الطينية تتخللها أشجار النخيل والأكاسيا والجميز، كذلك منارات المساجد التى تنتصب هنا أو هناك.

هناك صرح فرعونى واحد فى بيراط، هو معبد ضخيم رائع يقع فى الجانب الشمالى الشرقى من القرية. هذا المعبد تم تشييده منذ ثلاثة آلاف عام بيد الفرعون رمسيس الثالث، ويدعى الآن بالاسم الذى أطلقه عليه المسيحيون الأوائل وهو "مدينة هابو". إلى حد كبير، يعتبر هذا المعبد هو أول أو ثانى صرح فرعونى تم الحفاظ عليه سليما فى مصر، فما زالت ألوانه زاهية يمكن أن تشاهدها فى أسقفه أو حوائطه.

مدينة هابو هذه هى آخر معبد يقع جنوبا فى نيكروبوليس الطيبة، ويساحاته الجرانيتية وأعمدته الضخمة ثم تليه تلك الصحراء الشاسعة،

نتلمس خفوت واضمحلال تلك الحضارة التي دامت قرونا نهاية لسلسلة طويلة من الفراعنة العظام، كان رمسيس الثالث هو آخرهم.

ما بين أعمدة هذا الصرح العظيم وترعة مياه حديثة الإنشاء تدعى باسم ترعة رمسيس، ينحشر أربعون منزلا طينيا قميئا، وهو أصغر نجوع بيراط، ومن الصعب تحديد اسمه، إلا أن الفلاحين تراضوا أن يدعونه باسم "لوهلة"، وهو اسم أحد جدود عائلة كانت تسكن فى هذا المكان.

بالرغم من ضالة هذا المكان، نقول إن سكان هذا النجع احتفظوا فى صدورهم بما هو أكثر أهمية من حجارة المعبد الضخمة، فخلال ٣٢ قرنا حيث انتصب هذا المعبد صامتا ميتا وهو يطل على صحراء جرداء، احتفظ هؤلاء القرويين داخل بيوتهم الطينية بطريقة عجيبة للعيش والحياة، هى طريقة وأسلوب سوف يكون ماله الخفوت والذبول مع مرور الزمن والأيام.

فى عين المسافر، يبدو نجع لوهلة مشابها لأى قرية مصرية وقع بصره عليها، هناك سوف يجد نفس الأبقار وهو تدور صابرة حول السواقي، نفس أكنان الحمام المتناثرة فى السطوح، نفس الوجوه السمراء الكالحة وقد تلفعت بجلابيب لونها أبيض أو اسود. سوف يشاهد أيضا الدخان وهو يتصاعد من الكوانين والأفران البلدية، كذلك أقراص الجلة المجففة التى هى بقايا فضلات الحيوانات، القهوة التركية،

ويتشتم روائح حلوة وثقيلة فى نفس الوقت.إذا اجتزت حواريتها الضيقة الملتوية، ولم يشغلك الذباب المتكاثر والغبار والعفار والرياح، فربما شعرت وأحسست بمتعة غامرة، لكن لا أحد فى رأى يمكن أن يرحب بالعيش الدائم هناك. وفى إحدى هذه الحارات، يقع بيت بطلنا شحات، ومن هنا تبدأ قصتنا.

الجزء الأول

"أن تقاوم من هو فى السلطة، هو شر وإثم"

(من وصايا أمنتب - ٢٦٧٥ ق.م - طيبة)

" فاض نهر النيل، عشب مصر وأرضها وزرعها جيد، اذهبوا على
بركة الله وعونه، تمتعوا بخيرها، ألبانها، بهائمها، قطعانها وارعوا
جيرانكم وأحسنوا إليهم"

(عمر بن الخطاب، قاهر مصر، الذى خرج جيشه من الأراضى
العربية وقوامه ٣٥٠٠ من الفرسان عام ٦٣٣ م، هذا الخطاب أرسله
لمحاربيه بعدما قهروا الرومان واستولوا على مصر.)

صلاة مقدمة لآمون رع

"يا رب، نفسي توعدنى بزيارة حبيبك رسول الله فى مكة المشرفة،
بأى طريقة كانت، لكن لازم تكون الزيارة بفلوس حلال، قبل ما أتكلم
واموت".

استمع شحات لدعاء أمه المملوء بالوجد والعواطف المحتمة وقد
ارتسمت على شفتيه ابتسامة ساخرة، متوقعا ما سوف يجرى لاحقا.

"لكن يا رب، لازم تسمح انى أخذ معايا الواد شحات ده "

"تاخدينى أنا ؟ دا انا ما اسافرش حتى لو ببلاش."

اتسعت فشخة ابتساماته، فهو عندما يشعر بالحبور والمرح ترتسم
على وجهه ابتسامة حنونة، واسعة لطيفة كأنما هو طفل صغير. هى
ابتسامة معدية، ما أن تراها هى حتى تضطر أن تقابلها بالمثل. ثم قهقهه
بصوت عال وهو يرمق والدته وقد تلبست بنوع من الوقار الجاد الذى
تتقمصه عندما يحاول أحدهم أن يسحبها إلى أسفل لتلامس قدميها
الأرض.

بدأ بعد ذلك فى إغاضتها، "إذا انتى رحتى مكة، طبعاً حترجعى من هناك وانتى مسلمة بحق وحقيقى، وبعد كده ممنوع نقربع عرقى ولا نسب ولا نشتم، حنديقيها علينا يعنى. مين بعد كده يقدر يعيش معاكى. بقى انتى عايزة تروحي مكة، يا سلام، يا سلملم".

هكذا كانت الأحوال بينهما فى ماضى الأيام، ففى مواجهة أم حامد يظهر ابنها شحات دائماً بمظهر المتحدى والمخالف لرأيها. كانت دائماً ما ترفع يديها إلى السماء وهى تتقدم بأمنياتها، حيث تلتهم عيناها بطريقة مسرحية متقنة، بينما يواصل شحات السخرية منها ويقاوم أفكارها.

قالت له مرة، "شوف يا شحات، لازم يا ولدى تلبس كويس، حتى لو جعت وما لقتش الرغيف". هو عادة ما يسير فى شوارع القرية مرتدياً جلابيته السوداء المملوءة بالثقوب التى يبدو من خلفها شعر صدره الكثيف أو ذراعه السمراء المفعمة بالقوة، ويعتمر فوق رأسه بشال ملفوف، أما رجلاه الحافيتان العظمتان فإنهما تدقان بقوة فى بطن الأرض المتربة، كان فى الحقيقة يبدو كأنه فعلاً، شحات يستعطى.

يقال إن الفلاحات المصريات يبدو عليهن كأنهن بلغن أرذل العمر وهن فى الثلاثين من العمر، ففى ذلك الجو الصحراوى الجاف والحرارة الحارقة، تصبح المرأة نحيفة ومقددة، وبدلاً من مظاهر الجمال والابتسامات الخلابة تحل مسحة من الحزن والوقار. لكن أم حامد هذه،

وهى فى منتصف الأربعينيات من العمر ما زالت جميلة. حقيقة أن وجهها الآن متغضن قليلا، وينكمش ما حول عينيها عندما تشعر بالمرح والسرور، وقد تظهر خطوط باهتة حول فمها عندما تحس بخيبة الأمل والإحباط، إلا أنها مع ذلك تمتلك وجهها عظميا قويا له سماته المميزة، لا يتأثر كثيرا مهما أظهرت لها الحياة محنا أو مصاعب. لها أنف مستقيم، وجهه بيضاوى، بشرة رائقة وعيون واسعة لامعة نتلمس مثيلا لهما فى التماثيل والأشكال الفرعونية القديمة. يبدى الغرباء دهشتهم البالغة عندما يعلمون أنها أنجبت عشرين بطنًا، فقط لترى بعينيها أربعة عشر منهم يمرضون أولا ثم يختطفهم الموت. ما أن بلغت هذه السيدة منتصف العمر، حتى عانت من مأس وحسرات متعددة، ليس فقط من أن معظم أولادها قد ماتوا ما عدا ستة منهم، لكن أيضا بسبب وفاة والديها وجديها المفاجئ بسبب مرض الطاعون. وقد تعرضت كل عائلتها لهذه المصيبة ولم ينج سوى شقيقين لها.

هذه المصائب علمت أم حامد كيف تكون قدرية، لكن إيمانها الأكيد بمفاعيل القضاء والقدر لم يمنعها أبدا من استشراف المستقبل، فتوقعاتها هى التى أبقت عليها حياة وفعالة. معظم أمالها وتوقعاتها صبتها فى ابنها شحات هذا، فهو أكبر أبنائها الذكور الثلاثة الذين ظلوا على قيد الحياة، والأول فيهم الذى يصل فعلا إلى مرحلة الرجولة.

إنه لا يشبهها بأي حال من الأحوال. أحد أجداد زوجها عبد الباسط لم يكن من فلاحي وادي النيل، لكنه كان بدويا عربيا. هو أحد راكبي الخيول الذين عاشوا في الصحراء بين صخور الجانب الشرقي البعيد لنهر النيل ويمتهنون أساسا رعى الغنم وتحميل البضائع على ظهور جمالهم في أوقات الندرة والقحط، قد يلجأون للسرقة والإغارة والقتل في أحيان أخرى. كان هناك دائما نوع من الكراهية والبغض ما بين "حفاري الطين" في الوادي وبين مرتادي الصحراء والقفار هؤلاء. لكن "خليفة"، وهو الجد الأكبر لشحات، عصى أوامر قبيلته وتعارك معها، ثم اتجه نحو وادي النيل مصطحبا عددا وافرا من الجمال وباعها واشترى بثمرتها أرضا زراعية، ثم تزوج واستقر. بعدها اغتنى واشترى عشرة فدادين، هي التي منها ورث عبد الباسط جزءا منها عن طريق أبيه.

الدم البدوي هو الذي استقر في مجرى دماء شحات، لذا ما أن ثبت نمو بنيانه الجسدي، حتى بلغ طوله ستة أقدام، وأصبح ذا جسد قوي، عضلات مفتولة، عود مستقيم كالعصا، بشرة بنية اللون مع أنف محدب قليلا.

لذا فيما عدا شعره الأكرت الذي يشي بمنبته الإفريقي الأسود، فإن شكله يبدو أعرابيا أكثر منه مصرياً. معظم الشباب في قرية "بيراط" يبدون قصار القامة ببنيان كثيف وعظام وجنات قوية وأنوف

مفلطحة وفكوك سميكة. بالمقارنة بوجوههم الكالحة، يبدو وجه شحات أكثر تعبيراً وإحساساً. ملامحه سامية دقيقة وطباعه ثائرة عنيدة، يخترقه شعور دافق يؤكد أهمية الأخذ بالتأثر بكل مظاهره القاسية. هو يعشق الصحراء بكل قسوتها وهى تلك التى ينفر منها باقى الفلاحين وينظرون إليها بكل الخوف والهلع. صبغت كل هذه الظواهر شحات، لذا بدا كأنه واحد من سكان الخيام ورعاة الإبل.

مثل هذا الدم العربى ليس نادر الوجود فى الأوساط المصرية، هم أناس تجدهم طوال القامة، أعوادهم صلبة، لون بشرتهم أكثر سمرة. هم يقطنون المنطقة الوسطى من وادى النيل حتى أسوان، بالرغم من أن عددا كبيرا منهم دماؤهم فرعونية خالصة.

أم حامد لم تتمكن أبدا من فعل شئ ما فيما يختص بالطباع الثائرة لابنها شحات، فأبناؤها الاثنان الآخران الذكور وكذلك بناتها الثلاث يشبهون عائلتها من جهة الطباع والملامح الجسدية. بعد كل ثورة عارمة يندفع فيها شحات، كانت ترفع يديها نحو السماء ضارعة، "يا رب، هدى طبع ولدى وخليه يبقى هادى ورأسى".

مع كر السنين، تعهدت أم حامد خيالاتها وأمنياتها أيام الصبا، كان هذا يحدث كثيرا بالرغم من اللطمات التى تلقتها بالكيل من الخسارة وسوء الحظ، لكنها لم تلتمس أبدا أو تسعى لأن يشفق عليها الآخرون، بل كانت تنفر من هذا السلوك بسخرية بالغة. كانت ترغب

دائما أن يتقبل جيرانها فكرة أن الحياة قد ضيقت عليها، لكنها لا تنتوى أبدا أن تستمر في حالة الفقر هذه إلى الأبد. بخيالها الجامح، بالرغم من حالة الفقر المدقع الذي أمسك بتلابيبها على الدوام، تعلقت باعتقاد راسخ قوامه هو أنه إذا أتيح لها أن تقبل الحجر الأسود في الكعبة وتزور جبل عرفات لتنهل من بركات الله، فإنه تأكيداً سوف تتغير أحوالها إلى الأحسن والأفضل.

قبل عام من ولادة شحات، كسرت أم حامد أهم القواعد الإسلامية قداسة، وهي أن لا إله إلا الله. منذ ذلك الحين أصبحت أكثر ورعا ومداومة على الصلاة والصيام. لقد خشيت أن يكون طبع شحات المتفجر وعصبيته الزائدة ليست سوى عقاب من الله. لقد استقر في وجدانها اعتقاد جازم بأن الحج إلى مكة هو السبيل الوحيد لأن يغفر الله ذنبها. لكن ما الذي فعلته هذا السيدة ؟

لقد صلت لكي ترزق بغلام قوى يعيش حتى يبلغ طور الرجولة، لكنها لم تتقدم بصلاتها هذه إلى الله، لكن إلى الإله المصري القديم : آمون رع !

بالرغم من مرور عشرين سنة على هذه الحادثة، ما زالت القشعريرة تملكها عندما تتذكر هذا الموضوع. إنها تتذكر حالها وهي في عمر الثانية عشر عندما انتشرت تلك الحمى المرعبة التي جعلت ملاك الموت يعمل بكل همة ونشاط ويحصد أحياءها، لدرجة أنهم كانوا يرصون

الجثث فوق بعضها وينقلونها على ظهر عربة كارو ويلقون بها جملة فى حفرة واسعة داخل نطاق مقبرة البلدة، وبذلك لم يتح لأى فقيده أن يحصل على شاهد قبر واحد. تتذكر أيضا كيف أنهم زوجها بعد ذلك بعام واحد من عبد الباسط، وهو ذلك المجند الذى أنهى خدمته فى الجيش منذ قليل، بشعره الأكرت وصدره العريض. لكن من عليه أن يدفع ثمن جهازها، إنه ليس سوى قريب لها يعيش فى قرية قريبة تقع على النيل، وقد تكرم هذا الرجل ولم يدفع سوى أربعة جنيهات لا غير.

تذكرت أيضا أيام شبابها الغض ومقدار شعورها بالعزة والفخر، وما كانت وما زالت تكنه من حب وإعزاز لأخويها، لا سيما أحمد الذى تيم وهو فى سن الرابعة من العمر- وكيف أنها لم تتوافق أبد أو تنسجم مع أقرباء زوجها عبد الباسط، لذا اضطر أن يبنى لها منزلا بالطوب اللبن فى مكان بعيد فى السهل.

كم نهلت من سعادة ورضا بالغ خلال السنوات العشر الأولى من زواجها، إلى أن سقط ابنها جهلان والعزب وعمرهما تسع وثمانى سنوات مريضين، وبعد عذاب مضم وأمل ورجاء، توفيا الواحد تلو الآخر. لم يشرح لها أحد لم حدث هذا. لقد استقر فى ذهنها أن الشيطان قد أرسل الجن لى يخنقوا طفلها. ثم رزقت بعد ذلك ببنتين عاشتا. لكن عندما ولدت بعد ذلك ذكرين متاليين وماتا بنفس الطريقة، خشيت أن يطلقها عبد الباسط.

تملكها خوف وقلق بالغين، وقامت بالتضحية بعدد من الخراف في أقدم الأماكن، وذهبت للسحرة ليكتبوا لها التمانم والرقيات التي قيل لها أن تحرقها في وعاء للبخور لتتحقق أمنياتها. أيضا استشارت الشيوخ والمتصوفين وداومت على الصلاة لله، بل إنها أيضا سعت للحصول على المساعدة من القسس الأقباط، فمركزها كامرأة وزوجة وأم كان في مهب الريح.

أخيرا، وبعدما فشلت كل الوسائل، في وقت متأخر من الليل، زحفت متلصصة نحو الجدار الشاهق للمعبد الجنائزي لرمسيس الثالث لكي تتوسل للآلهة القدامى.

تملكها خوف وجزع، فالزمن هو شهر أغسطس، حيث تهب رياح عاتية ترد من الصحراء الغربية المجاورة تزلزل أعواد النخيل، إما الرجال الذين يمتطون الجمال أو الحمير ويسيرون بمحاذاة جدران المعبد الضخم، فإنهم يراعون تغطية وجوههم لكي يتقوا شر الغبار والرمال الطائرة التي تلمس عيونهم لتطمسها، كل مألوف في نظرهم يبدو غامضا ملفوفا بما يخيف ويرعب. فوق أحد أبراج المعبد، تذبذب ضوء مصباح الحارس، راسما أشكالا شبحية متحركة تتحلق فوق الجدران الحجرية. انتظرت أم حامد طويلا حتى يبتعد الحارس من مكانه، ورأته وقد عبأت الرياح جلبابه المتطاير خلفه، بينما يتابع جولته ليكمل دورته الليلية المعتادة. نحن الآن قد تجاوزنا منتصف الليل، هو الوقت المناسب

الذى تعتقد أم حامد أن الجن والعفاريت تخرج من معاقلها لتجوب وتتجول، وقد سمعت أيضا أن المعبد يشغى بالأفاعى السامة والعقارب المميتة التى تتحرك بكل حرية فى الظلام الدامس.

موقع المنزل الذى بناه عبد الباسط يقع فى نطاق الأرض التى ورثها من أبيه، قريب للغاية من الجدران الشرقية للمعبد الضخم، الذى يستقر بجانبه أيضا بقايا حصن رومانى وبوابة احتفالات شاهقة بناها رمسيس الثالث. لم تزر أم حامد، مماثلة فى ذلك أقرانها من السيدات هذا المعبد من قبل، أما الآن فقد أدركت كم هو ضخم واسع مهيب، فقد امتدت مجموعة من المنشآت الجرانيتية، عملاقة المقاسات افترشت الصحراء الممتدة، ظهر أمام عينيها المعبد الجنائزى لرمسيس الثالث وقد احتل مساحة واسعة، بدا كأنه عملاق ضخم بجواره عدد من الأقزام، فأنصابه شاهقة وقاعاته متعددة، الواحدة تلو الأخرى، بالإضافة إلى أبراج وتكوينات أخرى غريبة الشكل والتكوين، استقر على جانب ردم أنقاض قصر ملكى. هذه المجموعة كلها تدعى "مدينة هابو"، هو الاسم الذى أطلقه عليها المسيحيون القدامى الذين ابنتوا كنيسة داخل المعبد كانوا يلوذون بها إبان الاضطهاد الرومانى فى الزمن القديم، وقد حاولوا حينذاك أن يطمسوا الرسوم ذات التعبيرات الجنسية من أعمدة المعبد.

أطلق عليه الفلاحون اسما مجردا وهو "المدينة"، ولم يعيروه اهتماما بالغا. بخلاف الحافلات التى تظهر بين الحين والآخر محملة بمجموعات

من السائحين الأجانب، فإن المكان يصبح مهجورا لا يشغله سوى أسراب ضخمة من الحمام التي بنت أعشاشها فى حمى ظلال أعمدته وجدرانها الرهيبة، وعندما يظهر صقر فى الأفق، يهرب الحمام فى دوائر متتالية تظلم المكان كله.

قليل من الفلاحين هم الذين كانوا يزورون المعبد نهارا، لكن لا أحد منهم يجرؤ أن يرتاده ليلا. إنهم لا يخشون فقط مغبة إلقاء التهم عليهم بأنهم يحاولون السرقة، بالتالى يتعرضون للضرب المبرح والتعذيب من رجال الشرطة (وقد سمعت أم حامد حكايات كثيرة عما كان يحدث فى تلك الحالة)، ولا من رؤية تماثيل المساحيط الضخمة برؤوس على هيئة قطط أو ابن أوى التى تزج مشاعرهم الإسلامية، لكن هناك فى داخل فؤاد كل واحد منهم شعور داخلى مبهم غير طبيعى فيما يختص باستجلاء تلك الأشكال الغريبة التى يعج بها المعبد.

ما أن شاهدت أم حامد ضوء مصباح الحارس يبتعد عنها بمقدار، تحركت متلصصة بجوار الجدران العالية التى لاحظت أنها تزينت بأشكال حياتية متنوعة غريبة كما أخبرتها بذلك الشيخة "داية" - حائط بأكمله خصص لرسم قضيب الذكر- كما لو أنه فى ديانات الأمم القديمة يختلط دائما المقدس مع القبيح فى أن واحد. هناك أيضا رسوم توضح انتصارات الفرعون فى الحرب، ألسنة يتم قطعها، سجناء يدهسون تحت عجلات المركبات الحربية، رؤوس تقطع، رجال يتم خصيهم، مع أكوام

عديدة من الأعضاء الذكرية المحفورة فى الحجر. رأت جميع ما كان يهمس به جيرانها . بالرغم من أنه مبنى شيد إكراما للموتى ومهد للحياة، إلا أن المرء عندما يشاهد تلك المناظر ينتابه قوة شبق طاغية وجاذبية شريرة. تذكرت أم حامد ما كان يهمس به الفلاحون، وكيف أن الشهوة كانت تسيطر عليهم وهم يشاهدون هذه الأشكال، كأنما هذه الرغبات الوليدة قد تفجرت داخلهم جراء إشعاعات صادرة من هذه الأحجار المرسومة ذاتها.

شمل فؤاد أم حامد خاطر آخر، أنه مزيج من الخوف والرعب. لم تعد الآن ترى مصباح الحارس، لذا أسرع بترك ظلال الجدران واخترقت مسارا تحفه أعشاب طويلة، والندى يغمس رداءها وملأها الطويلة. وصلت أخيرا إلى المكان المطلوب وهو البحيرة المقدسة لأمون رع القائمة فى مكان عميق تحيطه الأعشاب وعتبات حجرية متدرجة. أخذت تنظر هنا وهناك، ثم انسلت هابطة الدرج ونزلت فى البحيرة سبعة مرات. تذكرت أنه لا يجب أن تبدو متسعة، لكن عليها أن تهبط بخطوات متأنية محسوبة تشابه ما هو مرسوم على جدران المعبد، كما نبهت عليها بذلك الشيخة "داية".

تحركت وتمايلت واقشعرت من أخمص قدميها حتى قمة رأسها، حيناً تتوسل وتطلب مغفرة الله، وأنا تتوسل للإله المجهول، أمون رع، لكى يتحنن عليها وتخلف ولدا يتمسك بالحياة ولا يموت مثل سائر أبنائها

الذكور، وأن يبلغ مبلغ الرجال. أخذت تدور وتدور منشغلة بهمساتها المبهمة، أخيرا انهارت على شكل كومة لاهثة مرتعشة، ثم وهى تعاند نفسها، غطست يدها فى المياه الراكدة السوداء وشربت قليلا منها.

لم تخبر أحدا بفعلتها هذه، وعندما ولدت "شحات" دعتة باسم "محمد" على اسم نبي الإسلام، ثم، خوفا من عيون الحساد المحيطة بها من كل جانب، بدأت فى المناداة عليه باسمه الحالى وهو "شحات".

كانت أم حامد تترك طفلها بكل قذارته بدون تنظيف، مرتديا ملابس ممزقة، وعيناه تعف عليها زرافات من الذباب التى تنتقل بخفة من عين لأخرى، بدون أن يبذل أحد جهدا لإبعادها. أصبح الطفل "شحات" مهملا بالكلية، وحاولت أمه بكل جهدها أن تخفى عن الجيران وكذلك الجن أن محور حياتها ومركزها يدور حول هذا الطفل. حتى وهو ولد صغير كان "شحات" نصف ملاك ونصف شيطان، يلذ له أن يسير فوق رغفان العيش قبل دخولها الفرن، ويدفع دائما يده الصغيرة فى نيران الكانون، أو أن يحبى مطاردا الخنافس والحيات والعقارب. لهذا لجأت أم حامد إلى الشيخة داية لترقى هذا الولد لتحمية من قرص ولدغ الحشرات والتعابين الزاحفة. منذ أن حصل على الرقية، أصبح بإمكان شحات أن يضع عقربا على ذراعه العارى ويدفعه ليتحرك ولا يحدث له شئ. فى حمى القلق عليه، لم تطفمه أمه إلا بعد أن بلغ الثالثة من العمر.

كلمة شحات لها مدلول آخر فى اللغة العربية، فبالإضافة إلى كونها تعنى متسول، فإنها تعنى أيضا " المرغوب أن نحصل عليه كعطية من الله"، وهذا ملائم تماما لحالة "شحات".

ما أن بلغ شحات السادسة عشر من عمره، حتى بدا عليه كأنه قد اكتمل نموه، فقد تضخمت عضلاته وأصبح بإمكانه أن يؤدي عمل رجلين فى آن واحد. كان سريع البديهة، لكن لا أحد فكر أن يرسله إلى المدرسة الإلزامية التى تقع فى قرية "الكوم" القريبة التى افتتحت مع قيام الثورة المصرية عام ١٩٥٢، هذا التاريخ هو أيضا تاريخ مولد شحات. قليل من الأولاد هم الذين التحقوا بهذه المدرسة. طبقا لخبرة أم حامد وزوجها عبد الباسط، كان التحاق ابنهما بالكتاب الذى يقع فى قرية الكوم كافيا لأن يتعلم كيف يقرأ ويكتب ويجمع وي طرح ويحفظ القرآن، لأن مهنته الأساسية سوف تكون العمل بالزراعة فى الأرض ملكهما. ما أن كبر شحات قليلا، حتى أرسلوه إلى الحقول ليعمل. لم يمانع شحات أبدا، بل إنه أحس بالفخر يملأ جوانحه لأنه كان يؤدي عمل الرجال، وتقبل وضعه هذا لأنها ليست سوى مشيئة الله.

بلغ عبد الباسط الأربعينيات من عمره، لذا ترك موضوع الزراعة كلية على كاهل ابنه شحات، واكتفى بأن يفتتح دكانا صغيرا ملاصقا لجدران المعبد، يتجمع فيه الفلاحون فى أوقات فراغهم ليلعبوا الكوتشينة

والدومينو، واختص كل وقته فى معاقرة الخمر ولعب القمار. لم يعد وسيما كعادته، بل أصبح سميئا بشارب أسود كث ووجه أحمر قان بسبب الخمور التى يتجرعها يوميا. يبدأ عادة يومه بقربعة كوز أو اثنين من عرق البلح تكفيه حتى الليل. كان عبد الباسط رجلا لطيفا محبوبا من كل رجالات القرية، يتمتع بموهبة جذب الأصدقاء والاحتفاظ بهم. عندما ترتفع أسهم حظه، يكسب الكثير من لعب الكوتشينة. هو أب وزوج حنون، لكن زوابع الغضب التى تنتابه أحيانا - وهى الدليل على تواجد خليط الدم البدوى الذى يسرى فى عروقه، وقد ورثه لابنه شحات - تنتهى سريعا كما بدأت.

عندما يجانبه الحظ، كما يحدث أحيانا، تبادر أم حامد - التى تحب زوجها بشكل جنونى وطاغ - ببلع كرامتها التى تعزز بها، وترسل شحات إلى سوق الأقصر محملا بالطماطم والبصل ليقايض بها من باب لباب. كان شحات يتطلع إلى هذه المهمات التى تبدأ فى فجر اليوم مصطحبا حماره حتى نهر النيل، ثم يعبره مستخدما المعديا بمجرد أن تبدأ حركة العبور. المعديا الثقيلة العجوز، ذات الشكل الغبى، تتحرك مغادرة الشاطئ بكل ثقاقل وبطء. لا يدرك شحات ما إذا كانت قد تحركت أم لا سوى بملاحظة تباعد الشاطئ رويدا رويدا. يأخذ عادة جانبا من المعديا ويراقب الضباب وهو يتصاعد بينما يلف شاله بإحكام على وجهه، ثم يراقب باقى الركاب وقد أحنوا ظهورهم انقاء

لصقيع الصباح. هؤلاء الناس لا يتحدثون مع بعضهم قليلا. الكل ملخمد(*) فى لفائفه ورؤوسهم تلامس صدورهم فى حالة نوم أو تفكير عميق وتدبر. يبدو لشحات وهو يراقبهم من خلال الضوء الرمادى الغامق للصباح المبكر كأنهم جميعا يمتطون ظهر حيوان خرافى غريب يعوم، مقصده هو بلاد باردة مجهولة. ثم تتأرجح المعدة وتعدل نفسها لأنها بلغت منتصف المسافة، ثم سريعا تتركب بعنف لإجراء مناورة الوصول إلى الشاطئ الآخر.

عندما يعود إلى القرية، يدور هو وأم حامد أرجاء البلدة وقد ارتفعت أصواتهما مولولة، " تعالى وبص. البصل الأخضر الطازا، يالله تعالوا، الطماطم ! "، لكن عندما شعرت أم حامد أن هذا الأسلوب فيه إهانة لمركزها، انقطعت عن مصاحبتة، وأصبح هو وحيدا، يضحك ويهز مع كل من يقابله. إنه إنسان ثرثار، لا يحمل هما، يعامل الجميع بالمرح والكل يرحب به. النساء على وجه الخصوص كن متخصصات فى إغاضته، الواحدة منهن تمسك بخضرواته متأنفة، ويعبارات ساخرة تقول، " خضارك غالى يا شحات، مش قد كده، انت ليه مغلوانى يا واد". فيبادرها بابتسامة واسعة، ثم يغمز لها ويقول بصوت على مسمع الجميع، " طيب، أشوفك بالليل"، هنا تصطبغ وجنتاها من الخجل، فيجلجل هو بضحكات خشنة عميقة. إذا ظن شحات أن الموقف يدعو للسرور،

(*) ملخمد : فى لغة الصعيد تعنى أنه ملتف بكل ما لديه من ثياب وأغطية .

فإنه فجأة يطلق ضحكات متتالية حتى تدمع عيناه. إنه دائما ما يكون قليل الحياء، ومتخصصا بالذات فى شقيلة التحيات المعتادة. مثلا "صباح الخير" تصبح عنده "صباح الزفت"، و "إن شاء الله بكرة" تصبح "إن شاء الله بكرة نموت".

اعتاد جيرانه على فوران طباعه. هناك قول شائع أن الفلاح الصعيدى يشبه البركان الذى ينفجر فجأة فى وقت غير متوقع. إذا عامل أحدهم أبويه بشكل غير لائق، أو أن يسئ أحدهم لطفل أو رجل فقير، حينئذ تنقلب سحنته، وتمتلئ عيناه بأمارات الغضب ويحمر وجهه وتنفر عروقه. ويمكن أن تميز غضب شحات، عندما يرتعد صوته وينبعث من عينيه الشرر ومن الحركات الدائبة لذرأعيه الطويلتين بينما يقبض وييسط كفيه باستمرار. مع ذلك، إذا كان هو سريع الغضب، فإنه ما ينفك أن يعود سريعا ليصبح أليفا وتهذا أخلاقه. إذا شعر شحات يوما بالانقباض، فإنه يجلس كأنما هو مشلول، يركز ناظريه إلى فضاء نهائى أمامه ويكاد أن لا يسمع صوت أحد. هذا بالطبع يسوء جيرانه ويشعرون كأن هناك شيئا مفقودا فى يومهم هذا.

مماثلا لأم حامد، شحات مغرم بالثرثرة، وطباع وتصرفات زملائه الفلاحين تسحره، ولكى يشرح أحداث يوم ما، يقلد صوت الآخرين ويغير من تعبيرات وجهه وصوته. هو أيضا مثل والدته، يحب أن يسرف فى سرد التفاصيل، يستنبط من الذاكرة وصفا كاملا وحديثا شاملا كان قد استمع إليه سابقا. عندما يتكلم، فإن يديه بأصابعها البدوية لا تهدأ

أبدا، هو يحركها جيئة وذهابا، يرفع إصبعها فى الهواء، يقبض يدا ثم يضرب بها على سطح ما. كل جيرانه يفضلون سماع شحات وهو يصف حادثة ما، من أن يشاهدوها بأنفسهم.

بعد أبيه، الرجلان اللذان يقدرهما هما خاله أحمد، كذلك شريك عبد الباسط فى المزارعة، فاروق، علما بأنهما لا يشبهانه فى شىء.

بالرغم من أنه يعتبر شابا، لأنه لم يتعد بعد أواخر العشرينيات من عمره، إلا أن الخال أحمد كان جهما بارد الأعصاب. لا يميل للمرح والهزار. هو إنسان جاد لا يحيد عن طريقه ويكره الانغماس فى الرغى التافه. يبدو دائما أنيقا فى ملبسه وذا قوة بادية. حوله يتحلق شحات مبهورا وقد اصطبغ وجهه بإعجاب زائد. عندما تقع عيناه على خاله، يشعر فوراً بارتباك، كما لو كان فى حضرة بطل من الأساطير، ويحس بخجل بالغ من أساليبه الخشنة القظة. كان أيضا يشعر بقليل من الغيرة من أحمد لأن أم حامد كانت دوما ما تغمر أخيها بكل الحب الأمومى، فهى التى ربتة عندما كان طفلا صغيرا. هى دائما ما تدافع عنه قائلة، "أحمد عمره ما لعب زى العيال التانيين، من صغره كان لازم يكون شديد ويأخذ حقه بدراعه، وعمرى ما شفته بيضحك من قلبه".

أما "فاروق" فهو عكس ذلك تماما، هو معجون بالضحك والفرقة. فاروق فى منتصف الأربعينيات، خشن المظهر، متوسط الطول، وجهه منتفخ، ووجنتاه منقرتان، عيناه حمراوان، شفاته الرطبتان المنفرجتان

تعطى ذلك المظهر المميز لمعتادى السكر والشهوانيين. كان فاروق هو الملازم الدائم لعبد الباسط فى جلسات قربة الخمر، عديد من الليالى كانا يحضران إلى المنزل سويا يتطوحان، يداهما متشابكتان، يتمايلان على بعضهما بعضاً. وبصحبة صديق آخر أو جمع من الأصدقاء، يجلسون خارج المنزل يتشاركون فيما بينهم زجاجة عرقى ويتحدثون ويقهقهون بصوت عال.

صلة فاروق بالأسرة أصبحت قوية، منذ عام مضى، عندما بلغ شحات سن الخامسة عشر، غمر الأرض آخر فيضان للنيل فى شهر أغسطس. فالسد العالى الجديد فى أسوان حجز أمامه كمية كافية من الماء تكفى لزراعة سنة كاملة للمرة الأولى فى التاريخ. ويمكن بذلك تحقيق زراعة ثلاثة محاصيل ، بالإضافة إلى إدخال زراعات جديدة مثل قصب السكر. هذا وقد قامت الثورة بتوزيع إقطاعية سنباط على الفلاحين. عبد الباسط، وهو المجند السابق فى الجيش، يحق له أن يحصل على أرض منها، لذا لجأ لأصدقاء عديدين صفار فى الحكومة وأمكن لهؤلاء أن يضعوا اسمه ضمن المستحقين لأرض يملكها ليزرعها. بالفعل حصل على فدانين وربيع فى جهتين مختلفتين من سنباط على بعد حوالى ميل من منزله فى الجهة الأخرى من قرية الكوم. هذا البعد جعل من الضرورى أن يجد شخصا من سكان الكوم يعيش بجوار أرضه يشرف عليها ويحميها.

لم تمنح له الأرض فى التواللحظة، فقد حرصت الحكومة أن تدل الملاك الجدد عما يجب أن يزروه و متى يحدث ذلك، فهى التى تمدهم بالمياه - ليست كافيه ولا تأتى فى موعدها المناسب- وتدينهم أيضا بأثمان البذور والمخصبات والعمالة. ثم تشتري الحكومة منهم جزءا من المحصول بأبخص الأثمان، هذا يعنى بالضرورة التعامل مع مفتش الزراعة بما يعنيه ذلك من تأخير، محسوبة ورشوة، لذا فضل معظم جيران عبد الباسط أن يتعاملوا مع ما يسمى نظام المزارعة، هو نظام من شأنه أن يقوم شخص ما من قاطنى قرية الكوم بحماية المحصول وأن يكون قادرا على التعامل مع مفتش الزراعة، ويساعد فى أعمال الحرث، الزرع، الرى، التنقية والجنى، على أن يحصل على ثلث المحصول.

فى البداية شارك عبد الباسط المدعو "طيّار" وهو زوج ابنته ويملك دكانا، وهو فلاح أيضا مستقر فى الكوم وله شأن معتبر بين الأهالى، لكن عندما طلق طيار زوجته وتزوج من أخرى، استبدله عبد الباسط بفاروق.

شارك فاروق أيضا سبعة فلاحين آخرين بنفس النظام، لذا وجد نفسه يرفل فى عز مقيم. كان سابقا يعمل خادما فى إقطاعية سنباط، وعرف جيدا ما الذى يعنيه الفقر، أما الآن فقد تعرف على النقدية ووفرتها لأول مرة فى حياته. فى البداية عمل بكل جد وإخلاص، لكن بعد

ذلك استخدم عمالا آخرين ليرعوا له المحاصيل وتعامل جيدا مع مفتش الزراعة، بينما انغمس فى فج عميق من الدنس، الفجور، الشرب المفرط، تدخين الحشيش، مطاردة النساء وقضاء وقت ممتع مع صديقه عبد الباسط يلعبان القمار. قالت عنه أم حامد، إنه يخطر فى شوارع القرية كأنما هو العمدة ممتطيا حماره الأبيض، وجلبابه الأبيض الذى يغيره كل يوم يرفرف حوله، بينما كان واجبا أن يكون مستقره فى الحقول ليرعى مسؤولياته العديدة.

شعرت أم حامد بقهر شديد لأن أخلاق فاروق معروفة للجميع، كانت تفضل أن تشارك " طيار " الجسيم، ضخمة الجثة ومع ذلك، لا يفوته أبدا حضور صلاة الجمعة، هو إنسان محترم بحق وحقيق. عندما اشتكت بأنه ربما فاروق يغشهم، أخبرها عبد الباسط- الذى لا يرى بأسا أن ينهال عليها ضربا إذا لزم الأمر- أن تخرس وتبلع لسانها. كان هو سعيدا بشريكه، ولا يلتفت أبدا لتقولات الجيران، لأن سمعته كشريب للخمور المعتقد تفوق سمعة فاروق.

شعر شحات بالحزن وهو يشاهد آخر فيضان للنيل، منذ البداية أخذ ينظر بشك نحو سماء نيتروكيما الذى ينتجه مصنع جديد أنشئ فى أسوان ليحل بدلا من غرين النيل الخصيب الذى يرد مع كل فيضان. حتى الآن، كانت الأرض التى تتعرض لفيضان نهر النيل ويحدث لها تسميد طبيعى، هى الوحيدة القابلة للاستزراع، فما أن تصل مياه

الفيضان فى أغسطس لتغمر الأراضى، لا يعد سوى القليل الذى يمكن عمله. فالفلاح عليه أن يبذر الأرض بتقاوى القمح، الشعير، العدس أو الذرة فى شهر نوفمبر، ثم ينتظر حتى يحين وقت الحصاد فى حدود شهر أبريل.

أما الآن، فإنه يتم استزراع ثلاثة محاصيل خلال العام الواحد، وحتى فى عز الحر اللافتح، لا ينتهى العمل فى الحقول، والسماذ الصناعى يستخدم للمرة الأولى فى أراضى وادى النيل بالصعيد.

شعر شحات بإحباط بالغ، فهو الذى عليه أن يزرع أرضهم الموروثة من أجداده القائمة بجوار منزلهم ويسعد هو بها. أما الأرض التى تملكوها فى سنباط، فالأمر مختلف، إنهم مضطرون أن يستعينوا بفاروق أو المفتش تقريبا فى شأن كل شىء، ونادرا ما تسير الأمور كما يرام. إنه يتمنى أن يكون مستقلا عن أى إنسان آخر.

منذ أن وصل شحات إلى مرحلة البلوغ، وجد نفسه فى حالة جوع جنسى حاد. كان ممزقا ما بين فخره بذكورته، وبين اعتبارها كلعنة حلت به. القرية لم تمدده سوى بالقليل مما يرضيه ويريقه. أطلق عليه فاروق والرجال فى الحقول لفظ " التور "، لأنهم كانوا يتغامزون دائما على حجم قضيبه غير العادى، وادعوا أنه لن يرضيه سوى أن يضاجع حمارة. إنها مأساة كل شبان القرية، فقليل من النسوة كان متاحا، وحتى إذا كن راغبات، فإن المخاطر الاجتماعية فى مجاراتهن كانت

كبيرة وخطيرة. الآيات القرآنية تنص على أن المرأة الزانية ترحم، والزاني أيضا يستحق مئة جلدة.

في الحقيقة، سار كل شيء في طريق ممهد، ولو سرا وفي استحياء، فالقوانين الإسلامية تحتاج إلى تقديم دليل قوى، وتهمة الوقوع في جريمة الزنى تحتاج إلى شهادة أربعة شهود، ومن الطبيعي أن تحقيق هذا الشرط نادر للغاية. آخر حادثة زنى مؤكد، حدثت منذ عدة سنوات سابقة، فيها قام الزوج وأبوها وإخوتها باصطحابها إلى قلب الصحراء وقطعوا رأسها وتركوا جسدها لتنهشه الثعالب، هذا في نظرهم أفضل من أن تلوكهم الألسنة وتسبىء لكرامتهم.

يفتخر رجال القرية بقوتهم وقدرتهم الجنسية وصلابتهم، ويعاملون زوجاتهم بنوع من الغلظة، ودائما ما ينادون على زوجاتهم بقولهم "يا مرة"، وهم دائما ما يحاولون إخضاعها والخط من شأنها. هذا الفخر دعا الذكور المتنافسين لسلوك مزالق أقل احتراما مثل السادية، السيطرة الغاشمة وحتى المعاشرة المثلية. هذه النوعية الأخيرة، سواء تمت مع ذكر آخر أو حيوان، كان ينظر إليها دائما كأنها هفوة أو ذلة بسيطة.

تعرض شحات لكرب بالغ عندما حضر إليه بعض شباب القرية، وكان معهم صديقه "العزب" واصطحبوه إلى حقل ذرة وعرضوا عليه حمارة للمنافسة عن "الأقوى جنسيا".

ما أن سمع فاروق والآخرين بهذه الحادثة حتى انفجروا ضاحكين، واعتبروا هذا دليلاً أكيداً على قوة وعنفوان شحات.

تفشى السودومية أزعج نساء القرية. فأُم حامد، وهى مستعدة تماماً لإساءة الظن دائماً بفاروق، لم تصبها الدهشة عندما علمت أنه يضاجع الأولاد أو الحيوانات ضمن رذائله العديدة الأخرى، قالت صراحة لعبد الباسط، إن هذا الرجل هو مثال سيئ بالنسبة لابنها.

عديد من المرات، كان فاروق يصطحب شحات إلى منزل أرملة عجوز لديها بنتان يمتهنان الدعارة. هناك حصل شحات على أنثاه الأولى. لكن، بالرغم من أنه لا يخشى الموت، إلا أنه لديه هلع بالغ من الأمراض، لذا عندما علم أن هناك عدداً كبيراً من الرجال يرتادون هذا المنزل، خشى على نفسه وامتنع عن الذهاب مرة أخرى.

معظم الأمور الجنسية، تتطرق إليها نسوة القرية بكل حرية فيما بينهن مشابهين فى ذلك الرجال. أم حامد وصديقاتها يتناقشن فى أكثر التفاصيل خصوصية فى علاقتهن الجنسية مع رجالهن، ودرجت الفتيات الصغيرات على معرفة كل شىء، لكن فى التجربة، لا شىء. هذا الجو والطابع الوثنى من الشهوانية، مرتبط بالعقوبات الإسلامية الشديدة وكذلك يختلف خلف جو غريب من التحمل المختلط بالتوتر. كل شىء سار مسيرته فى كتمان، فالدردشة الهامسة يتم الترحيب والسعى إليها، لكن الجهر مصيره هو الإدانة القاسية التى لا ترحم.

إذا كان عبد الباسط، أحمد وفاروق يوضحون لشحات كيف على المرء أن يتعايش ويتصرف فى المواقف المختلفة، إلا أن أمه نبيهته وحذرتة من جماعة الأشرار، هم جميعا أقرباء زوجها عبد الباسط - أخته الكبرى " فتنة" وابنا العم وهما " صبحى" و " الحاج على" - خلال سنوات طويلة، لم تزرهم أبدا أم حامد، وعندما تتحدث عنهم، يبدو فى لهجتها نبرة غضب واتهام.

أثناء نمو شحات، أصبح معتادا على سماع اتهامات والدته التى تتعدى المئات ضد أقرباء زوجها ومؤامراتهم التى يحبكونها باستمرار ضدها هى وزوجها. فى منتصف العمر، درجت أم حامد على شد أنفاس الشيشة فى الأمسيات، ثم تنهمك فى سرد خيالات رومانتيكية فيما يختص بأقرباء زوجها، هى جميعا تندرج ما بين اللون الأسود والرمادى. طبقا لرواياتها، العمة فتنة هى إنسانة بخيلة وأنانية، وحتى عندما كانت أم حامد ما زالت عروسا، كانت فتنة تعترض بكل قوتها إذا ضببطت أم حامد وهى تحمل طعاما لأخيها أحمد. لكن الأشرار بحق هما صبحى والحاج على، اللذان صورتهم ككصين تخصصا فى سرقة الأيتام والأرامل، وجريمتهم عبارة عن عدد لا نهائى من المآزق والغش والإهانة التى لحقت بها أو بزوجها. فى الواقع هى لم تنجح أبدا فى أن تكون اتهاماتها محددة المعالم، لذا لم يدر شحات أين هى الحقيقة.

كانت أم حامد تصدق قصصها بكل ثقة، هى إنسانة صادقة وأمينة، صادقة تماما فى شأن تخيلاتها وتصوراتها فيما يختص بما حدث لها ومعها، حتى فاروق اعتبرته قديسا بالمقارنة بأقرباء زوجها. من الواضح أيضا أن فاروق كان يعز أم حامد ودائما ما يأخذ حريته وهو يتصرف أمامها، بل أحيانا كان يشاركها فى كركرة الشيشة. بالرغم من شكواها وشكوكها المتنوعة، فإنها يمكن أن تغفر لفاروق هفواته وسقطاته، فهو مماثل لها، يهوى المرح والانبساط.

أما قريبا زوجها، فهذا أمر آخر، فمؤكد أن كلا منهما قد اغتنى فجأة بطريقة غامضة. قيل إن ثراءهما راجع إلى اتجارهما فى الآثار الفرعونية، لكن لم يثبت عليهما شىء ما، كلاهما كانا على صلة وثيقة برجال البوليس.

صبحى، هو الأصغر، ما زال فى الثلاثينيات من عمره، كان يتاجر أولا فى السمك، لكن بين يوم وليلة حصل على مال وفير مكنه من افتتاح لوكاندة موقعها لا يبعد كثيرا عن بيت عبد الباسط بجوار المدخل العظيم لمدينة هابو. أم حامد لم تتهم صبحى بما يسىء عندما كان يبيع السمك، لكن بمجرد ما افتتح فندقه الذى دعاه باسم "فندق هابو"، حتى جذب إليه كل أشقياء وصيع الشط الغربى للنيل. ما أن أصبح مالكا للفندق، حتى اكتسب جسمه بلحم وفير ولازمته طباع شرسة مشاكسة. كان دائما ما يقدم لضابط النقطة خمورا مجانية، ولم يعد لديه أى مانع أن يخبص

على جيرانه، وسلك بذلك طريق كله عداً وخصام. كان يفاخر بأنه لا يسير أبداً بدون الطبنجة محشورة في جيبه. في اللوكاندة، أحاط به جمع كبير من المنافقين والمتسكعين الذين كان يصدق عليهم بين الحين والآخر بالخمور والمأكّل. هؤلاء الناس كانوا يسارعون إلى إشعال سيجارته بنوع من الخنوع، ودائماً ما يسارعون على الموافقة على كل ما ينطق به.

أما الحاج على، فهو له نفس الصفات، إلا أنه كان كثير السفر إلى القاهرة، ودائماً شاغلاً فكره بمشروع شرير أو آخر. هو في الخمسينيات من عمره، عينه يشع فيها المكر، تقيس الأمور وتتحوط لها جيداً، له أنف صقر، وجه ملئ بالتجاعيد، طباعه فيها ليونة وغموض، نظراته دائماً متفحصة مترقبة، له معين لا ينضب من التحايل والتلفيق كأنما هو ثعلب ماهر، يعرف جيداً من أين تؤكل الكتف.

خلال ثلاثين عاماً من العراك والخناق مع أبناء عم عبد الباسط، وهم "فتنة"، صبحى والحاج على، حاولت أم حامد كثيراً أن تبسط حمامات السلام والوئام بينها وبينهم، من جانب كنوع من التدبير لأن لدى كل منهم قدر وفير من المال، أيضاً لم تنشأ أن ينشأ شحات وأخواه الاثنان بدون أن يكون لديهم عزوة وعلى صلة بأقاربهم. كان يشاركها في هذا الرأي على الأقل كل من صبحى والحاج على - لأن أم حامد لم تر فتنة منذ عدة سنوات- لذا كان يبدو أن هناك نوعاً من الهدنة في تلك

المعارك، لكنها كانت تشتعل مرة أخرى لأسباب جديدة. أما عبد الباسط، وهو الإنسان الطيب الودود، فقد ارتضى أن يحتفظ بالسلام فى منزله وذلك بأخذ جانب زوجته.

حقيقة أنه بنى منزلا راعى فيه أن يبتعد بقدر الإمكان عن أقربائه، لكنه شعر بالإحباط والأسى عندما افتتح صبحى لوكاندته تقريبا ملاصقة لمنزله ولا يفصلهما سوى حارة ملتوية منبثقة من طريق المعبد. صب عبد الباسط بنفسه قوالب الطين اللبن، حرص أن يكون البيت من طابقين، سقفه بجنوع وفروع النخيل، به برج للحمام له حيطان تميل إلى الخلف على الطراز الفرعونى، هذا أعطى لمنزله مظهرا كأنما هو قلعة حصينة.

للبيت بوابة خشبية ثقيلة تفتح مباشرة على مندرة أمامية متسعة يمرح فيه الهواء ويشع الضوء من خلال طائقتين صغيرتين أعلى الجدار، ومثل السقف زينت هاتان الطائقتان بالطين الرمادى والتبن، وزينت الجدران بمعلقات من ورق الجرائد وقد ثبتتها أم حامد بديلا عن التصاوير. على جانب توجد كنبه متسعة ينام عليها شحات ليلا، وعلى الكنبه طبقت بعض الأغطية. على جانب آخر تجد بعض القلل وكذلك الرحاية التى تطحن بها أم حامد الذرة. هذه الغرفة تعتبر شبه خالية، لذا على الضيوف أن يجلسوا على الكنبه أو على الأرض. خلفا تقع غرفة أخرى مخصصة للحريم، ثم نجد زريبة

الحيوانات، بعدها فسحة مكشوفة، يليها المطبخ حيث يوجد فرن واسع يشغل كل عرض الحائط وقد اسود شكله بسبب الدخان الصادر منه كذلك بسبب الذباب الذى يزن طوال النهار حوله، هو ذباب مزعج لحوح لا سيما فى الربيع والخريف. يوجد أيضا سلم خارجى يؤدى إلى غرفة السطوح، ثم فسحة متسعة تتجمع فيها العائلة لتناول وجبة المساء. بالغرفة العليا أهم ما تمتلكه العائلة من متاع، فيها ينام كل من عبد الباسط وأم حامد. على جانبين من الغرفة وضعت كنبتان تغطيهما مفارش بيضاء. بالغرفة أيضا دولاى به مرآة مشروخة، أيضا صوان أدراج خشبى عليه أكوام مما يخطر أو لا يخطر على البال من ملابس وبرام وأوانى أخرى. هذه الغرفة العلوية لها نافذتان كبيرتان، الأولى تفتح على الحارة وتطل على جدران المعبد، الأخرى تواجه ترعة رمسيس والأرض الزراعية التى تمتلكها العائلة. دائما ما تشاهد أحدهم وهو يمر سائرا على الطريق المجاور للترعة، أو ترى نسوة اتشحن بالملابس السوداء أو رجالا بملابسهم البيضاء أو الملونة إما ممتطين الحمير أو مترجلين. يمر فى هذا الطريق تلاميذ المدارس، قطعان الماشية، طابور من الجمال، جواميس متجهة إلى الماء أو رجال أتون من الحقول على أكتافهم الفئوس والمناجل. غربا ارتفعت بقايا المعبد الجرانيتى الذى يعلو فوق قمم المنازل وفروع النخيل العالية التى يلاعبها الهواء. من هنا تبدو القرية آمنة ومتعة للنظر.

الغريب قد يجد أن هذه الغرفة سيئة الشكل مشوهة، لكن بالنسبة لأم حامد هي مصدر الذكريات ومخزن لكل ما تعتر به. لسنوات عدة لم يعرف شحات كيف انشרכת امرأة الدولاب - وهو جزء من جهاز أم حامد - إلى أن أخبرته أمه بالقصة. إنها تتذكر الحادثة كأنها حدثت بالأمس فقط، فيوم أن فطمت شحات، أحضر عبد الباسط إلى البيت فتاة سمينية في الرابعة عشر من عمرها قال إن اسمها حسنية، وإنه قد عقد عليها وبذلك هي زوجته الثانية. في غضبة عاتية صرخت أم حامد، " لا، لا، اختار بيني وبينها ! أنا مش قاعدة معاك بعد كده"، ثم طوحت في اتجاهه ببراد الشاي فأصاب المرأة وشرخها.

من ضمن خيبات الأمل التي تعرضت لها أم حامد في حياتها، كانت هذا الطامة الكبرى، قد كرهت حتى أن تتذكر تلك الحادثة. أسرع أم حامد على حبيبته الشبيخة داية إلى طمأنتها قائلة، "ما تخافيش، أنا حاعمل تحويطة تخلى عبد الباسط ليكى لوحدك". حضرت الشبيخة تلك التعويذة، لكن أم حامد لم تحتاجها، فقد ضبط عبد الباسط العروس الجديدة وهي تسرق نقودا فطلقها على الفور بعد أربعة عشر يوما من الزواج. بعد عدة سنوات، كانت أم حامد عائدة مع زوجها للمنزل عندما مرا بجوار حسنية، التي تزوجت من آخر وعاشت في مكان بعيد. سأل عبد الباسط، "مين الست دي؟". لقد فشل في التعرف عليها، كان هذا مصدر سرور ورضا بالغ من أم حامد، فهذا الموضوع بالذات جرح

كرامتها وأذلها أكبر ذل فى حياتها. لم يكن عبد الباسط من النوع الخائن ولم يفكر أبدا بعد ذلك فى أن يتزوج من أخرى، بالرغم من أنه محلل له أن يتزوج حتى أربعة من النساء.

تسير أم حامد دائما والفخار يملأ جوانحها محاولة قدر إمكانها أن تدارى الجانب التشاؤمى من شخصيتها، لكن شحات يعلم يقينا أنها تفضل النوم على الكنب التى تقع بجوار الحائط البحرى، لأن فوقها تحصل على أعز أحلامها. إنها تؤمن إيمانا أكيدا بهذه الأحلام. مرة عندما كان شحات مريضا بحمى شديدة وهو طفل، حلمت أنها راكبة فلوكة فى النيل، ثم رأت شحات واقفا على الجانب الغربى للنيل، وسمعت صوتا يقول "مع السلامة" ثم شاهدته وهو يطير فى الجو حتى استقر بين ذراعيها. عندما استيقظت، وجدت أنه قد شفى. مرة أخرى حلمت أيضا أنها على مركب راس على الجانب الشرقى للنيل بجوار مقام شيخ اسمه "نوبى". بعدها علمت أن هناك فعلا مقاما لشيخ بهذا الاسم لا يبعد كثيرا عن معبد الكرنك. لذا صلت إلى الله، ووعدت بأنها إذا ولدت غلاما فإنها سوف تدعوه "نوبى"، وعندما ولدت نوبى أخذته إلى المقام وضحت هناك بخروف. من يومها تعتقد أم حامد اعتقادا جازما فى أحلامها، لا سيما إذا ظهر فى الحلم اللون الأخضر.

ما أن بلغ شحات سن السادسة عشرة، حتى أصبح مصدرا للمتاعب، كان كثير من الغرباء يقابلون أم حامد ويشكون منه.

"شحات اتعارك مع ولدى امبارح، ولدك ده مجنون" أو "شحات عض إيدى، لازم أروح الوحدة الصحية، لكن مين يدفعلى المصاريف؟".

ضبطته مرة وهو يسرق البيض من غرفة الخزين، اكتشفت أيضا أن هناك غلة مسروقة. لم تعلم أن كل فتیان القرية يفعلون هكذا وأنهم يبادلون المسروقات بالحشيش الذى يدخلونه سرا فى الحقول.

احترار عبد الباسط فيما يصنعه مع هذا الولد، فهو لم يعاقب ابنه من قبل. أحيانا كان شحات يأخذ اللحم المجنب ليأكله أبوه ويعطيه لأصدقائه، عندما تكتشف أم حامد ذلك تصرخ، "يا نهار اسود، عبد الباسط حيطلقنى وانت حتكون السبب يا فقري!". لكن أباه عندما يكتشف ذلك يضحك قائلا، "إذا شحات أكل اللحم دى، بطنى أنا تتملى"، بعدها بزمان قالت أم حامد لشحات، "لما كنت انت ولد صغير، عمرى ما شفت ابوك زعلان منى أو مد إيده عليك، يظهر إنه كان غلطان فى كده". كان شحات يحس بولاء وحب شديد تجاه والده، عندما يبيع البصل والطماطم، لا يعطى النقود كلها لأم حامد، بل يستبقى منها جزءا يعطيه لأبيه بالرغم من معارضة أمه التى كانت تصرخ، "إوعى تديله أى فلوس، أبوك إيده مخرومة".

ثم مرة ضبطه عبد الباسط وهو يحاول بكل جهده أن يحمل شيكارة محملة بالغلة، وجد حينذاك أنه مضطر اضطرارا أن يعاقبه، لذا ربطه فى زريبة البهائم وتركه هناك مدة يوم كامل قائلا، "إذا كنت عايز

تعمل نفسك حمار، يبقى لازم تشاركه فى نفس المربط. لكن عندما غادر عبد الباسط المنزل، أحضرت له أم حامد أكلا وشايا.

كان الشك يساورهم بأن شحات يتعاطى الخمر، لكن كان الدليل يعوزهم، إلى أن ذهب شحات وصديقه "العزب" إلى الأقصر واشتريا زجاجة "براندى فرنساوى"، واحتسياهما سويا وسارا فى شوارع المدينة وهما يتطوحان ويسبان كل من يقابلها ويتحديان الغرباء فى النزال والقتال. سببا إزعاجا لا مثيل له، مما اضطر البوليس أن يطاردهما، تم بالفعل القبض على "العزب" وصفع عدة صفعات وألقى به فى إسطنبول قسم البوليس إلى أن يفيق صباحا. أما شحات فإنه استطاع أن يهرب مستغلا الظلال التى تفرشها الأشجار الواقعة بجوار معبد الأقصر، لكنه للأسف وقع فى بلاعة مفتوحة، إلا أنه استطاع بعد جهد جهيد أن يخرج منها واتجه نحو النيل وغطس فيه ليغسل نفسه وهدومه، لكنه عندما خبط على منزل خاله أحمد الذى يقع على الجانب الغربى من النيل، وهو ما زال مسطولا ومبلولا ورائحته ما زالت كلها مجارى، على وجهه ارتسمت ابتسامة يلها، سبه أحمد وصفعه عدة أقلام ثم أعاده إلى منزله مرتديا جلابية نظيفة من جلابيب الخال.

عندما سمع عبد الباسط بهذا الموضوع، أحضر عصا غليظة، لكن شحات هرب وركب عربة يجرها حصان ونام فوقها. عندما استيقظ، وجد أنه فى بلدة دندرة، وهى بلدة تقع على النيل وتبعد عن قريته بمسافة

ستين كيلومتر تقريبا. وهو جانع بلا نقود فى جيبه، شعر بالذل والمهانة وتملكه فى نفس الوقت نوع من العناد العجيب، لذا سار على قدميه إلى أن وصل لقريته واستغرق فى ذلك يومين كاملين يقات بالبلح ويشرب من ماء التربة. عاد بأقدام متقرحة ووجه متعب مرهق يدعو للثناء. رأى عبد الباسط أنه قد تعرض لعقاب كاف ولم يجد من المناسب أن يزيد على ذلك.

كانت أم حامد فى خشية بالغة من أن يكون شيطنة شحات ليست سوى عقاب من الله لها، لأنها طلبت شيئا من الإله القديم وشربت من بركته الآسنة. حاولت أن تقنع نفسها أن المعبد ليس سوى أحجار لا تنطق ولا تفكر، وأن الماضى قد مضى وولى، لكن فى أعماق قلبها المتطير خشيت أن يقتحم عليها هذا الشعور حاضرها، وأن تأثيره لن ينتهى أبدا.

سنية

حضر شحات يوما معلنا أنه سوف يتزوج سنية، وهى الفتاة الجميلة التى تعيش فى منزل بجوار التربة. شعرت أم حامد ومعها زوجها بحيرة بالغة، فشحات ما زال صغيرا لم يتعد السادسة عشر من العمر. مع ذلك فمعظم الشبان فى القرية يتزوجون فى العشرينيات من عمرهم. كان اعتراضهما الأساسى هو أن سنية تنتمى إلى قبيلة "الجمسية" المكروهة، هم جماعة تخصصت منذ زمن بعيد فى إمداد المنازل بالماء فى قرب (سقاء)، ويؤمن الجميع هنا أن هؤلاء الناس عرب لعنهم النبى محمد، ومنذ نزوحهم إلى مصر العليا، تعرض نسلهم بعد ذلك إلى احتقار وتقليل شأن.

كان من رأى أم حامد أن الزواج من جمسية أمر لا يمكن حتى التفكير فيه، لذا طوحت بيديها فى الهواء صارخة، "أبدأ، أبدأ يا ولدى، سنية دى من بيت خراب، دول غلطوا فى حق سيدنا محمد، دول يا ولدى حرامية وخاينين، حنرفع راسنا ازاى بعد كده قدام الناس؟".

أم حامد لا تحمل فى قلبها شيئاً فيما يختص بسنية نفسها، بل كانت تحبها وتعزها. فقد نما كل من شحات وسنية وهما متقاربان، وكثيرا ما لعبا سويا وهما صغار. الآن هى فى الرابعة عشرة من العمر، لقد نمت وأصبحت فتاة لطيفة دقيقة، لكن بملامح فتاة وبشرة سمراء لوحتها شمس عفية. تعبيرات وجهها تدل على أنها ما زالت طفلة كلها تساؤل واثق. كثيرا ما كانت تبتسم ابتسامة حزينة خجولة. هى فعلا صغيرة - لم تبرز مفاتها جيدا - لكن تعتبر فى سن زواج. هى إنسانة مريحة، لو كانت من عائلة أخرى، لوافقت أم حامد فى التو واللحظة وحصلت على موافقتها وبركاتها. تعلم الأم أن شحات قد بلغ مبكرا وسوف تستقر أحواله إذا تزوج.

بدلا من ذلك، حفزت عبد الباسط ليقف فى طريق هذا الزواج، "حتكون مصيبة كبيرة لعيلتنا لو أخذنا واحدة جمسية، شحات لسه صغير ما يفهمش فى الحاجات دى".

أحد خفراء القرية، المدعو "سليم"، تزوج جمسية لأن جدهم الأكبر واحد. والآن، لا أحد يهتم به أو بعائلته أو حتى يزورهم. إنه يزرع خمسة فدادين جنوب المعبد، ومنزله يقع على حافة الصحراء، يعيش هو وأبناؤه الستة بمعزل عن باقى جيرانه. سليم هذا بلغ الخمسين من العمر وأصبح وحيدا معزولا. لم ترض أم حامد أن يكون هذا هو مصير ابنها.

ناصر عبد الباسط رأى زوجته وتعهده أن يكسر هذا الافتتان،
لذا أخبر أقرباءه وكذلك أصدقاء شحات ليحاولوا إقناعه بأن الزواج
من جمسية سوف يجر عليه ندم العمر.

فى ذلك الحين، كان شحات يزرع الفدان الذى ورثه عبد الباسط
من أبيه، وهو ينحصر ما بين المنازل والترعة الجديدة. كان شحات
قوى البنية، عندما يحرق يستند بقوة على المحراث بيديه الضخمتين
وهو يزعم "ها".."هوش" وهو يقود البقرتين، ولأنه لا يستخدم لجاما، لذا
يبدو كأنه يفتح الأرض بقوة شكيمته وإرادته. عندما يحصد البرسيم
ويحنى وسطه، لا يتأوه أو يتوجع مثل الضعفاء، لكنه يضرب بمنجله بقوة
ولا يتوقف للحظة، بينما عضلات أكتافه ترتفع وتهبط كأنما هى
ونش متحرك.

يروى شحات هذه الأرض باستخدام الشادوف، وهو عمل شاق
للغاية، حيث يضطر أن ينحنى وينبسط دائما ليرفع ويصب آلاف
من جرادل المياه من الترعة كل يوم. هو عمل يحتاج رتما منتظما وأذرا
وسيقانا قدت من حديد. أكثر الأمور غرابة فى هذا العمل، هو قيامه
بخلع كل ملابسه ما عدا ما يستر عورته، ويغنى بلا توقف بصوته
الأجش الغليظ. إنها صورة نادرة تستحق الحفظ والتسجيل.

أحيانا عندما تكون المياه ناقصة فى الترعة، فإنه يروى الأرض
باستخدام الساقية، وهى عبارة عن عجلة خشبية أفقية، كان قد بناها

"خليفة" وهو جد عبد الباسط منذ زمن بعيد. هذه الساقية تدور على عكس دوران الساعة باستخدام بقرتين. مفصلات هذه العجلة خشبية ساذجة تشتبك مع عجلة دائرية أخرى رأسية مثبت فيها حزام عليه عدد من البلاليص التى تبلغ المياه فى البئر وتمتلئ ثم ترتفع لتصب فى مجرى لتسقى الزرع. عين المياه هذه وكذا الساقية قديمتان قدم التاريخ ذاته، كذلك تلك الأغنيات الحزينة التى يتغنى بها شحات وهو يشرف على عمل الساقية.

منزل والدى سنية يطل على أرض عبد الباسط المزروعة بالبرسيم والبصل، بالإضافة إلى جنيئة صغيرة زرع فيها والد شحات بعض أشجار الأعناب بالإضافة إلى عشر نخلات. كثيرا عندما ينهمك شحات فى العمل يلاحظ أن سنية تراقبه وهى تطل من الشباك، كانت جميلة الحيا بوجه صغير شاحب وأنف محنق وعينين براققتين. ما أن يركز عينيه مستجليا عينيهما الخجولتين وشعرها الطويل المرسل على رقبتها، حينئذ يرفع عقيرته بالغناء والشدو وهو مسترسل فى رفع جردل الشادوف. كان غناؤه مليئا بعاطفة ملتهبة وقوة وشباب، لكن الأغنية حزينة ووجهه تتغير تقاطيعه مع تتابع مجرياتها. فى الليل، يختبئ خلف شجرة السنط تحت شباك سنية وينادى عليها بصوت هامس لتخرج وتقبله. كانت أمها تظن أن هناك كلبا يعوى، لذا تخرج رأسها من الباب وتنهر، "امشى، امشى يا كلب"، حينئذ كلاهما يضحك ضحكات مكتومة.

أبو سنية يعمل بعيدا عن بلدته فى السد العالى بأسوان، ونادرا ما يحضر، لذا كان لسنية حرية معقولة فى الدخول والخروج.

أحيانا، إذا لم يكن هناك من يراقب، يخطف هو قبلة سريعة، ثم تخبره سنية بصوت حنون هادئ كيف أنها تشتاق إليه وهو بعيد عنها. مرة أحضرت له زجاجة كونياك وخبائثها فى مقطف بصل، فزحفا إلى الجنية تحت ظل حائط عال وجلسا ملتصقين ببعضهما. سكر شحات، وبدلا من أن يصبح سخيفا، مشاغبا أو يشعر بالغثيان، كما كان يحدث معه عادة، أحس بنوع عميق من الراحة والسرور وتحدث بالساعات مخبرا سنية عما يفكر فيه وما ينتويه، وأخذت سنية تلاحظه بعيون نشوانة وتكاد أن تشرب كل كلمة ينطق بها.

بعد ذلك، أصبحت هذه الجنية هى عالمها الخاص، كان الهواء منعشا دافئا، ورائحة الحنة تعبق المكان والتسيم يحرك فروع النخيل بكل خفة وحنية. هذه الأوقات النادرة، كانت فى نظر شحات قمة الانتعاش والفرح، فيها يحس كأن السماء الزرقاء الصافية، لقطات الضياء التى تتخلل فروع النخيل، الحشائش التى دبلتها الشمس، جميعها قد خلقت من أجلهما. إذا أحضرت له سنية زجاجة براندى أو كونياك، يشرب قليلا ثم ينسى نفسه وينطلق فى الحديث كأنما روحه قد تحررت أو أن هناك صحراء واسعة أمامه تفتحت مسالكها وتمتد إلى أقصى حد البصر. كلام سنية قليل، وكل ما تفعله هو أن تحرق فى وجهه بوجد

واففتان أو أن تنظر إلى الأرض بطريقة رقيقة وجميلة، هنا يحس شحات أنه قد استولى على قلبها وفكرها وعواطفها وأصبحت أسيرة سحره. بمرور الوقت يقل كلامه، فالأحباء يفهمون لغات بعضهم عندما يصمتون، لم يعد شحات فى حاجة لمزيد من الحديث.

هذه المقابلات لم تمر هكذا بدون أن يلاحظها أحد. عبد الباسط كان يشاهد ما يحدث من نافذة الغرفة العلوية. فى يوم شاهد شحات وهو يقطف بصلا ليعطيه لسنية، فزق فيه عندما عاد للمنزل، "يا ابن الكلب ! ازاي تدى حاجاتنا لواحدة جمسية؟"، لكن بسرعة تدخلت أم حامد بينهما صارخة، "لا لا يا راجلى، ما انت عارف إن شحات لسه صغير، وانت كمان المحقوق علشان سبته الحبل على الغارب من زمان".

كان كبرياء أم حامد فى خطر محقق، فزواج شحات من جمسية يعنى العار والشنار، ولأنها خشيت أن يفقد انتماءه لهم، لذا استخدمت المنطق للرجوع عن قراره، "عشان تتجوز عن حب يا شحات، ده معناه إنك حتخلف أولاد، والجواز معناه إنك حتفتح بيت، عشان كده لازم تكون راجل بجد يراعى بيته وشغله وأولاده الكثار ويعرف يربيههم، معناه إنك تكبر وتعيش بنى آدم صحيح ليه هييته واحترامه". شرحت له أم حامد نوعية الزواج طبقا لتصوراتها، فالفتاة الصغيرة تتمنى: زواجا يمنحها حبا وراحة ومكانا سكنيا مناسبا، هى تعرف من خبرات لم تكتسبها بالساهل أن حرية وكرامة الفلاح تتركز فى مراعاة التقاليد التى استقرت

معاييرها على مر الأزمان. الشكل النموذجي في نظرها هو أن يمتلك الفلاح أرضا وجاموسة ، ثم يتزوج ويخلف عددا كبيرا من الأولاد - لا سيما الصبيان - ويفرح ويبتهج بأيامه. عرفت أم حامد كثيرا من الشباب يشبهون شحات، كلهم صبوة وشهوانية ورومانتيكية، لكن كل نيران الشهوة سوف تخدم وتنطفئ جذوتها مع الزمن، ما أن يصل الرجل إلى سن الثلاثين من عمره أو بعدها بقليل، يكون همه حينذاك منحصرا في أولاده، بيته، حاجات حقله والمركز الاجتماعي لأسرته في محيط القرية التي تربط الرجل بزوجته برباط وثيق. في نظرها، يظل الرجال محتفظين بمكانتهم وسط المجتمع، ليس بسبب فضائلهم، لكن بمراعاة قواعد الشريعة الإسلامية والالتزام بالعادات الاجتماعية للقرية.

بالنسبة لعائلة أم حامد، يعتبر التملك والمركز الاجتماعي هو كل ما يهم، ومهمة العائلة هي التمسك بتلك التقاليد والقيم، أن ترعى أرضها، تخلف عددا كبيرا من البنين ليساعدوا في العمل ثم يخلفونهم بعد ذلك وهكذا دواليك. من يستخف بتلك القواعد يعاقب أشد العقاب عندما ينبذه المجتمع ولا يتعامل معه إلا في أضيق الحدود. كما أن أم حامد يملأها الفخر والعزة بالنفس، لكنها أيضا كانت حصيفة وواقعية، فبينما بقليل من الخيال تصور لنفسها صورا رائعة لحياتها إذا تغيرت ظروفها، إلا أنه عليها أيضا أن تهبط إلى أرض الواقع وتتعامل معه. لذلك تضرعت لابنها قائلة، "الجوازة اللى بتفكر فيها دى لا فيها عقل ولا تفكير.

إنت ناطح فى موضوع حيخليك ندمان طول عمرك". لم ترفع من نبرة صوتها، لكن كانت تعلم يقينا أن مستقبلها كله فى مهب الريح.

ثار أحمد خال شحات عندما استمع تلك الأنباء. أحمد هذا شاب أنيق يهتم بنوعية ملابسه، منتصب القامة ومنظره مهيب، متين البنیان، طباعه باردة رزينة وتعبيرات جسمه كلها تشبه تصاویر هؤلاء المحاربين الذين نشاهدهم فى الأنصاب الفرعونية. هو متزوج ويعيش بقرب نهر النيل، له دخل محترم من عمله كرئيس للخبراء الليبيين لأکبر فنادق الأقصر. من النظرة الأولى، يتأكد الإنسان أنه يرأس آخرين، فهو له نظرة قاسية ثاقبة، يمكن بها أن يصفع مرؤوسه دون أن يهتز له طرف. يبدو هذا كله من طريقة جلوسه منتصبا، ومن الطريقة التى يتحدث بها وهو يلوك الكلام من طرف فمه، مظهرا بياض أسنانه الناصع، ومن تعبيرات وجهه الجادة التى قد تلاحظها على وجوه من اعتادوا على التفكير العميق وهم فى وحدتهم. أم حامد مغرمة به وتعامله كأنها هى أمه وليست أخته. هى تعلم تماما أن أحمد هذا هو ملاذها الأخير فى كل ملمااتها.

ما أن سمع أحمد أن شحات ينوى الزواج بجمسية، حتى استشاط غضبا وأتى إلى البيت وقبض على كتفى ابن أخته يهزهما صارخا، "إذا اتجوزت البت دى يا شحات، أنا حتبرى منك، وحياة النبى ده هو اللى حيحصل، دا أنا أقتلك ولا تتجوز جمسية، دا إحنا كلنا حنتجرس ويتخرب بيتنا".

شحات وهو الآن فى السابعة عشر من عمره، دائما ما كان ينظر لخاله كبطل صنيدي. صحيح أنه يحب أباه بجماع قلبه، لكن عبد الباسط بانهماكه فى الشرب والقمار، كان فى نظر ابنه إنسانا طريا بحبوحا ومتباسطا، لكنه فى النهاية إنسان ضعيف لا يقدر المسئولية. أما أحمد فهو مختلف تماما. عبد الباسط لا يهتم كثيرا بالمال أو السلطة أو المظهر الحسن، هو اعتاد أن يذكر دائما بأن الفلاح ليس مجبرا أن يذهب للجامع فى كل أن وهو يغص بالمنافقين والمدعين من كل صنف. إنه لا يصلى بانتظام، لا يصوم رمضان إلا إذا أجبرته أم حامد. مبدأه هو أن على الإنسان أن يبهج نفسه باللحظة الحاضرة ولا سيما أن جميعنا مصيرنا هو القبر. عبد الباسط كله إنسانية، أحمد هو مثال البطولة التى تجتاح خيال شحات.

معارضة أحمد القوية كونت لدى شحات أولى بنور الشك فى ذهنه، فمنذ عدة أسابيع عندما تقدم ليخطب سنية، لاحظ أنها وافقت على الفور وقد غمرتها سعادة طاغية، فهى كانت على خوف مقيم بأن يعمد أبوها لتزويجها من شخص آخر. كان شحات يعلم أن زواجه من جمسية سوف يؤدى إلى نبذه، لكنه لم يهتم كثيرا بذلك، فأبناءء سالم الذى تزوج بجمسية منذ زمن بعيد، وهما سيد وجمال يعتبران من أعز أصدقائه. صحيح أن سالم منبوذ فى حقله البعيد، ولم يتقدم أحد حتى الآن لطلب يد ابنته التى تعدت سن العشرين من عمرها، لذا تعتبر الآن فى حكم العانس.

للمرة الأولى بدأ شحات ينظر إلى مشروع الزواج هذا بنظرة عملية، قال لسنية، "إذا ما وافقش ابويا وامى، يبقى لازم نهرب على مصر، وأى فلوس حناخذها من هنا حتتفرتك بسرعة. لكن بس حنعيش ازاي ؟ وازاي أشتغل فى بلد غريبة ؟ ونعمل إيه لو ما لقتش شغل أو بيت نسكن فيه؟ "

أنصتت إليه سنية، ثم شحب وجهها واتسعت حدقتا عينيها وارتعشت شفاتها. فقد استقر خوف قاتل فى قلبها، مع ذلك قالت بصوت أجوف خافت، "أنا عندى شوية دهبات، وفى مصر ممكن نعمل أى حاجة علشان نعيش. انت شديد وممكن تشتغل بقوة راجلين، وأنا كمان ممكن أشتغل"، ثم توقفت عن الكلام تبحث فى أرجاء مخها عن حلول، فهى تعلم يقينا أن أهله سوف يعارضون بكل قوتهم هذا الزواج. ثم أضافت، "يا سلام يا شحات، دا انت لو كنت فعلا أفقر شحات ، أنا حاكون مبسوفة وسعيدة. مش ضرورى ناكل كثير، عشان انت بتحبنى وأنا باحبك، وما فيش حاجة تهم أكثر من كده".

أخيرا أدرك شحات أنه إذا تزوج سنية، فعليه أن يهجر بيته، لذا تملكه حزن عميق. لأيام عدة أخذ يسير غارقا فى أفكاره. عندما ينهى عمله فى الحقل يجلس فى الجنيئة وقد أحنى رأسه على صدره مبحلقا فى الأرض بينما تخرق آخر أشعة الشمس فروع النخيل وتلقى بضوئها على جنوع الأشجار. كانت الأفكار تتزاحم فى مخيلته، الله - سبحانه - خلق البشر ليعيشوا ويفرحوا ويقضوا جل وقتهم فيما ينفع ويفيد.

إنه لا يفهم أبدا لماذا تشقى سنية بسبب أمور حدثت فى الماضى. مع ذلك، إذا حاول أن يستعرض حياته فى مخيلته، حينئذ يكون والداه، بيته، حقله، حتى أحمد وفاروق هم الحقيقة اليقينية، بينما حبه لسنية وحلمه بأن يتزوجها هو شىء خارج الصورة ومنفصل عنها لا ينسجم معها. فكر أيضا، هو غير جدير بهذه السعادة المتخيلة فى الزواج، حياته ومصيره تحدد ورسم منذ أن ولدته أمه، عليه إذن أن يستأنف حياته المعتادة التى وهبها له الله، ومن المستحيل أن يأمل فى حياة جديدة يقضيها مع سنية بمفردهما.

مستسلما لمصيره، قرر شحات أن يهرب إلى القاهرة، لذا سرق بعض الحبوب من منزله وباعها للبقال "القط" ليصرف على نفسه فى القرية. ربما يجد عملا فى القاهرة ويكتشف كيف يعيشون هناك، بعدها من الممكن أن يرسل لسنية لتحضر إليه. القط هو مجرم سابق حديث التخرج من السجن ويدير دكانا موقعه فى طريق العربات المؤدى إلى قرية الكوم. هو دائما ما يدفع نقودا للشباب نظير الحبوب المسروقة ليتيسر لهم مصروفات للجيب، هؤلاء الشبان يختلسون كميات صغيرة من الحبوب سواء من بيوتهم أو من الحقول أو من مخازن أغنياء القرية أمثال الحاج "عبد المطلب"، وهو بخيل القرية.

فى الليلة التى حددها شحات ليهرب، اقترب من شباك سنية وظل جالسا هناك فترة مديدة. عندما ظهرت أخيرا أخبرها عما ينتوى عمله.

كل القرية كانت تغط في نوم عميق، وليس هناك أى ضوء ينير. بدأ شحات فى مخاطبتها وقد أحاط به ظلام دامس، وبدأ كأنه غاطس فى جب عميق يصعب منه أن يصل إليها. كان وجه سنية شاحبا أكثر من المعتاد، وأخذت تحقق فى اتجاهه بكل حنية بعينون اكتست بحب عميق وحزن أعماق. تيقن له أخيرا أنها قد استسلمت لمصيرها، وأنها تتقبل كل ما تسوقه إليها الأقدار.

نشب فى قلب شحات حزن مختلط براحة عميقة، فجأة أحس برغبة شديدة فى أن ينفجر بالبكاء. اكتست عيناه بضباب وشعر بغصة فى حلقه، لكن الدموع لم تطاوعه. يريد أن يصرخ ويمسك بيد سنية بكل قوته ويهرب بها بعيدا متحديا الجميع. خاطبته أخيرا قائلة، "مع السلامة يا شحات"، رد قائلا، "نفسى والله أعيط وابكى للصبح..."، لكن فرصة ذرف الدموع كانت قد ولت. اختفت هى من الشباك، وقف هو قليلا والحيرة تتملكه، ثم استدار ومشى يتلوى فى طريقه متجها نحو نهر النيل.

لكن كان الوقت هو شهر سبتمبر ١٩٦٧، مصر كانت فى حالة حرب، القاهرة لم تكن مكانا مناسباً لفلاح جاهل لم يبلغ السابعة عشرة من عمره، حتى الجيش لن يقبله. قضى هناك أسابيع قليلة، لكنها كانت فى نظره عبارة عن دهر طويل. عندما عاد، علم أن سنية قد خطبت لقريب لها، هو جندي يخدم فى صحراء سيناء. لم يفتاحها فى أى حديث، وعندما كان يقابلها فى الطريق أو يلاحظها وهى تنظر من

شباكها أثناء عمله فى أرضهم، دائما ما يلمح نظرة الحب المختلط بالأسى يملأ عينيها. لذا لم يحضر فرحها.

من حقله، شاهد الفتيات وهن يزرعن الطريق، يغنين، يزغردن ويصفقن بأيديهن، ثم شاهد سنية نفسها وقد اكتست بوشاح أبيض فى أحمر فوق جمل، بينما انهمك الرجال فى إطلاق الرصاص فى الهواء، والنساء يزغردن بأصوات طويلة شاهقة.

استمر الرقص والغناء لوقت متأخر فى الليل، وعندما أحضر أخوه الصغير معه بعضا من الحلوى الملونة حصل عليها من الفرح، أمسك بها شحات ورماها غاضبا خارج الشباك.

لعدة أيام كان يكسو وجهه غضبا مكبوتا، كل فرد من العائلة تحاشاه. أما عبد الباسط فكان قد رحل إلى القاهرة بصحبة الحاج على. لقد استطاع ابن العم هذا أن يحصل لعبد الباسط على عمل ضمن بعثة استكشافية أجنبية تعمل فى منطقة آثار منف القريبة من القاهرة، واعتبر هذا الصنيع كنوع من الترضية لقريبه، قائلا إنه نائب عنه. فكر هذا الرجل الماكر أن تواجد قريب له مطواع، سيتيح له فرصة أن يختلس بعض الغنائم. وسوف يستمر هذا العمل لمدة ثلاثة شهور.

فى اليوم الذى غادر فيه عبد الباسط، نشبت معركة حامية بين شحات وأم حامد، لدرجة أنها غادرت البيت. ما أن تركت المنزل

حتى كسر هو صندوقها المتين واختلس كردانا ذهبها كان قد أهدها لها عبد الباسط يوم زواجهما. وبسرعة توجه إلى الأقصر وباع الكردان إلى أحد الصاغة بمبلغ زهيد للغاية لا يمثل سوى جزء ضئيل من قيمته الحقيقية، ثم صرف النقود في شرب الخمر وتدخين الحشيش وزيارة العاهرات لينسى بذلك سنية. عندما اكتشفت أم حامد ضياع الكردان، وسمعت الأقاويل عما يفعله شحات في الأقصر، التجأت لأخيها أحمد وسردت عليه ما حدث. بدوره قام أحمد بإبلاغ العمدة بالسرقة الذي بدوره بعث بأربعة من الخفراء إلى الأقصر ليقبضوا على شحات ويعيدوه.

أمكن للخفراء أن يستعيدوا شحات- مقيدا، غير حليق وقذرا مشوشا- وركبوا به العبارة ثم ألقوه فوق عربة يجرها حمار، بعدها إلى سجن قرية الكوم. إلا أن سالم وهو أحد الخفراء، ويعلم تماما ما يعانيه شحات، لم يشترك في هذا الموضوع. إلا أن باقي الخفراء، بعدما قيدوا شحات جيدا وهو يقاومهم بعنف، استطاع أن يوقع أحدهم أرضا، انهالوا عليه ضربا ساديا كله توحش، بل أيضا ربطوا رجله في عارضة خشبية ثم تناوبوا ضرب قدميه بعصيان طرية، وهى إحدى وسائل التعذيب المعروفة فى منطقة البحر الأبيض عموما. أخذ شحات يصرخ ويشتمهم بأقذر الشتائم وهدد بأنه سوف يقتلهم واحدا بعد الآخر. الأسوأ من ذلك، أن أحد الخفراء، وهو قليل الحجم، خبيث، خدوده ضامرة وعيونه براقه، أمسك بخصلة من شعر شحات وأشعل فيها النار،

هنا صرخ شحات ملتصقا بالرحمة، لذا أسرع أحدهم بإحضار جرلا من المياه وألقاه فوق رأسه، ثم تركوه وحيدا بلا طعام أو شراب لمدة ثلاثة أيام متوالية. فى صباح اليوم الرابع، فتح سليم الزنزانة ومد يده برغيف من الخبز لشحات الذى تكوم فى ركن كأنما هو حيوان مفترس. ما أن رأى شحات هذا التصرف، حتى زام ولعن وأمسك بالرغيف وألقاه بكل عنف فى وجه الغفير. عندما سمع العمدة بما جرى، أمر بأن يجلد مرة أخرى، لذا تقدم أكثر الخفراء قسوة ممسكا بعصا رفيعة ويكل عزم وثبات ومتعة حقيقية أخذ يضرب قدمى شحات حتى انفجر الدم منهما. عندما منعوا الخفير من استكمال متعته، كان وجه شحات شاحبا وأخذ يقىء من الألم والدموع تتساقط مدرارا من عينيه. كانت قدماه وركبته وارتين حتى أنه تعذر عليه أن يقف على رجليه، لذا شعر العمدة أنه قد زودها حبتين، وأمر أن يفرج عنه فورا. لذا تبرع سليم أن ينقل شحات إلى منزله مستخدما حماره الخاص.

ما أن رآته أم حامد، حتى انفجرت باكية من الرعب، ثم أدخل شحات إلى منزله وهو يترنح ووجهه شاحب كالأموات والعرق ينبثق من كل جسمه وصعب عليه أن يبقى عينيه مفتوحتين على مقتلين حمراوين كالدم. قامت أم حامد بمهمة استحمامه وأحضرت له ملابس نظيفة وساعدته ليستلقى على الكنبه ورفضت أن تترك جانبه. لم يتحدثا أبدا عن سنية أو الكردان المفقود. ثم حضر أحمد وبدأ فى إلقاء محاضرة فى

أذن شحات، "أتعلمت الدرس والا لسه ؟ ما فيش حاجة اسمها سرقة تانى.."، لكنه لم يستكمل الدرس لأن شحات شملته رجفة قاسية فى مرقده، ثم أمسك بخشبة كانت فى متناول يده محاولا ضرب خاله، لذا صرخت أم حامد وألقت بنفسها بينهما وتلقت ضربة قوية على جنبها. فى ألم شديد أخذت تصرخ بكل قوتها، لذا حملوها إلى الغرفة العلوية لترقد هناك. عندما عاد أحمد لشحات، نادى على بعض الجيران وقيدوا يديه ورجليه وأخذوا يضربون قدميه الممزقتين. ما أن استمعت أم حامد لصرخات شحات المتوجعة، حتى هبطت الدرج مسرعة وهى تترنح متمائلة من جانب إلى آخر تكاد أن تقع على الأرض، وأخذت تصرخ فى وجه أحمد ليتوقف فوراً عن تعذيب ابنها، ثم أتت وحضنت رأس ابنها طالبة السماح والغفران. التفتت أم حامد نحو أخيها وزعقت فى وجهه، "روح.. روح، كفاية كده"، فعلا انتهى الموضوع بهذا الشكل. عندما عاد عبد الباسط من رحلته، لم تحك له أم حامد شيئاً عن الكردان، لكن عندما عرف القصة من مصادر أخرى، لم يعر الموضوع أى اهتمام.

شفى شحات وعاد إلى عمله فى الحقل، لكنه راعى أن يبقى بعيداً عن منزله فى الأمسيات التى قضاه فى قهوة "عبد اللاه" بقرية الكوم وهو يمازح أصدقاءه ويعاقر الخمر.

هذه القهوة ليست سوى عشة منخفضة السقف، رائحتها مقرزة حيث يختلط فيها روائح أسوأ أنواع الخمور كذلك الحشيش. فيها يتجمع

الأشقياء والصيغ ليلا، وعادة ما تجد بداخلها السكارى والهازئين الذين يسبون بعضهم بعضا بأقذع أنواع الشتائم، تتحصر متعتهم فى معاقرة الخمر، الحشيش، المقامرة، ارتكاب الفحشاء والتشاجر مع بعضهم بعضا.

فى ركن من العشة، وضعت لبة جاز ترسل ضوءا خافتا بالكاد يؤثر فى الظلام الكثيف الذى يحيط بالمكان بحيث يتعذر تحديد الموجودات بدقة بالغة. عندما يدخل وافد جديد ثم يجلس القرفصاء مربعا رجليه ومستندا على حائط، يصعب عليك أن تحدد من هو، وحتى أكثر الموجودين براءة وطيبة يكتسى وجهه بمظهر الشرير الآثم بفعل هذا الضوء الخافت الملى بالظلال، والشر تجده معلقا فى جو عشة "عبد اللاه" كأنما هو ضباب متكاثف.

عبد اللاه بذاته، تراه عادة جالسا كأنما هو جوال أمام منصة النار، رجلاه منحنيان أسفل جسده الضخم بينما هو يزد ويزرد فى الشاى الأسود، ينهمك فى وضع بعض من الجمرات المتوهجة فى شيشة أحدهم، يفتح الزجاجات، يقبض النقود أو يلفظ ببعض الأوامر الغامضة لزوجته. هذه المرأة البائسة، هى الوحيدة التى يمكن أن تجدها فى هذا المكان، تجرى هنا وهناك ملبىة الطلبات وقد اكتسى جسمها السواد بينما يبدو بعض من شعرها الخشن وهى تجلجل بصوتها المبحوح.

عبد الله هذا خبير بكل ما هو شرير شيطاني، هو رجل في الأربعينيات من عمره، على وجهه آثار بشعة لمرض الجدرى، شعره مففل كأنما هو زنجي، يبدو في شكله كأنما هو مصارع قديم؛ عادة ما يرتدى جلبابا مهببا يبدو خلفه صديري غير مزرر بحيث يمكن أن تلمح شعر صدره المففل أيضا. هو دائما ما يحافظ على مظهر بارد متحفظ، إلا إذا اقترب منه أحدهم وأسمعه آخر الأخبار والأقوال، حينذاك تراه وقد ضرب الأرض بقبضته قائلا، "يا راجل!" ثم ينطق بشتيمة أو اثنتين ويدير رأسه خلفا ويبصق بكل ثقة على الأرض.

بالإضافة إلى الخمر والحشيش، اشتهر هذا المكان أيضا بالتجارة في الأفيون بطريقة سرية خفية، علما بأن عبد الله يتعاطاه يوميا ويبدو هذا واضحا من سلوكه وتصرفاته وصوته.

لا يستطيع شحات سوى أن يتعاطى أرخص أنواع الخمر، التي يدخل في صناعتها خليط من المكونات، لكن العنصر الأساسي هو البلع. هذا الخمر شنيع للغاية، لدرجة أن الرجال يفضلون أن يسقطوا أعواد الكبريت المشتعلة داخل فوهات الزجاجات الفارغة ليلاحظوها وهي تشتعل بفرقة. لكن من النادر أن يتعرض شحات أو أصدقائه لنوع من السكر البين، إلا أنك تجدهم جالسين فاغرى الأفواه مبتسمين وعيونهم عمشاء ترتعش من جراء قريحة تلك الخمر السيئة التي سرت في دمائهم، كذلك بسبب فيضان الضحك الخشن المزعج وشخلة الزجاجات

والأيمانات البذيئة التى تصدر من أفواه لاعبى الكوتشينية. زبائن عبد الله يرحبون دائما بمقدم شحات قائلين له، "أبوك كان راجل تمام، يا ما عمل حاجات وحاجات فى حياته"، وكأننا هذه التحية لم تكن كافية، لذا يضيف أحدهم، "دا حتى كان دايمما يدفع لنا تمن المشاريب".

فى الصباح، يلعن شحات خسارته لنقوده ويحلف أنه لن يخطو مرة أخرى قهوة عبد الله، لكن وهو غير راغب فى قضاء أمسياته بجوار أبويه، يسرع فى سيره تجاه تلك القهوة.

فى إحدى الليالى، بينما هو عائد إلى منزله يترنح قابل صديقه العزب بجوار القناة. كان هذا الصديق عائدا للتو من الحقل محملا بحزمة برسيم وممسكا بالمنجل فى اليد الأخرى وقد انهمك فى رفع عقيرته بالغناء خوفا من أن يقابله جنى فى الطريق. قال له شحات، "ليه بتجع زى الجاموسة"، لاحظ العزب أن صديقه سكران، لذا أجاب، "ما حدش يقدر يضحك على ويستغفلنى، طبعا انت كنت عند المدعوك عبد الله، مش كده. ثم أنا حر، أعمل اللي انا عايزه". اعتبر شحات هذا الرد مبررا كافيا لأن يبدأ خناقة مع صديقه، لذا تعزم وضرب العزب كفا على صدغه، فما كان من ذاك وقد تملكه الغضب سوى أن يرفع المنجل ويطعن به ذراع شحات. أخذ هذا ينظر بكل غباء للمنجل وقد انغرس فى لحم ذراعه، ثم نزعه بقوة وألقاه فى التربة. أسرع العزب لينقذ منجله،

إلا أن شحات لحق به وتعاركا وتمرغا فى الطين الرخو. أسرع الرجال ليحجزوا بينهما صائحين، "انت مجنون يا شحات ؟ سيبه. إيه اللي بيعمله السكران ده؟".

فى الحال تظاهر الشابان بأنهما كانا يهزلان. توجه شحات إلى منزله وقد غطى الجرح بأكمام جلبابه الطويل حتى لا يلاحظ والداه ما حدث له. لكن فى اليوم التالى تقيح الجرح وأبى أن يندمل. عندما سمع عبد الباسط بموضوع الخناقة بعد مرور عدة أيام، أمر شحات أن يريه ذراعه. عندما شاهد مدى سوء الجرح، لعن ابنه، "يا ابن الكلب، تخبى المصيبة دى عنى ؟ انت فاكرنى عيل صغير ؟ ليه يا ولدى ما نطقتش بحاجة ؟ قاعد ساكت طول الوقت ده ! عايزهم يقطعولك ذراعك والا إيه؟".

بالرغم من احتجاجات شحات، أخذه عبد الباسط إلى مستشفى الأقصر ليعالج. بعدها اشتكى شحات لأمه، "أنا خجلان يا امه إننا رحنا للدكتور، دلوقتى كل البلد حتشوف ذراعى المربوطة ويقولوا: ذراع شحات متعورة والعزب ما حصلتلوش حاجة، يبقى مين فيهم الجدة؟".

ليلة ظهور الجنى

ما أن بلغ شحات سن الواحدة والعشرين، حتى بدا أنه قد نسى سنية تماما واستقرت أحواله، فهو الآن ذلك الشاب الريفى، يعيش وسط أهله واختار الطريق الأمن وهو الاستقرار فى حضان قريته التى حققت له الأمان فى الماضى والحاضر. بغرامه بطين أرضه، حبه للعمل اليدوى المجهد، تذوقه للأغاني المتوارثة والحكايات والحواديت، أصبح شعوره محكوما بحواسه. الحياة بالنسبة له لم تعد سوى أن تكون متابعات من يومه هذا. لكن حتى إذا قلنا إنه أصبح عاقلا ومؤمنا بالقضاء والقدر والمصير المحتوم، إلا أنه كان فى بعض الأحيان يبدو عاصيا. عندما قرر أبواه أن يبنيا بيتا جديدا فى جنينتهم وأن ينتقلوا هناك، رفض شحات بكل عناد أن ينتقل معهم. قال إنه سوف يأخذ باله من البهائم فى منزلهم القديم يحرسها ليلا؛ فى الحقيقة، كانت ذكرياته عن الأيام التى قضاها مع سنية ما زالت تؤرقه.

عملية الانتقال إلى المسكن الجديد كانت أمرا هاما وحيويا فى نظر أم حامد، فهى ترغب أن تباعد بقدر الإمكان عن لوكاندة صبحى.

بالرغم من أن هذه اللوكاندة تبعد إلى حد ما عن منزلهم ويفصلها عنهم عدة بيوت، فإن جلبة السكارى كثيرا ما كانت تسمع ليلا. فصبحى وزبائنه كثيرا ما يتناقشون بأصوات منفرة مسيئة، لدرجة أن أم حامد كانت دائما تتنهد قائلة، "يا ربى، هو إيه اللى حاصل هناك؟". باستمرار تستمع إلى أقبح الألفاظ، لكن هذا لا يزعج أم حامد البتة. فנסاء القرية وأطفالها اعتادوا على سماع تلك لألفاظ القبيحة بدون انزعاج، لقد اعتادوا على ذلك. ما كان يضايق أم حامد فعلا هو أنها كانت تتخيل أن الشتائم المسموعة موجهة إليها وإلى زوجها.

فكرة الانتقال تلك لم تكن مدروسة جيدا، فالجنينة تشفى بالأفاعى والعقارب، لذا لم يستكمل بناء هذا المنزل الجديد أبدا. وعادت الأسرة إلى مقرها القديم بعد عدة أسابيع. مع ذلك، أتاح هذا الانتقال إلى أن تنشأ صداقة متينة بين أم حامد وامرأة أخرى هى الست بهية، وهى زوجة الحاج عبد المطلب، بخيل القرية الموسر، ومنزلهم يقع على الجانب الآخر من جنينة عبد الباسط. ظهرت هذه السيدة منذ اليوم الأول للانتقال محملة بمقطف ملئ بالخبز، السكر، الشاي، أرنبين، أربعة أزواج حمام. ثم أعلنت بصوت عال، "انتى جارتنا دلوقتى يا أم حامد، وأنا لازم أرحب بيكى". بعدها ردت لها أم حامد الزيارة وبيدها مقطف أكثر إكراما وملينا بأنواع مختلفة من الأطعمة. فى تلك الأيام، عندما كان شحات يزور والدته، يجدها جالسة بجوار صديقتها الجديدة على

الأرض يتشاركان فى شد الشيشة وشرب الشاى والثرثرة. كثيرا ما كان يشعر بالإحراج وهو يراهما منهمكتين فى همس حميم، كان يشعر ويخمن أنهما يتهامسان بأكثر الأمور حميمية فى علاقتهما بأزواجهما. بهية ذات آراء متعمقة فيما يختص بتلك الأمور، ودائما ما تصدق فى أحكامها، لا سيما ما كان منها ما لا يبعث على السرور.

من النادر أن يمر يوم دون أن يتردد اسم زوجها على الألسنة فى أنحاء القرية. فالحاج عبد المطلب، الذى كان خادما فى ماضى أيامه، هو الآن إنسان فائق الاجتهاد يمتلك عشرة فداين بالإضافة إلى دكان القرية ويشتري ويبيع الحبوب ويشارك بالنصف فى ستة ماكينات رى. هو دائم المشغولية بمشروعاته المتعددة التى تدر عليه دخلا محترما، لدرجة أنه من المتعذر على أى إنسان أن يتابعها جميعا.

أهالى القرية جميعا مدينون له، هو أول من ينهض من نومه فى القرية، لكى يعزق حقله فى الفجر، ثم يفتح دكانه الساعة التاسعة. دائما تراه ممتطيا حماره ذاهبا هنا أو هناك، يستمر فى عمله بالحقل حتى يحين الظلام. هو دائما يتوقع نفس هذا الاجتهاد من أفراد عائلته. كانت بهية هى المرأة الوحيدة التى عليها أن تذهب للحقل يوميا لتحش عليقة وعلف البهائم.

بخله معروف للجميع، لدرجة أن من يقبل الأجر الذى يقدمه لخدمة أرضه لن يكون سوى رجل كبير فى السن أو أكتع أو مجنون. يقال إن

بهية تطعم عائلتها بخبز الذرة والبقول والبصل والمش. من جانب آخر، يبدو أن الحاج عبد المطلب هو إنسان ورع، مثلما نجد أن صبحى إنسان سيئ السمعة. هو الذى بنى جامع القرية، لكن كرمه هذا لم يطل بحيث يستكمل بناءه ويثبت منارة أعلاه. إنه إنسان لا يشجع الحديث التافه المستهتر والأقاويل، مظهره جاد وخاطره دائما مشغول بأمور هامة. يقال إن ثروته هائلة، لذا يقف الناس أمامه فى خشية ويعتبرون مصاحبته مصدرا للخوف والفرع.

فى تلك الأيام، منح الحاج رخصة صرف التموين لأهالى القرية، هذا التموين يتكون من السكر، الشاى، الدقيق، الزيت والكيروسين. ولأنه لا يمكن لأحد فى القرية أن يعيش بدون هذه المستلزمات، لذا أبقي دكانه مفتوحا عدة ساعات قليلة كل صباح، وعلى الجميع أن يقفوا فى صف أو أن يتجمعوا أمام المحل بينما هو يزن كل حبة سكر.

ما أن أصبح الحاج رجلا غنيا، حتى اعتاد أن يركب بغلته بكل وقار دافعا رأسه إلى الأمام بينما شفتاه تهمس بلا كلل. عندما يراه شحات هكذا يقول بأنه يعد نقوده، لكن يبدو أن الحاج كان يظهر للجميع كيف أنه إنسان مشغول وعاقل ورزين.

كانت الصداقة التى تربط بين أم حامد وبهية مصدر تعجب لشحات. كلتاهما ذاتا إرادة حديدية، لكنهما مختلفتان جد الاختلاف من كل الوجوه. عينا أمه جميلة، جريئة متسلطة، أما عينا بهية فهما باهتان

فيهما بعض الحول. أم حامد إنسانة حساسة، مسرقة، لسانها سليط، كريمة وكرامتها فوق كل اعتبار. بهية إنسانة هادئة، لا تدرى شيئا عن أحوالها، دائما مشغولة، فاقدة الإحساس ولا تهتم كثيرا بما يقال عنها أو عن زوجها، مع ذلك تشعر بالاندهاش إذا تعرضت لأي نوع من المقاومة. أم حامد فقيرة، بهية غنية، مع ذلك هي أمه التي تقضى أيامها في انبساط وانسراح. إنها نادرا ما تترك مناسبة زواج أو وفاة، تلبس وتاكل أفضل، ويبدو من مظهرها أنها إنسانة عظيمة. بينما تقضى بهية الساعات تعمل بكل كد في الحقل كأققر الفعلة. لكن على أية حال، ما أن بدأت هذه الصداقة حتى كان من النادر أن يفترقا.

هذه الصداقة نجت من كثير من التجارب- زينب بنت بهية الكبرى، افتتنت بالفتى "العزب"، لذا بدأت في سرقة الأقمشة من دكان أبيها، ثم تبعها وبنقودها تمنح حبيبها هدايا متنوعة. عندما أحضرت زينب بعض المسروقات إلى بيت عبد الباسط، ثار هذا قائلا، "أبوكي كويس معانا، أما أكون محتاج شوال أو اتنين دقيق، أبوكي بيدهوملى سواء عندي فلوس أو ما عنديش. أنا أكلت عيش وملح مع الراجل ده، ازاي أقابل وش كريم إذا اشتريت الحاجات دى منك ؟ امشى بعيد يا بت!"

إلحراج أم حامد، وجدت زينب وسيلة لتصريف مسروقاتها عن طريق "سعاد"، وهي بنت أخت عبد الباسط، ومسكنها قريب من منزل عبد الباسط القديم. سعاد هذه سمينة، كسولة وقد هجرها زوجها ورحل

إلى القاهرة، لذا هي كانت فى حاجة مستمرة للنقود. كانت دائما تعنف أم حامد قائلة، "يا اختى دايمًا بطنك تتنفخ ويجيلك إسهال لما تشوفى البت زينب داخله عندى، ليه كده؟".

يوما شعرت أم حامد بألم شديد فى جنبها فى المكان الذى تلقت عليه ضربة شحات التى كان يقصد أن يوجهها لخاله، وعندما طلبت من عبد الباسط أن يقصد منزل الحاج على ليطالبه ببعض مستحقاته منذ أيام مأمورية الاستكشافات لكى يمكن لها أن تذهب للطبيب، قال عبد الباسط، "ما تروحي انتى، إذا انا طلبت فلوسى وقاللى لا، يمكن أقتله أو هو يقتلنى. ابن الكلب ده كل كلامه نصب فى نصب، أحسن يا مرة تروحي انتى".

ما أن رأى الحاج على أم حامد آتية من بعيد، أخبر زوجته أن تنكر تواجهه. ما أن صافحت هذه أم حامد، حتى بادرتها بتعنيف شديد، "أما انتى محتاجة كده لفلوس، ما تروحي لحبيبتك بهية وهى تساعدك. وقوليلى يا اختى، لما هى صاحبتك بالقوى كده، ليه طيب تفت فى وشك؟"

"مين قال الكلام الواطى ده"

"سعاد هى اللى فتننت، وكل العيلة سمعت منها الكلام ده"

ثلاثون عاما من الخصام والاختصار مع أقارب عبد الباسط لم تكن كافية لتتعلم أم حامد كيف تنحى جانبًا أقاربهم وإشاعاتهم. لذا عندما

عادت لمنزلها والغضب يزلزل كل كيائها، قالت لزوجها، "إذا كان فعلا بهية تفت فى وشى، فانا قادرة بإذن واحد أحد إنى افصل رقبتها من جسمها، الحاج عبد المطلب راجل غنى الأيام دى، لكن هو نسى أيام ما كان بيبيع بصل على السكة؟".

زعق فيها عبد الباسط، "انتى ازاي تاخدى فى بالك الكلام الهجص ده، لازم دلوقتى وقبل حتى ما تغيرى هدومك تروحي لبهية وتشوفى إيه الموضوع، يا الله. مع السلامة".

"طاب أستريح من المشوار يا راجل"

"لا. أنا قلت دلوقتى يعنى دلوقتى"

وصلت أم حامد إلى منزل الحاج وقد شمخت بأنفها عاليا فى الهواء، بينما أوصالها ترتعد غضبا. ما أن رأتها صديقتها بهذا المنظر، حتى خبطت على صدرها قائلة، "ليه يا اختى بتترعشى كده ؟ ووشك مغير". ما أن حكّت أم حامد عما سمعته من سعاد والقماش المسروق، حتى انفجرتا سويا فى بكاء شديد، بينما وقفت بجوارهما زينب وهى تستمع مطأطأة الرأس. ما أن استجلت أم حامد الحقيقة وانفض غضبها، حتى أخذت تطبط على ظهر بهية الباكية قائلة، "بس. بس يا اختى. إحنا نشكر ربنا ألف شكر إن الشيطان ما كانش حاضر إلا فى صوابع السهانة بتاعة بنتك زينب دى"

فى اليوم التالى استدعت أم حامد سعاد لتحضر لمنزلها بعذر مفتعل، ما أن حضرت هذه حتى أمسكت أم حامد بنسخة من القرآن الكريم وطلبت من السيدة المذعورة أن تحلف بأنها لم تأخذ أبدا قماشا مسروقا من زينب. هذه أخذت على حين غرة، لذا أقسمت بأنها بريئة تماما من هذه التهمة. لكن بينما هى عائدة إلى منزلها وهى تسير فى الطريق المجاور للترعة، أحست بدوخة شديدة وسقطت فى التربة. عندما أتى شلتوت جريا لينقذها وسحبها فعلا من الماء، كانت هى ترغى وتزبد وترتعد. الكل أشاع أن سعاد قد ركبها عفريت، وقيل إن أهلها استدعوا ثلاثة مشايخ من الكوم لى يحرووها من هذا المس.

بالنسبة لأم حامد، لا يجب أبدا أن يستهان بالحلفان على القرآن، ولا سيما إذا كانت جارتها اللثيمة هى التى فعلت ذلك. جارتها الكرنبية هذه، ذات العيون المملوءة مكرًا، كثيرا ما كانت تنصت عبر منزلها المجاور لأم حامد وتنقل كل ما تسمعه بشكل مبالغ فيه فى أرجاء القرية. مرة عندما رأت أم حامد سعاد وبرفقتها ابنتها الجميلة بطة خارجتين وقد ارتدتا ملابس حيكت من القماش المسروق، لم تجد أم حامد سوى أن تسخر منهما، لذا خاطبت عبد الباسط بصوت عال مسموع، "كل الناس عارفه مين هما الحرامية، أيوه ربنا ما ينساش أبدا، ويخرب بيت كل واحد ظالم فى حينه"، ضحك عبد الباسط وأجاب، "اتكلمى على كيفك يا مرة، وأى كلب يفتح بقه، أنا قادر أقفله بالضربة والمفتاح!"

بعد هذه الحوادث وبشكل عاجل، زوجوا زينب لعمدة الكوم، لكن هذا طلقها قبل مرور شهر العسل. قيل إنه ضبطها تسرق، وإنها ما زالت تواعد سرا الواد العزب. ثم بسرعة بالغة زوجها أبوها الحاج عبد المطلب لرجل ميسور الحال من قرية التوتة البعيدة.

استأجر الحاج دسنة سيارات تاكسى لتقل العروس إلى منزلها الجديد، لكن ما حدث بعد ذلك ليس واضحاً، ولم يشر إليه الحاج أبداً. قيل إنه عندما توجه ليحزم مقتنيات العروس، وجد مخبأً عندها به كميات ضخمة من الأقمشة، السكر والشاي وكلها واردة من مخازنه. تستمر الحكاية في القول بأنه لطم خديه وأخذ يزعم ويريد، إلى أن تقدمت إليه بهية مواسية قائلة، "يا جوزى بطل الكلام ده، انت نسيت إن عندنا ضيوف!". ومهما حدث، فإنه إذا كانت بهية تزور بنتها في أوقات متباعدة، إلا أن الحاج لم يرد ذكر اسم ابنته على لسانه أبداً بعد ذلك.

بدأ موضوع ظهور الجنى لشحات عندما انتقلت الأسرة لتسكن البيت الجديد، بينما استمر هو بمفرده في المنزل القديم. هناك بدأت قصته مع الجنية. بلغ شحات الآن عمراً يستطيع فيه أن يتزوج، لكن خلال الخمس سنوات منذ أن رفضوا تزويجه سنية، لم يجد والداه عروس مناسبة له، فكل من أم حامد وعبد الباسط يود أن يزوجه من عائلته. الجنى الأول الذى ظهر لشحات كان فى الحلم على هيئة فتاة رائعة الجمال. لا يندهش أحد من ذلك، فكثير من رجال القرية يزورهم الجن

فى الأحلام، ومعروف للجميع فى القرية أنه من الممكن أن يتخذ الإنسان زوجة له من الجن !. أحد المشايخ فى قرية الكوم حدث له ذلك، وأجبر على أن يمتنع عن النوم مع زوجته الإنسية لأن الجنية هددته بأنها سوف تقتله إذا حملت امرأته منه!.

الجنية التى زارت شحات فى المنام عذبتة أشد العذاب، فكل ليلة تظهر له وتطلب منه أن يعاشرها معاشرة الأزواج. كانت جنية طماعة للغاية، وكان يصحو من نومه كل صباح مرهقا ومتعبا وبدأ يفقد وزنه، فهى تبقى له القليل من الجهد الذى ينفقه فى خدمة أرضه. أخيرا اعترف بالأمور لأم حامد قائلا، "دى حلوة خالص يا امه، عايزانى أتجوزها هى مش إنسية".

تملك الذعر أم حامد وأسهرت به إلى الشيخة داية فى قرية الكوم. هذه العجوز حذرتة قائلة، "ياه يا ولدى، دى عايزة تتجوزك. يبقى انت كده فى خطر. لازم يا ولدى ترفض. لو كنت فعلا متجوز إنسية، يمكن هنا تقبل، لكن انت لسه ما اتجوزتش. حتى لو الجنية دى ادتك كل اللى أنت عايزه، كده هى تقدر تخليك زى الخاتم فى صباعها".

سأل شحات عما يمكن أن يفعله فى هذا الشأن، قالت، "شوف، أنت عليك تروح للشيخ الحفنى فى الأقصر. دا راجل واصل وحاجج بيت الله أكثر من مرة، وعنده كتب قديمة خالص، ويعرف حاجات كثير عن عمايل الجن وهو حيوضبك سحر يحطه فى صندوق حديد علشان يخلصك من العفريت ده".

الشيخ الحفنى هذا، هو رجل عجوز محنى القامة، لا أسنان له وذقنه كلها بيضاء. طلب هذا الرجل ستة جنيهاً مقدماً، وثمانية جنيهاً أخرى إذا نجح تعزيمه. قال بصوت حاد مرتعش، "إذا ما نجح العمل، يبقى انت مش ملزم بحاجة خالص، وكمان خارج ليك الستة جنيه". إنه مبلغ كبير، يساوى ما تنفقه العائلة خلال شهر من مأكول وشرب، لكن أم حامد قالت إنها سوف تبيع معزتين.

أطلق الشيخ بخوره وتمتم ببعض آيات القرآن الكريم، ثم أعد لشحات حجاباً وذلك بأن أمسك بورقة بيضاء غير محددة المعالم وكتب بعض الرموز الغامضة غير المفهومة بخط أحمر قان، ثم طبقها وأعاد تطبيقها حتى أصبحت مثلثاً صغيراً، ثم ثبت خيط دويارة فى أحد أركانها وطلب من شحات أن يضعه حول رقبتة عندما يذهب للنوم قائلاً، "إذا جالك الجنى ده قول الله أكبر، وامسك فى إيدك حتة حديد لأن الجن كلهم يخافوا خالص من الحديد".

شحات ينام كالعادة بمفرده فى البيت، فى تلك الليلة حضرت الجنية كالمعتاد، لكن فى تلك المرة كانت تمتطى حصاناً أبيض، ومن خلال الضباب الأبيض الذى يكتنفها كل مرة وهى قادمة نحوه، نزلت هذه من على ظهر الحصان وهى تتمخطر وتتمايل وقد ارتدت الملابس الحريرية الحمراء اللفهافة وتزينت بعقد وأساور من الذهب البراق الذى يتلألأ فى ضياء مبهر، ثم اقتربت منه جداً لدرجة أنه استطاع أن يميز

العطر الفواح الذى ينبعث من جسدها . لقد كانت فى أوج قمة جمالها تلك الليلة. توقف شحات عن ترديد أنفاسه، وتعثرت ضربات قلبه وهو يتلمس بيديه ذلك الحجاب الصغير وقطعة الحديد التى يجب أن يقبض عليها بقوة فى يده، أخيرا تغلب خوفه على جنون رغباته وهمس "الله أكبر". ما أن نطق بذلك حتى تحولت رائحة العطر الفواحة إلى رائحة كبريتية منفرة، والضباب الذهبى تحول إلى دخان وهباب أسود. وجه الجنية تحول فجأة أمام عينيه ليصبح وجها مخيفا مرعبا له قرون شيطانية. كاد شحات أن يحس فعلا بالأبرة السامة الحارة المتدفقة من فم الشيطان، ورأى بألم عينيه ذلك الفم المشلوط الملثوى والعين الصفراء الجاحظة، لذا صرخ، "أعوذ بالله من الشيطان الرجيم"، واهتز بعنف فى مرقده وعصر عينيه بقوة وفتح فمه محاولا الصراخ، لكن لم يصدر من حلقه سوى حشرجات متقطعة. فى رعب كامل أخذ يتلوى مبتعدا، ثم شعر بسخونة تشمله كله تبعثها برودة، وأحس كأن هناك أيادى تقبض بعنف على أكتافه وعنقه محاولة أن تزيحه من فوق الكنية لتلقيه أرضا. أخذ يهتز ويرتعش بدون توقف، يلهث طالبا المعونة من الله، ثم، أغمى عليه. فى الصباح الباكر وجدته أم حامد راقدا فى الحارة أمام المنزل مستغرقا فى نوم عميق، عندما أيقظته، أخبرها عما حدث قائلا، "دى كانت عايزه تقتلنى يا امه، لكن أنا مسكت جامد فى الحجاب". بعد تلك الحادثة، لم تتركه أم حامد أبدا ليبيت بمفرده فى البيت.

ليال طويلة بعد ذلك، جلست هي بنفسها بجواره، لكنه كان يتقلب كثيرا فى نومه ويصدر منه أنين متقطع عال، هنا تهزه أم حامد ليستيقظ. كلاهما كان يخاف عودة تلك الجنية، وقبل توجهه للنوم كل ليلة، يتلو شحات ما تيسر من أى الذكر الحكيم، متوسلا إلى الله أن يحميه من ذلك الشيطان الرجيم وأن تتركه الجنية ليعيش فى سلام.

فى ليلة، وهو عائد من قهوة "عبد اللاه" ممتطيا حماره، وكان قد احتسى قدرا كبيرا من العرقى، رافعا عقيرته مغنيا بصوت عال ليرفع من معنوياته، توقف حماره فجأة عن السير وأبى أن يتحرك قيد أنملة. فجأة تحول الهواء حوله ليصبح باردا تلجيا، لذا تملكه خوف مسيطر من الظلام الذى يلفه بعباءته تماما، وعندما بطلق بعينه أمامه أخذ يصرخ مذعورا، فعلى البعد كان هناك الجنى بانتظاره وهو يقفز قفزات متتابعة فى الهواء بينما ترسم على شفثيه ابتسامة مخيفة. فى جزع بالغ، سحب شحات سكينه وأخذ يطعن به الهواء بكل عنف. هذه الحركات العشوائية أدت إلى إصابة حماره بجرح بسيط، فما كان من الحمار إلا أن يرفع ساقيه عاليا فى الهواء ويسقط راكبه على الأرض وهو يتدحرج. حينئذ أسرع شحات بالزحف على يديه ورجليه فى الاتجاه العكسى. ما أن أحست كلاب القرية بتلك الجلبة حتى أخذت فى النباح بكل نشاط وقوة. عندما وصل شحات أخيرا إلى منزله، أخبر أمه أن الكلاب هى التى أنقذته.

لم يحدث أى شىء آخر لفترة زمنية أخرى، وعادت العائلة كلها لتستقر فى المنزل القديم. بعد ذلك أقسم شحات بأنه لن يغادر عتبة بيته أبدا لأى سبب كان بعد حلول الظلام، لكن عندما سخر منه "العزب" وألح فى أن يذهب سويا إلى مقهى عبد اللاه فى ليلة ما، وافق شحات. لذلك وجد نفسه يعود ليلا ممتطيا حماره من قرية الكوم بمفرده، لأن العزب تركه متوجها لمنزله.

فجأة، وجد شحات نفسه فى قلب عاصفة صحراوية غريبة الشكل. فى لحظة يسكن الهواء تماما، فى التالية، بدون أى إنذار، تزمجر حوله رياح عاتية تطيح به من فوق ظهر حماره ممزقة ثيابه، ثم ينفجر فى أذنيه صوت صفارة عات. أحس شحات فجأة ببرودة تشمله، لقد تحقق الآن أن الجنى قد اتخذ صورة المارد، وهو أقصى أنواع الجن ووجوده ينشأ من دم قاتل ميت ويظهر دائما على شكل عاصفة هوجاء تخنق ضحاياها. بينما يكافح شحات ليتنفس، أخذ المارد فى الصراخ فى أذنيه ومزق ثيابه وضربه وجعله يدور حول نفسه مرات ومرات. أمسك شحات برقبته محاولا الحصول على الهواء، لكن النفس كان يصله بصعوبة بالغة، ثم أخذت العاصفة تعوى وتعوى جاذبة إياه نحو قلب دوامتها السوداء.

بعض الجيران عثروا عليه فجرا راقدا فى الطريق مغشيا عليه وحماره بجواره يمضغ بعض الحشائش. حملوه إلى منزل والد العزب

القريب، والعزب بنفسه وضع بصلة مكسورة على أنفه وألقى بمياه باردة على وجهه، وجرى أحدهم جالبا معه رجلا مبروكا ذا سمعة طيبة. حضر هذا ووضع نسخة من القرآن الكريم فوق رأسه.

عندما أفاق، حملوه إلى منزله. هناك صرح لأمه، "أنا شفت جنية قبل كده، لكن مش زى ده أبدا، أنا كنت متأكد انى حاموت". ظل شحات مريضا ملازما الفراش لعدة أيام بعدها أحس بتعب شديد وضعف وبأنه غير قادر على مغادرة فراشه. عندما يحاول النهوض، يشعر بألم ثاقب يخترق صدره. هنا استحضرت أم حامد الشيخة داية من الكوم، قال لها شحات، "الجنى ده حاول يلفنى كلى ويخنقنى"، فصاحت الست الشيخة، "أيوه يا شحات يا ولدى، هو ده المارد، كان عايز يشيك ويرميك فى الصحرا عشان تموت هناك، أو حتى يرميك فى التربة وتغرق. دايم المارد يحب يقتل البنى آدمين، كان لازم يا ولدى تنطق وتقول "الله أكبر" زى ما قال لك الشيخ الحفنى، وتمسك حديدة فى إيدك لأنه حتى المارد يخاف من الحديد وتقول: حديد يا مشنوم!. المارد هو أفظع أنواع الجن، حظك كويس إن انت لسه عايش".

تركت الشيخة تعليمات محددة ليكتمل علاج شحات، فهناك تعويذات معينة تحرق بجواره كل مغربية أثناء وقت الصلاة، وكل صباح ومساء، على أم حامد أن تحرق البخور وتحرك الإناء الفضى الخاص بالبخور فوق رأسه سبع مرات، ويوضع حجاب معين فى منتصف الغرفة

تماما، وفوقه يخطو شحات سبعة مرات فى اليوم. بعد خمسة عشر يوما يحضر لها طبقا صينيا وهى سوف تكتب على حوافه بعض الكتابات السرية. وعندما يكون القمر بدرا عليه أن يغسل هذه الكتابات بالماء ثم يشربه على ثلاث دفعات. بعد ذلك، وعدت الشيخة بأنه لن يشعر بأى ألم فى صدره ويعود قويا كما كان.

طبق شحات كل ما أوصت به الشيخة بكل دقة، لكن الألم لم يفارقه. عبد الباسط، وهو أقل تشاؤما من زوجته اصطحب أخيرا شحات إلى مستشفى الأقصر. أخذت له أشعة على الصدر، الطبيب وهو مسيحي كبير فى السن وجد دلائل على تأثر قلبه بروماتزم، وشدد على شحات بأن يمتنع نهائيا عن التدخين، الأكل الحريف، الكحوليات وبذل أى جهد مبالغ فيه. عندما هزأ شحات من هذا التشخيص، أخذه عبد الباسط للعرض على طبيب مسلم آمن على تشخيص الطبيب الأول، ثم قال هذا بحدة بالغة، "إذا ما أخذتش بالك من نفسك، انت حتموت فى ظرف سنة أو اتنين". هذا التحذير بعث بخوف مريع فى قلبى عبد الباسط وشحات. أخيرا أخذه عبد الباسط إلى طبيب متخصص فى القلب وعيادته فى مدينة قنا، الذى وجد بالفحص الدقيق أن قلب شحات سليم ولا يعيبه شىء. هذه التناقضات التشخيصية تركتهما محتارين، مما جعل شحات أخيرا يقول لوالده، "كل اللى يقولوه الدكاترة دول هو كذب فى كذب. كل شىء من عند الله، ولحظة الموت بيحدها ربنا

من يوم ما يتولد البنى آدم وما فيش أى شىء يقوله الدكاترة دول ممكن يغير المكتوب. مع الوقت، خف ألم صدره، بعدها رجع إلى التدخين، الشرب والأكل وأخذ يعمل فى الحقل كما كان يفعل سابقا، ولم يزعجه الجن بعد ذلك.

تمسك عبد الباسط بمناسبة شفاء جسد وروح شحات، وانتوى أن يقيم حفلا رائعا بهذه المناسبة السعيدة. قرر أن يستأجر فرقة موسيقية ويستقدم بعض الرواة المشهورين، وربما يحضر أيضا بعض الرقاصات. هذه الحفلة ستستمر سبعة ليال وسوف تتكلف ثروة صغيرة، لكن الحاضرين سوف يساهمون عندما يقدمون النقود للعازفين ويحضرين معهم مددا من الحشيش وزجاجات العرقى، وأقسم أن يذبح خروفين ليأكل الجميع أول وآخر أيام الحفلة.

اندهشت أم حامد عندما عرض عليها الفكرة، ثم شملها سرور بالغ. لا شىء يبعث على الانبساط أكثر من أن تفعل مثلما يصنع الجيران، هى لديها قدرة عجيبة على أن تكون مبذرة أكثر من زوجها بمراحل. إذا أحست هى أو زوجها بأن هناك واجب ضيافة محتم - وأم حامد مشهورة بأنها أحسن طبخة فى القرية - فإنهما فوراً يقومان بشراء اللحم والحمام والفراخ، حتى لو اقتضى الأمر أن يعيشا بعدها على أكل الفول بمفرده لمدة أسبوع كامل. ورغبة منها فى تتميم واجب الضيافة على أكمل وجه، يمكن لأم حامد أن تقدم عشرين أو ثلاثين كوبا

من الشاى فى اليوم الواحد، هذا يعنى أنها تنفق فى شراء السكر والشاى أكثر مما تنفقه عائلات أخرى على المأكّل والشرب. الدخّل الذى يحصلون عليه من بيع منتجاتهم الزراعية شحيح للغاية ولا يتعدى أربعمئة أو خمسمئة جنية سنوياً، لكن إذا كان حظ عبد الباسط عالياً فى القمار، فهنا يتيسر الحال.

حينئذ، وأثناء التجهيز للحفل، اعترف عبد الباسط لزوجته أنه اضطر أن يبيع نصف فدان من أرضه الموروثة للحاج عبد المطلب لكى يسدّد ديون قمار. ثارت أم حامد واحتجت بعنف، لدرجة أن عبد الباسط اضطر أن يضربها قلماً على وجهها، لكن ما أن استمرت فى العويل، حتى أمسك هو بفأس وكاد أن يجرز رأسها لولا تدخل شحات الذى أمسك بيده. فى الحال تراضى عبد الباسط مع زوجته وطلب منها الغفران. شعر شحات بغضب شديد يعتريه لأن والده باع أرضه، ولم يجد فى نفسه القدرة الكافية لأن يتحدث مع والده فى هذا الشأن، لهذا داوم على ارتياد قهوة عبد اللاه كل ليلة لكى يبتعد عن طريق والده. بالنسبة إلى شحات، يعتبر بيع الأرض كأنه يشبه الاستغناء عن رجولة الفرد، لذا انتابه خجل وعار شديداً من فعلة أبيه.

كان جل اهتمام عبد الباسط منصباً ناحية زوجته، فهو على وعى كامل بما تعنيه المقتنيات والوضع الاجتماعى بالنسبة إليها، وبينما إحساسه يتضاعف بأنه أخطأ فى الأولى، لذا انهمك فى التعويض

بالنسبة للثانية. يا الله، إنه سوف يقيم حفلا لن ينساه الناس بسهولة!. إنه لن يذبح خروفين فقط بل أربعة. لماذا نعيش، هذا ما قاله لها، أليس لكى نأكل ونشرب وننسى، ولا أحد يستطيع أن يتنبأ بما يخبئه الغد. وهو ليس سوى الطريق القصير المؤدى إلى القبر. لقد استرد شحات صحته، أليس هذا مبررا كافيا للاحتفال ؟ إذا كان الإنسان كريما مع الناس، فالله هو العاطى الاكرم. فى صميم قلبه، كان يحس بخجل بالغ من فعلته لأنه بدد من ميراث أبنائه، لذا ود أن يريهم جميعا.

تعال نملأ الكاسات

نحن الآن فى اليوم الأول من الحفل، كانت ليلة منعشة وصافية من لىالى شهر مايو. لمدة يومين كاملين، انهمكت أم حامد ومعها ابنتاها المتزوجتان بالإضافة إلى ابنتها سماح ونساء من الجيران فى الطبخ وتجهيز وجبات فاخرة تتكون من الفراخ المسلوقة، الحمام المحشى، ملفوف ورق العنب بالأرز، وكل أنواع الخضروات، سلطة طماطم وكرات وخس، أكوام من العيش الشمسى وعيش الذرة، أربعة أنواع من الجبن ونوعيات مختلفة من الحلوى. كان عبد الباسط قد أحضر عدة صناديق من عرقى البلح والينسون بالإضافة إلى البيرة وشئ آخر يدعى "البراندى الفرنساوى" الذى اشتراه من محل رجل يونانى فى الأقصر. عبق الجو برائحة شواء خروف مغروز فى سيخ فى الفسحة. الكل ينادى على أم حامد، وهى مقطوعة النفس وبمنظرة ثاقبة تهرول هنا وهناك فى أرجاء المطبخ، حيث تشتعل النيران منذ فجر اليوم.

ظهر عبد الباسط وقد حلق ذقنه وشذب من شواربه، وجهه متورد من جراء حمام ساخن بالماء والصابون، متبخترا فى جلباب واسع أبيض

ونظيف. هو الآن يشرف على جيرانه وهم يرصون الكنب والمقاعد التي سوف يحتلها أكابر البلد، كذلك يرصون الحصر على الأرض، هي التي سوف يجلس عليها الآخرون. أخذ أيضا فى تعداد زجاجات الخمر، وكان ينتابه قلق داهم خوفا من أن لا يحضر الراوى فى مواعده الذى سوف يحين بعد أربع ساعات قادمة. وجهه الغارق فى عرقه تلالا فى ضوء اللمبات العديدة التى علقت، ليس فى الساحة والحارة فقط، لكن تمتد حتى تصل إلى حدود جدران المعبد الفرعونى، لأنه فيما بعد سوف يكون هناك رقص. هو احتسى بالفعل زجاجة زبيب ومستعد الآن ليقرب زجاجة أخرى. بعض المدعويين حضروا بالفعل وأخذوا يتبادلون السجائر فيما بينهم ويدخنونها بتلذذ ونظراتهم كلها توقع وتشوق ونستمع إلى ضحكاتهم الخشنة المقرقة. بدأت الضوضاء تشتد، والغرباء يمرون ممتطين حميرهم يتعجبون ويستغربون مما هو حادث أمام أعينهم. راجت همسة دائرة مفادها أن الراوى العجوز فى طريقه الآن آتيا من محطة القطار.

منذ بدأ عبد الباسط فى التفكير فى إقامة هذا الحفل، حتى قرر أن يجلب إليها أفضل الفنانين. والراوى الذى تعاقد معه هو رجل عجوز محنك يعتبر الأجود فى مهنته. الآن نستمع إلى الصوت المجلجل لمؤذن الجامع المدعو عمرو وهو يدعو المؤمنين لحضور آخر صلاة فى النهار، ثم اختفى تدريجيا صدى صوته ذو الجرس الحاد.

حوالى الساعة الثامنة مساء، تجمع الكل، حالا ازدهمت الساحة والحارة التى أمام المنزل بالمدعوين. شغل الرجال كل الكنب والحصر، أما النسوة فقد انهمرن داخل البيت ليحتلن مداخله ونوافذه. تزامم الاطفال محاولين احتلال أى فراغ متاح إلى أن يطردهم أحد الكبار من هنا أو هناك. عبد الباسط، شحات، أحمد، العزب وأقارب آخرون تحركوا بين الجموع بكل لطف يقدمون لهم أقذاح صغيرة من الشاي، يجلبون بعض الفحم المشتعل لتغذية الشيش، يوزعون عليهم سجائر الكيلوباترا التى يشعلونها لهم بكل اهتمام ووقار.

واحد منهم أخذ يدور بين المدعوين وقد أمسك بوعاء فضى به بخور لبان ذكر مشتعل، هذا الوعاء كان معلقا بسلسلة ويتم أرجحته فوق رؤوس الضيوف بحيث يغمرهم بدخان أزرق له رائحة محببة.

الجميع حضر. أتى فاروق وبصحبه أخ بهية المدعو "فاتح"، هو أحد أصدقاء عبد الباسط ومشاركا عتيذا معه فى احتساء الخمر. فاتح هذا وجهه أحمر وسيم، هو تاجر بارع فى مجال بيع وشراء حيوانات الزراعة. من الأسلوب الذى يصافح به الناس هو وفاروق بكل حرارة وهم يخطبون على أكتافهم ثم يتفجرون فى ضحكات خشنة، تنبئ بأنهما فى حالة شعشعة من شرب بعض من الخمر. فاروق إنسان خشن، لكنه لطيف، يستطيع أن يتماشى مع الجميع. وقد لاحظت أم حامد أن شريك زوجها هذا لا يستطيع أن يناضل كثيرا فى تجنب تصويب نظرات

متفحصة نحو النساء بعينيه الحمراءوين. فاروق هذا من النادر أن يفتح فمه بدون أن يصدر منه قول فاحش، هذا يؤيد تقديرها له كإنسان وضيع.

حضر الحفل أيضا الغفير "سالم"، وقف منتصباً ممسكاً ببندقيته. لقد بعث به العمدة بشكل مخصوص لكي يتأكد من أن الأمن مستتب. حضر أيضا "لمى"، وهو من أكبر ملاك الأراضي في القرية وفي معيته عدد من الرجال توجهوا بكل احترام لاحتلال الدكة الرئيسية، ومن كانوا يشغلونها سابقاً غادروها فوراً باحثين عن أماكن أخرى. أيضا حضر "يوسف"، وهو جار عجوز، تعدى الستين من العمر، محنى الظهر، بلا أسنان، ثرثار، يتحدث بلا توقف لالتقاط أنفاسه عندما يجد من يستمع إليه.

فقط هو الحاج عبد المطلب الذى كان غائبا عن الحفل. أرسل يقول إنه سوف يحضر متأخرا، فهو ليس لديه وقت يقضيه فى مثل تلك التفاهات. امتلأ المنزل بالنسوة، انحنى "بطة" ابنة سعاد الجميلة على إفريز نافذة علوية وهى تضحك بجماع قلبها كأنما تود أن تلتفت نظر أحدهم، أما "سماح" أخت شحات الصغيرة، فقد تنازعتها فضائل التواضع مع الفضول، لذا وقفت خلف بطة وخمارها يغطى نصف وجهها. جلست الشيخة "داية" وسط مجموعة من النساء العجائز احتلان عتبة الباب الرئيسى. فوق الجلبة الصادرة من المطبخ، يسمع صوت بهية الأمر فوق الجميع.

حدثت استشارة غير عادية وسط الجموع عندما حضر كل من "صبحي" والحاج "على" سويا وأخذا يصافحان عبد الباسط بحرارة ملحوظة، كانا يودان أن يظهرا للجميع أن ثلاثين عاما من الخصام بين الأقرباء لا يجب أن يلتفت إليها. نوت بعد ذلك أصوات حادة صادرة من كلاكسات بعض السيارات دفعة واحدة، وحدثت جلبة غير عادية عندما رأوا عبد الباسط يندفع خارجا ليحيى شخصا ما، أخيرا حضر حضرة الراوى. فى التوقاده عبد الباسط وسط الجمهور. هو رجل أعمى، وجهه شاحب كأنما قد من شمع متموج، تحت لحية بيضاء مشعثة. ثم أجلسوه فوق مقعد خشبى خاص كان عبد الباسط قد نصبه سابقا ملتصقا بحائط المنزل، مزينا بحبل من المصابيح الكهربائية العارية ذات الضياء المبهر.

أمسك هذا الشيخ بالسلمية فى حجره، كذلك فعل رجل عجوز آخر جلس بجانبه، بينما تصاعدت صيحات الجمهور المتوقعة. بدأ الاثنان فى تجربة أوتارهما، من الأول صدرت نغمة حادة بينما من الآخر رتم أقل حدة. ثم حدثت جلبة عندما وصلت جماعة العازفين، حاملين معهم زماراتهم، الطبول، كمنجة، الناي ثم السنج، اتخذوا لهم مكانا خلفا لأنهم لن يمارسوا فنونهم إلا بعدما ينتهى الراوى من إنشاده.

الحاضرون جميعا يعرفون عن ظهر قلب تفاصيل القصة التى سوف يحكيها الراوى على مسامعهم، إنها ليست سوى المغامرة العجيبة

التي صادفت أبا زيد، وهو إعرابي أسود البشرة من قبيلة بنى هلال منذ زمن بعيد. هذا الرجل قضى طفولة عنيفة قتل فيها أستاذه في ساعة غضب، لكن هذه الحادثة تحكمت في كل مشاهد حياته التالية. في سن الحادية عشر قرر أبو زيد أن يذبح أباه، ظانا بالخطأ أنه يسعى في الفتك بقاتل أبيه !.

وقف شحات خلف المعازيم منتظرا أن يبدأ الراوى في إنشاد المقدمة التي تبدأ بحمد الله. عندما بدأ هذا في الإنشاد بصوته المرتعد الذى وضعه كر السنين، لكنه ما زال شجيا ومطربا، سكن المستمعون وأصاخوا السمع جيدا. لا يوجد أى نوع من التصنع الانتباهى الشديد الذى انصهر فيه هؤلاء الفلاحون، فهم مغرمون بالاستماع إلى تلك المقدمات. تلمظ فاروق وقبض بأسنانه على شفتيه الرطبتين ومال إلى الأمام قليلا بكل شغف واهتمام كأنما يود أن يزدرد الكلام بفمه، بينما خفض "لمعى" رأسه وأغمض عينيه كأنما هو فى رحاب صلاة الجمعة فى المسجد.

جلس الراوى العجوز وقد أرسى أصابعه العنكبوتية على السمسمية وعزف اللحن الابتدائى؛ ثم، بينما حل صمت بالغ حوله، بدأ فى نطق الأبيات الأولى المملوءة بدفء تعودوا عليه. بدا صوته مهترزا فى البداية، لكن استعاد قوته وجلاله بفعل إنصات الحاضرين.

له صوت رائع، بالرغم من أن وقع اللحن فيه تكرر لا ينتهى. تدريجيا بدأ مسار إنشاده يخشن كأنما هو يعبر مجرى ملاحيا من الأبيات المألوفة، واضعا فيها جماع أحاسيسه ومشاعره. أمكن لشحات أن يشاهد الرجال حوله وهم يهتزون طربا ويتجاوبون، أحدهم صاح متنهدا "الله، الله"، وحالا انتشرت تلك اللفظة بين الجمهور تند عنهم كلما نطق الرجل بببيت يعرفونه، أيضا انطلقت منهم جملا أخرى متنوعة تعبر عن الاستحسان والإعجاب مثل، "صوتك هائل"، "يا سلام، انت اللى فيهم"، كل هذا زاد من ثقة الراوى، لذا أخذ يلعلع بصوته العجوز.

يوم ربيعى، أنا واصحابى رحنا..

لما اتجمعوا الملوك فى جلسة أحكام..

السرد كان دراميا ومختلف التنوعات. كان الراوى يغير من لهجته وأسلوبه لكى يماثل المادة المروية. هو الآن يهدد، ثم يتوسل، وحين آخر يحتج، وفى أخرى يعاتب.

أصرخ لله - يا لطيف يا لطيف

أصلى للهِ القيوم، أصلى من أجلك يا نبينا الغالى

لا يدعو للدهشة أن تكون كل كلماته صحيحة، ففى القرى، نلاحظ أن الرواة والمعلمين المسلمين لهم مقدرة عجيبة فى الحفظ والتذكر؛ حتى شحات وهو طفل صغير حفظ تقريبا كل القرآن عن ظهر قلب.

الآن هو ينصت بكل إعجاب وهو يحملق من فوق رؤوس الحاضرين وقد تصاعدت إلى عنان السماء دفقات من الدخان المتموج الصادر من شيش المدخنين. كان هو فى حالة افتتان شامل من جراء صعود وهبوط أبيات الشعر المنطوق، ملك عليه كل انتباهه.

يعينك الله وتأخذ بتار الدم

وخيام الهلالية انت الى خربتها

بين فترة وأخرى من الشعر المرسل، تحدث إنصاة فيها لا يتحرك أحد أو حتى يهمس بكلمة، لكى تتاح له فرصة لأن يتمعن فيما حدث من جلائل الأمور فى ماضى الزمان. ثم غرس الراوى ذقنه فى صدره كأنما يود أن يستعيد قوته، وبكل لطف شبك أصابعه. أسرع عبد الباسط ليحضر له كوب شاي أو ماء مثلجا، ثم فى مرة أخرى، يرفع الراوى رأسه إلى الأعلى نحو نور لا يراه ويبدأ مرة أخرى فى الإنشاد.

ما أن حل منتصف الليل تقريبا، حتى اكتمل الجزء الأول من القصة، وسوف تستكمل على هيئة مسلسل يومية خلال الستة أيام الباقية من الحفل، حتى، كما يعلم الجميع، يجتمع شمل أبو زيد مع أمه وأبيه ويستمترون بعد ذلك فى البحث عن مرا ع جديدة ومغامرات مثيرة فى بلاد المغرب. انهمك الرجال فى تصفيق حاد، بعدها قاد شحات الرجل العجوز إلى داخل المنزل ليتعشى. تدفقت الدموع مدرارا

من عيني شحات؛ فهو مثل أبيه كان قد قربع كمية لا بأس بها من الخمر من قنينة ضخمة، هو الآن فى حال تأثر بالغ بما حكاه الراوى.

استراح الحاضرون، بينما دفعت البسط والكنب خلفا، ثم اتخذ الموسيقيون أماكنهم ليعزفوا. شحات والعزب حملا صناديق بها زجاجات العرقى من المنزل، فى الحال أحاط بهما الرجال وضغطوا حولهما بكل انفعال وأخذوا يصيحون محددين طلباتهم لدرجة أن شحات أحس كأن رأسه سوف تنفجر. ساد الجميع نشاط وهمة بالغة، أخذ الشباب فى تداول زجاجات الخمر فيما بينهم، بينما انهمك الكبار فى شد أنفاس الشيشة. الأطفال أخذوا فى الجرى هنا وهناك وهم ينطقون بأجزاء مما استمعوا إليه بانفعال بالغ، بينما انفجرت بين الجموع ضحكات خشنة ملعلة.

بعد دفعة من شرب الخمر، جلس الجميع لياكلوا. استمر الموسيقيون فى العزف، بينما انهمك الرجال فى الحديث والصياح. صوت النساء كان يلعلع داخل المنزل، بينما كان صياح الأطفال جنونيا، مما جعل المكان كله يبدو كأنه سراية المجانين.

عبد الباسط تجده فى كل مكان، يلف ويدور هنا وهناك، يحيى هذا ويحضن ذاك، يصب قدرا آخر من الخمر لصديق، يشعل سيجارة آخر، ييلع هو نفسه كأسا، ينادى على أم حامد لتلحقه بمدد من طعام حدث فيه نقص، يزاحم الجميع بكرشه الواسع، ينطق فى بهجة وسرور "الحمد لله،

الواد شحات رجعت ليه صحته، وانا لازم احتفل بالمناسبة دي، دا ولدى الغالى يا ناس!.

بعض الرجال، وقد بلغ بهم السكر حده الأعلى، انقضوا على أطباق أم حامد كالنسور، وقبضوا على كل ما تطوله أيديهم كأنما هم طيور جارحة والفريسة أمامهم، حتى أن البعض حشوا جيوبهم، فسمعة أم حامد فى طبخ كل ما هو طيب ولذيذ معروفة للجميع. لذا خلص الطعام كله. بعد ذلك أخلت الساحة، وكون الحاضرون دائرة كبرى امتدت من الحارة حتى الطريق العام، ثم واحدا تلو الآخر، قام الرجال للرقص. يتقدم الواحد فيهم بحركات بطيئة وهو يحرك شومته فوق رأسه فى حركات متناغمة لطيفة، ثم يخطو بخطوات واسعة انسيابية. بعد دقائق يظهر أحدهم داخل الدائرة وقد ربط قماشا يحيط بطنه ومؤخرته، فى الحال يسرع العازفون من وقع موسيقاهم، تنطلق المزامير فرحة مبهجة، يزقق الناي، تدق السنج بينما يهز الراقص مؤخرته ذهابا وإيابا ومن جانب إلى آخر وللأمام والخلف بأسلوب حسى متموج، ويبدأ الرجال فى الصياح، "الله، الله"، هذا يشجع الراقص فيزيد من حركاته.

بعض الرجال يتراقصون سويا، ويمثلون معارك وهمية فيما بينهم بعصيتهم. أما عبد الباسط فقد سكر تماما، أمسك فى يده بزجاجة من "البراندى الفرنساوى" وأخذ يهزها متابعاً دقات الطبول.

هذا المشروب ذو المذاق السيئ، لا يعلم سوى الله مما صنع، يعطل تماما ملكات كل من يشربه، بحيث يبدو عليه لاحقا أنه كمن قد أصيب بارتجاج فى المخ.

أزاحت الفتيات الصغيرات خمرهن لتظهر خلفها فساتين ذو ألوان فاقعة تتراوح ما بين اللون البرتقالى والأحمر الفاقع، ثم أخذن يتمايلن ويدقن كعوبهن فى المنجرة الأمامية. أحد أصدقاء شحات المدعو "التعبان" وهو شاب قوى البنية، بشرته بنية اللون، وقف يراقب الفتيات ويغیظهن قائلا، "والله، لاتجوز دى ودى ودى ! أنا حاغير واحدة كل أسبوع!"، أجابت الحسناء "بطة"، " ما ينفعش الكلام ده معنا يا شاطر، إحنا عندنا خطابنا. روح العب بعيد".

تنقلت أم حامد هنا وهناك يلفها اهتمام زائد وقلق وهى تشرف على النسوة العاملات فى المطبخ، لكن من الواضح أنها كانت راضية تماما لأن الطعام كان وفيرا ولذيذا ولن يجرو أحد من الجيران أن يعيب عليه. نظرا لعدم تواجد غرباء من خارج القرية، دعا عبد الباسط الفتيات ليخرجن خارجا ويرقصن. وافقت بعض الفتيات الجريئات أمثال بطة ودخلن وسط الدائرة متظاهرات أولا بالحشمة وقد غطين أنفسهن بالطرح السوداء، لكن وجوههن ظهرت بعد ذلك وقد ارتسمت عليها ابتسامات غنجة، وبعد لحظات، أخذن يدرن فى خطوات رتيبة سريعة. عندما أصر عبد الباسط على أن تنضم إليهن أم حامد،

أرخت هذه طرحتها على وجهها ورقصت بارتباك لفترة بسيطة، ثم وهى تنفجر ضاحكة خجلا، أسرع بالهروب إلى الداخل.

أصبح الوقت متأخرا ليلا، وتم قيادة الراوى إلى مكان نومه، لكن لا أحد يود أن يرحل إلى منزله. لم يعد الرجال بقادرين على تمييز ما أكلوه أو شربوه، ولا ما قيل أو قال. فقط عندما يخفت صوت الموسيقى قليلا، يسمع حينذاك جلبة صوت النساء الصادر من جهة المطبخ.

دخل فاروق حلقة الرقص وفى كل يد زجاجة بينما قبض بأسنانه على ثالثة، هذا أضاف إلى مقدار البهجة والانشراح السائدان، ثم سحب فاروق عبد الباسط إلى منتصف الدائرة وحزمه بقطعة من القماش. من داخل المنزل والساحة انطلقت همهمات تقول، "عبد الباسط بذاته حيرقص". راقب شحات أباه وهو يرقص ويتمايل بينما ارتسمت على شفتيه ابتسامة بلهاء سكرانة. أخذ عبد الباسط فى تحريك أردافه الثقيلة هنا وهناك وإلى الأمام والخلف ودق برجليه فى الأرض وشاهد أم حامد وهى ترمقه من داخل المنزل وقد تورد وجهه من السعادة. بعض الرجال تمايلوا على بعضهم بعضا منتشين وهم يضحكون ويصفقون قائلين، "يا عيني، عبد الباسط ولا الغازية فى أيامها".

رمشت عينا شحات، لقد كان يعاقر الخمر المختلفة بدون رابط أو نظام، الآن هو يرى والده أمامه كأنه شخصان ورأسه بدأت تسبح

فى الملكوت. بالكاد فهم ما المقصود عندما اندفع إليه شخص ما ليقول له إن والده ممسك بيد أم حامد ومتجهان الآن نحو صبحى والحاج على لى يقرروا صلحا رسميا. فى موجة من الشعور الطيب، ارتسمت ابتسامة عبيطة على وجه شحات وأخذ يتمايل أماما وخلفا، إلى أن أمسك بكتفيه شخص ما، إنه خاله أحمد. حاول شحات أن يركز نظره على وجه خاله الوسيم، لكن لاحظ أن وجه هذا قد اكتسى بآمارات غضب عات. وزعق فيه أحمد، "إذا انت اتكلمت مع الناس دى، أنا مش عارف حاعمل فيك إيه يا واد يا شحات!، إذا حاول أى واحد فيهم يتحدث معاك قول لى، وأنا حاقف معاك". ثم أخذ يزغد فى كتف شحات حتى كاد هذا أن يقع من طوله. إما العجوز يوسف، فهو لم يتطوح مثل غيره سكرًا، لكن العجيب أنه ثبت إحدى ساقيه فى الأرض بينما رفع الأخرى عاليًا فى الهواء، كان يستوقف كل من يمر عليه ممسكا بملابسه صارخا فى وجهه، "الحفلة دى اتكلفت على الأقل خمسين جنيه!".

وقف الحاج على أمام شحات وقد ارتسمت على وجهه ابتسامة مأكرة قانلا، "ليه يا شحات ما جتش تتحدث مع ولاد اعمامك، دا احنا بقينا خلاص زى السمن على العسل. اسأل كمان أبوك وامك!". ابتسم شحات ثم تجشأ بصوت عال وحاول أن يركز نظره الزائف على وجه الحاج على، لكن جفونه كأنما قدت من رصاص، بالكاد استطاع أن يبقى عينيه مفتوحتين وشعر بدوخة شديدة تتملكه، ثم رأى خاله أحمد

يقف خلف الحاج على وهو يهز رأسه بغضب، ويقول بصوت عال "لا، لا"
لذا حول الرجال أنظارهم نحوه.

تغير وجه الحاج على واكتسا بغضب جامح، لاحظ شحات عروق
جبهة الرجل وهى تنفر، ثم لاحظ أنه رجع للخلف قليلا ثم طوح ذراعه
وضرب شحات على خده بكل قوة. فوجئ شحات بهذه الصفعة، لذا وقع
دفعه واحدة وسط مجموعة من صناديق الخمر الفارغة، وسمع صوت
زجاج يتكسر. استرد شحات توازنه وأخذ يدعك خده وهو يتحرك أماما
وخلفا. قال وهو مطأطئ الرأس، "متشكرين يا عم". تفتت الحاج على
وهو يصرخ، "ما بتنطقش ليه يا واد، باقول لك روح دلوقتى وحب على
إيد عمك صبحى!". فتح شحات فمه، ثم أغلقه، ثم فتحه مرة أخرى وقد
سيطرت الخمر على كل حواسه، لذا تملك الحاج على غضبا عاتيا ورفع
ذراعه عاليا وضربه كفا للمرة الثانية، هنا تفجرت شعاعات من الضوء
فى رأس شحات، أخذت يداه تبحث عن أى شىء يمكن أن تقبض عليه،
لم تكن هذه سوى زجاجة خمر فارغة، لذا قام بسرعة ورفعها عاليا لكى
يهشمها فوق رأس الحاج على، إلا أن أحدهم أمسك بيده، ولم يكن هذا
سوى خاله أحمد. تجمهر الناس حولهم وأخذوا يتصايحون وتوقف
العازفون عن العزف، ثم اندفع عبد الباسط وسطهم ممسكا بكتف
شحات، "يا ابن الحمار، عايز تقتل الحاج على؟" ودفع شحات خلفا ففقد
هذا توازنه ووقع أرضا. أخذ شحات فى الحبو أرضا جامعا فى يديه

عددا من حبات الزلط وأخذ يحملق فى الجمع محذرا إياهم من أن يتدخلوا، ثم قام وأخذ يجرى فى عرض الطريق. كان يود أن يعثر على خاله، لكن هذا لم يعد له وجود. سمع صيحات تتابعه، لكنه أسرع جريا وترك خلفه المعبد ثم الفندق ثم عددا من المنازل ثم الجامع وبعده المعبر الذى يقع على التربة. بدأت كل كلاب القرية فى النباح، ما أن تخطى شحات حقل ذرة خلف منزل الحاج عبد المطلب، حتى اختبأ داخله وهو يلهث ويتلهف على النقاط أنفاسه. سمع أصواتا تقترب من مكانه، لكنها مع الوقت أصبحت خافتة ونادرة، لعل الرجال عادوا مرة أخرى إلى الحفل. بعد مرور وقت طويل، استطاع أن يميز صوت فاروق يقول، "يا ريت يا عبد الباسط تعمل لنا حفلة تانية زى دى ! يا سلام، أدى الليالى والا بلاش، لياالى انس صحيح". أخذ شحات يتنفس وهو يشعر بثقل يطبق على صدره، ثم وضع رأسه على الأرض الطينية الصلبة وأغمض عينيه، وفى الحال استغرق فى نوم عميق.

عندما استيقظ، كانت الشمس تفتersh وجهه. أخيرا عثر عليه "العزب" الذى أخبره بأن والده قضى الليل كله يبحث عنه، قيل أيضا إن أم حامد أخذت تبكى طوال الليل وإنها تشاجرت مع أبيه بسببه.

سويا، ذهب الصديقان إلى قهوة القرية ليشربا الشاي، بعض الأولاد الصغار شاهبوا شحات لذا أسرعوا ليخبروا عبد الباسط الذى حضر من فوره. أخذ هذا يحدث ابنه بكل لطف وأخبره بأن كل الأمور

سوف تستقر إذا قام من فوره وتوجه إلى الحاج على واعتذر له، لكن شحات أبى قبول هذا العرض، وأخبر أباه عما حدث فعلا وقال بلهجة كلها اتهام، "خالى أحمد راجل بحق وحقيق، إذا قال لى اعمل أى حاجة، أنفذها على طول". فى حالة شعوره بالعار لأنه باع أرضه، لم ينطق عبد الباسط بشئ عن الحاج على، لكنه توسل لابنه، "عايزك بس تعدى أسبوع الحفلة دى على خير ومن غير ما تعمل دوشة تانى".

بالكاد استطاعت أن تخفى أم حامد فرحتها بما فعله شحات أو أخوها ضد أبناء العم هؤلاء؛ لقد شعرت بإهانة بالغة عندما جرحها عبد الباسط لكى تقف أمامهما.

باقى أيام الحفل انقضى بنجاح منقطع النظير، الراوى العجوز، الذى نال استحسانا بالغا من مستمعيه، كان رائعا، وأداؤه أصبح مثار تعليق وفخار لعدة سنوات تالية. لم يحضر أحمد سوى فى الليلة الأخيرة، وعندما أتى احتفظ بمظهره العملى الجاد المعتاد، لكن عندما شاهد شحات، اختفى ذلك التعبير البارد وتورد وجهه قليلا ثم ضحك مرتبكا، ثم أتى لكى يقبض على كف شحات، لكن هذا سحب يده بسرعة قائلا، "أنا اتخانقت، لكن انت رحت فين؟ انت عايز منى إيه يا خال، عايزنى مثلا أدخل السجن؟". لفترة طويلة بعد ذلك، لم يتخاطب كل من الخال وابن الأخت.

الأب وأمثاله

طباع شحات الوعة وطرق معاملاته الخسنة لا تبعد عنه أصدقاءه، فكل واحد منهم له شهرة خاصة فى نوع معين من الشيطنة والتهور، فبالإضافة إلى "العزب"، هناك من أصدقائه المدعو "القط" وهو سجين سابق، أيضا هناك "عبد الرحمن" وهو شاب ضخم الجثة وعامل مجتهد مشهور عنه إلقاء النكات الفجة وامتناء ظهر المهور، ثم هناك أيضا "التعبان" وهو سليل قبيلة الحروب الشهيرة فى مجال سرقة مقابر المصريين القدماء والذين يعيشون وسط هذه المقابر فى قرية القرنة.

مثل شحات والعزب، نرى أن كلا من عبد الرحمن والتعبان يتمتعان ببنية قوية وعضلات مفتولة، فى كل تحركاتهم يلحظ المرء اتجاهاتهم الشيطانية التى يؤججها شبابهم الغض وهم على علم تام بما يملكونه من قوة واندفاع.

لكل من الأصدقاء الأربعة سمات متشابهة، مثل استدارة الكتف، حديثهم وهزلهم أعلى نبرة من غيرهم، يبدو دائما كما لو كانوا مقدمين

على عرض بعض الأعمال البارعة التي سوف تدهش الجميع. عندما يجتمعون سويا، فمن الأمور العادية تماما أن يبحثوا عن شيء يتعاركون بشأنه أو يتصاحكون بسببه. إنهم لا يخافون من شيء ولا يخلون من شيء. لعبد الرحمن نفس ذلك الملمح البدوي الذي يلتحف به شحات، بينما نلاحظ مثلا أن بشرة "التعبان" بنية غامقة، شعره متموج، شفتاه غليظتان وعظام وجهه بارزة، مما يؤكد أصوله الإفريقية.

الأربعة لا يفارقون بعضهم بعضا، كل واحد منهم قد يحضر أو يختفى لأيام وأسابيع، يتزوج ويخلف أولادا، يطارد النساء، يتشاجر مع والديه، يدخل في مشاحنات مع باقي القرويين، لكن فيما بينهم هم دائما لطفاء وسعداء وروحهم عالية، كل شيء بالنسبة إليهم يعتبر مسليا يدعو لإطلاق قهقهات تصل إلى عنان السماء.

كلهم في العشرينيات من العمر ما عدا "القط". إنه تعدى الثلاثين، هو عمر تجد فيه الفلاح وقد استقر في حياته يتجمع هو وزوجته وأولاده حول النار في الشتاء يتدفأون. في الحقيقة، دائما ما تجد القط في حالة بحث عن عروس جديدة. لقبه كاملا هو القط الجرجاوي، ليس هذا بالطبع اسمه الحقيقي، لكن يدل على البلد الذي نشأ فيه. لقد دخل السجن لأنه قتل جارا له في شجار دموي. عندما أفرج عنه، حضر إلى قرية بيراط واستقر فيها. سر جاذبية "القط" كانت مصدر توقعات متعددة، فهو قليل الحجم، أكتافه المستديرة دائما مسحوبة إلى الأمام

كما لو كان فى حالة مستمرة من الشعور بالبرد والصقيع، لذا أطلق عليه لقب "القط". مع ذلك، هو تزوج وطلق أربع مرات؛ كل زوجاته كن سمان وضخام ومقبولات. قيل إنهن كن يذرفن الدمع الهتون عندما يقوم بتطليقهن وتسريحهن. القط هو الوحيد ذو الحجم الضئيل بالمقارنة بأصدقائه الثلاثة الطوال القامة، لا يبرزهم سوى بضخامة حجم ذراعيه اللتين تدليتا من جانبيه كأنهما مخلبان عملاقان.

بعد انتهاء الحفل بوقت قليل، فى إحدى الليالى، ذهب كل من شحات، عبد الرحمن، العزب، التعبان والقط إلى القرنة ليحضروا زواجا جمسيا. دعى كل من عبد الباسط وأم حامد، لكنهما خجلا من الظهور هناك، فالكل يعلم أنهما منعا شحات من الزواج من سنية لأنها جمسية.

مع ذلك، رأى عبد الباسط أن تنتدب العائلة أحد أفرادها للذهاب، لذا أعلن، "ما فيش حد يروح غير شحات، لازم حد فينا يكون حاضر". لذلك أعطى شحات جنيهين، وأخبر ابنه بأن ينقط الموسيقيين بجنيه ويحتفظ بالآخر لينفقه على نفسه كما يشاء. دائما ما يبرز كرم عبد الباسط عندما يتعامل مع شحات، بل إنه لا يمانع أبدا أن يدخن ابنه فى حضوره - هذا الفعل لا يسمح به أبدا الآباء الآخرون فى القرية.

بتشجيع الآخرين، أنفق شحات الجنيهين بأكملهما على شرب عرقى البلح. ما أن حل منتصف الليل حتى كان الأصدقاء جميعا فى حالة سكر بين. كان حفل الزفاف هادئا رتيبا، لكن عندما حان الوقت

التقليدى لرحيل العروس إلى منزل زوجها، وقف سالم، وهو خال العروس، وطلب من الجميع الإنصات، ثم اعتذر بأنه بدلا من امتطاء العروس ظهر جمل أو حصان كالعادة، فإنها سوف تركب تاكسيا، وطالما أنه ليس متوفرا سوى سيارة واحدة، لذا لن يركب مع العروس سوى بعض من أهلها الأقربين. ثم أعلن سالم بصوت جهورى، "من فضلكم يا اخوانا، ما حدش يحاول يركب على رفارف التاكس، أنا عارف إن بعضكم سكران طينة، لكن كل واحد يحترم نفسه، عايزين الفرحة ده ينتهى على خير".

انطلق فى الهواء عديد من طلقات المسدسات والبنادق، ورجال وسط الجموع أخذوا يصفقون ويتصايحون. أصدقاء شحات اعتبروا أن ما نطق به سالم ما هو سوى إهانة بالغة موجهة إليهم، لذا أخذوا يلكرون شحات ليقوم ويحتج. وقف شحات متغصبا، لا يدرى ما الذى سوف ينطق به. الكل حملقوا فيه، "انت راجل قليل الذوق يا سالم، انت... انت... صحيح جمسى!". أخذ أصدقائه فى تلقينه خلفا وهم يجذبون ثيابه، "الناس لازم تحترم بعضها بعض، هو احنا جينا من نفسينا، مش انتو اللى دعوتونا. كلامك ده فيه إهانة لينا!". ما أن أحس شحات بأنه قد زودها حبتين، حتى جلس دفعة واحدة فى مكانه. جماعته الصغيرة أخذت تصفق له، لكن باقى المدعوين جلسوا عابسين، فالكل يعلم قصته مع سنية.

فى الواقع، لم ينتو سالم أن يمر هذا السلوك المعيب بدون عقاب، لذا التفت نحو شحات والغضب يغطى سحنته، "إيه الكلام قليل الأدب اللى بتخر بيه ده؟ انت مين عشان تتكلم أساسا؟ فين أبوك وامك؟ هما يعنى أحسن من مين عشان ما يحضروش فرحنا؟"، هوذا بعد تلك السنوات الطوال، يطفح على السطح كل ما كان يشعر به سالم من جراء نبذه لأنه تزوج من جمسية. وقف هناك وهو يرتعد من قمة رأسه إلى أخمص قدميه غير قادر على السيطرة على مشاعره، وأخذ يزعق فى شحات، "أبوك أكبر خمورجى فى البلد! كل الناس عارفين كده! دا ممكن يبيع شنبه عشان القمار، دا حتى باع أرضه عشان يسكر بفلوسها!".

حل صمت رهيب على الحاضرين، وقف شحات مرة أخرى، لكن فى هذه المرة لم يحاول أصدقائه أن يجلسوه، "متشكرين يا عم سالم، انت فى مقام أبويا، إذا كان هو راجل بطال يبقى انت زيه. إذا كان هو كويس يبقى انت كويس. دلوقتى اتهنوا بفرحك"، ثم استدار خلفا وترك المكان يتبعه أصدقائه الأربعة.

ما أن ابتعدوا قليلا وهم فى الطريق، أسروا لشحات بأنه لا يجب أن يبتلع تلك الإهانة، ثم أخذ كل من تعبان والقط فى رص سيل من الشتائم المنتقاة لسالم، بينما اقترح عبد الرحمن أن يسدوا الطريق بوضع عدد من الأحجار الضخمة فى طريق مسار السيارات.

وهم يترنحون سكرًا، أخذوا يكومون عدا من الأحجار فى عرض الطريق. عندما ظهرت أضواء السيارات على البعد، تجمع الأصدقاء الخمسة فى خندق منخفض بجوار الطريق وقد أمسك كل منهم بعدة زلطات فى يديه. ما أن اضطر السائق إلى التوقف بسبب الطريق المسدود، حتى أخذوا يمطرونه بالأحجار مما أدى إلى إصابة أخى العروس بجرح غائر فى جبهته جعلت الدماء تتدفق مدرارا منه. ما أن شاهد شحات هذا المنظر، حتى طلب من إخوانه أن يتوقفوا. بعض الرجال الذين كانوا حاضرين الفرح، سمعوا الجلبة، لذ أسرعوا بالمجئ والصراخ وقد تسلحوا بالمسدسات والشوم وبأى شىء تطوله أيديهم، لذا أسرع شحات وأصدقائه بالهرب فى جنح الظلام.

عندما وصلوا إلى حدود قريتهم، جلسوا بجوار الطريق المؤدى إلى المعبد. لمدة ساعة أخذوا يتذكرون ما حدث بأصوات متهدجة. عندما اقترب ضوء سيارة، تعرفوا عليها بأنها نفس تاكس العروس. هرب الجميع ما عدا شحات الذى وقف مكانه وقد لفه عند غريب منتظرا ما يمكن أن يحدث. ما أن رآه سالم، وكان عائدا هو وأبناؤه إلى بيراط، حتى أمر سائق التاكس بالوقوف وقفز منه ممسكا بيده البندقية الميرى، "فين ابن عبد الباسط الخمورجى ده؟"، فأجاب شحات الذى ما زال ملازما مكانه، "أنا هنا، عايز منى إيه؟"، "أسرع إليه سالم وزغده بمؤخرة البندقية فى صدره، "انت يا ابن الكلب، تتجراً وتشتمنا

فى فرحنأ؁ أنت فأكرف نفكك مین؟ دأ أنت لسه عیل أهبل؁ اللی زیک المفروض یحفر حفرة یندفن فیها هو وأهله".

تملك الخوف شحات؁ لكن یبدو أن ذهنه لم یصف بعد؁ لذا أمسك ببندقية سالم وأخذأ یتصارعان بشأئها. ما أن رأى ولدا سالم البالغان؁ وهما "سید" و "جمال" ما یحدث؁ حتى أسرعا بالوثوب من التاكس لنجدة والدهما. أحدهما خبط شحات بضربة قوية فى ظهره؁ وما أن اندفع هذا إلى الأمام؁ حتى عاجله الآخر بضربة قوية فى معدته. وقع شحات على الأرض ولاحقته الضربات الموجعة التى انهالت علیه كالمطر. أخذ الشابان یلکزانہ بأرجلهما فى أجنابه؁ بينما أخذ سالم یزعق وهو یزیح أبناءه بعيدا؁ واستطاع بعد جهد جهید أن یبعدهما حتى مكان وقوف التاكس. ثم عاد الرجل وسحب شحات إلى جانب الطريق وركب السيارة وغادروا المكان.

فى صباح الیوم التالى؁ كان وجه شحات عبارة عن كدمات وجروح غائرة؁ حكى لأبيه سردا درامیا جعل نفسه فیه هو وأصدقائه فى أفضل موقف؁ مما جعل عبد الباسط یشعر أن شرفه قد أهین؁ لذا أقسم أن یقتل سالم.

فى نفس الیوم؁ حضر سالم واقتحم منزل عبد الباسط؁ ویدون إزجاء التحيات المعتادة؁ قال؁ "أنا جاى فى سلام أهه؁ كفاية خناقات"؁ ثم بسرعة أخبر عبد الباسط عما حدث فعلا؁ وأخذ یروى لوالدى شحات كيف أن ابنهم بدأ بشتم كل الجسمیه الذین كانوا حاضرين العرس.

انهمرت فوراً عبارات الاعتذار من فم عبد الباسط مخبراً سالم،
"كل الخسائر اللى حصلت دى أنا مسئول عنها ولازم أعوضها. واللى
تؤمر بيه حاملة فى الواد الحمار ده". لأن سالم كان قد أعد نفسه جيداً
لهذه المواجهة، خرج فوراً من المنزل ليحضر العمدة والشيخ نوبى، وهو
جار محترم، كان قد أخبره بأن ينتظر بقرب الطريق. ما أن جلس
الجميع فى منزل عبد الباسط، حتى أسرع أم حامد بإعداد الشاي
للجميع بينما انهمك الكبار فى مناقشة موضوع الخناقة، وقرروا أن
يتحمل عبد الباسط مصروفات علاج أخى العروس، وأن على شحات
وأصدقائه أن يعرضوا ما أحدثوه من خسائر.

هذه الاتفاقات عالجت ما كان موضع اهتمام العمدة، لكن الشيخ
نوبى كان يشعر أن تقاليد القرية تستلزم أكثر من ذلك، لذا طلب أن
يحضر شحات ويقبل رأس سالم اعتذاراً. كان شحات فى الغرفة العليا
ينزعها جيئة وإياباً، عندما صعد عبد الباسط ليحضره. لكن هذا رفض
بكل إباء وشمم، لذا انفجر فيه الأب، "يا ابن الكلب، انت عايز تجرسنى
قدام الرجالة؟ دول بيقولوا إنى قمترتى وخمورجى وانى بعت أرضى اللى
ورثتها، وانى أنا مش راجل. انت لازم تحب على راس سالم!". عندما
رفض شحات بكل العناد، صفعه عبد الباسط بقلم فوق صدغه.

أخذ شحات يغالب دموعه، بينما خذه يغلى من قوة الضربة. أخيراً
رضخ ونزل مع والده. لم يلاحظ أحد أن شحات تعتمد أن يبعد شفتيه

بمقدار وهو يقبل قمة عمة سالم سوى الشيخ نوبى، لكن عندما أبدى العمة ارتياحه، لأنه كان راغبا فى إنهاء هذا الموضوع سريعا، لم يعلق. عندما رأى سالم شحات وهو مقبل نحوه ليؤدى مراسم الاعتذار، أبعد رأسه قليلا، محتجا بأسلوب أبوى، "لا. لا يا شحات! انت ولد صغير، أنا مش قلت لكم انكم لسه عيال تحفروا حفرة وأبهاكم تقع فيها؟ جدودنا عاشوا فى سلام مع جدودكم فى بلدنا دى. نفسى يا ولدى ما تشربش كتير زى اللى حصل فى الليلة اللى فاتت. أبوك يقدر يشرب بحر النيل بحاله وما يحصلهوش حاجة، لكن العرقى بيخرب عقولكم انتوا يا صغيرين".

كل من عبد الباسط وسالم لم يقدرنا جيدا حاسة الثأر التى تؤججها الدماء البدوية التى تسرى فى عروق شحات، لقد أحس بأن الإهانة التى لحقت بأبيه لن تفوت بدون رد مناسب. إنه يقبل انهماك والده فى الشرب والقمار، لكن بيع الأرض هو أمر آخر. لقد شعر أن أباه قد لحقته إهانة عظمية لن يمحوها سوى الانتقام.

فى صباح يوم، كان شحات يحرق جزءا من أرضهم فى سنباط، ويبعد هذا المكان حوالى ميل من منزلهم، عندما شاهد جمال بن سالم وهو يسير بجوار التربة، خاطبه، "فين أبوك يا جمال؟" فأجاب هذا، "مين عايزه؟ دا راح الأقصر" فأضاف شحات، "طاب تعالى اقعد معايا نشرب كباية شاي".

تابع جمال شحات واتجها نحو خص فاروق. هذا الخص يكون غالبا خاليا ما بين فترة حصاد وأخرى. ما أن دخل جمال حتى هجم عليه شحات وأوقعه أرضا ثم أوثق يديه ورجليه بالقيود وكمم فمه لكي لا يصرخ. أخبره شحات، "إوعى تحاول تهرب أو تنادى على حد. أنا مش حائك". توجه شحات إلى منزله وأحضر طعاما وملا قلة بالماء، وقال لأهله بأنه سوف يقضى الليلة فى قرية الكوم، ثم رجع سريعا إلى الخص وجلس بجوار ضحيته قائلا له، "خللى ابوك يدور عليك يوم والا يومين".

عندما لم يعد جمال هذه الليلة إلى منزله، ركب الهم زوجة سالم وطلبت من زوجها أن يخبر العمدة. إنها تعلم بما حدث سابقا وتخشى أن يصنع بهم شحات سوءا. زعق فيها سالم، "اقفلى خشمك يا حرمة، وما تنطقيش بحرف لأى بنى آدم".

ذهب سالم إلى عبد الباسط وأخبره بما حدث، استمع هذا للقصة مبهورا، ثم كان رده، "ما تزودش كلمة، الضهرية انهاردة حيكون جمال فى بيته". بعدها وافق سالم أن يعود لبيته وينتظر.

جلس عبد الباسط واحتسى زجاجة عرقى بأكملها، ثم جرع زجاجة أخرى. لم يخبر أم حامد بشيء، إنما استحم وارتدى جلابية بيضاء، ثم جلس على كنبه فى المندرة الأمامية وأخذ يحملق فى الحائط المقابل له. استفسرت منه أم حامد عما يشغل باله، فغمغم قائلا، "إذا اتطلقنا من بعض، يبقى ابنك هو السبب".

كان يعلم أن هناك مكانين أو ثلاثة يمكن أن يعثر فيهما على شحات وجمال إذا لم يكونا في قلب الصحراء الشاسعة. لذا وصل الخص في آخر عملية بحث، لكنه كان في حالة سكر بين، لا سيما أنه توقف وهو في طريقه في قهوة عبد اللاه واحتسى زجاجتين أخريين.

وجد شحات نائما بينما جمال مربوطا ومكمما بجواره، لذا بادر بفك قيود جمال وأخبره أن ينتظر خارجا. التفت مرة أخرى ناحية ابنه الذي استيقظ الآن وقد ثبت ناظريه نحو والده. وضع عبد الباسط قدمه فوق رقبة شحات، "خليت رقبتى زى السمسمه، ما اقدرش دلوقتى أورى وشى لحد"، ثم زعق فيه بقلب مكلوم، "أنا مصيرى أقتلك يا شحات".

استدار عبد الباسط خارجا، لا يدرى أنه يخاطب ابنه للمرة الأخيرة في حياته، واصطحب جمال معه إلى بيت سالم، الذى ما أن شاهدهما حتى اغرورقت عيناه بالدموع وعانق عبد الباسط. الدموع التى ذرفها سالم لم تكن بسبب عودة ابنه سالما، لكن كانت بسبب منظر عبد الباسط الذى بدا أمامه كشبح متهاك. عندما عاد عبد الباسط إلى سنباط، كان شحات قد اختفى.

لعدة أيام تالية، لم يعلم أحد بما جرى لشحات، إنهم لا يدرون أنه كمأخوذ، راح يتجول فى الصحراء هنا وهناك بلا طعام أو زاد. فى الفجر بعد يومين، عندما نزلت سماح لتوقد النار، استطاعت بجهد جهيد

أن تكتم صرختها عندما وجدت شحات راكعا على الأرض فى ركن من المخزن وهو يعبئ جوالا بالحبوب. كان وجهه قذرا يغطيه الغبار وعيناه حمراوين غائرتين. حدج أخته بضراعة، وهمس بجنون، "إوعى تقولى لحد، إنتى لا شفتى الجمل..". فهمست سماح، "ولا الجمال"، أضاف شحات، "باقولك إيه يا سماح، هاتى هنا غنمة، إذا حد سالك، قولى الغنمة دخلت بالليل وأكلت القمح"، ثم حضنها وهو يقول، "مع السلامة يا اختى"، ثم وضع الجوال فوق كتفه وغادر المنزل.

عندما استيقظت أم حامد ونزلت، لم تخذعها رواية سماح، وبدأت تنهه، "يا واحد أحد، خلاص مش قادرة يا ربى"، ثم استدعت عبد الباسط ليرى بنفسه كيف أن شحات قد سرق الغلة، واستمرت فى النهة قائلة، "باقولك إيه يا راجلى، يا انا يا شحات فى البيت ده، لا ابنى ولا حتى أعرفه". لم يصدقها عبد الباسط، لذا صرخ فى وجهها، "يا بنت الكلب، شحات عمره ما يسرق حاجة من بيت أبوه"، لكنه اكتشف بعد ذلك أن القصة ربما تكون حقيقية، لذا التفت غاضبا نحوها، "إنتى السبب ! سبتيله الحبل على الغارب، حيعيش شحات ازاي دلوقتى، يجيب فلوس منين؟ وازاي حياكل؟".

أخذ عبد الباسط فى لوم نفسه، عندما علم أن أحد جيرانه مسافر للقاهرة، أعطاه خمسة عشر جنيها متوسلا إليه أن يبحث عن شحات ويسلمه هذه النقود ليعود بها إلى منزله. كانت هناك قهوة يرتادها

المسافرون إلى القاهرة من أهالى القرنة أو بيراط، وربما ذهب إليها شحات، لكن الأيام مرت ولم يسمع عنه أى أخبار.

فى صباح يوم، عندما حاول عبد الباسط أن يخلق ذقنه، لاحظ أن يده بالكاد قادرة أن تمسك بالموس، عندما توجه ليخبر أم حامد عن هذه المعضلة، صدر الكلام من فمه متلعثما، بالكاد استطاعت فهم ما يريد قوله. صممت أن تحضر له طبيبا من الأقصر، لكنه شعر بتحسن وأخبرها متحشرجا أنه أفضل الآن.

خرج من منزله متجها نحو الطريق، لكنه لاحظ أنه يتأرجح فى مشيته وأن خطواته أصبحت غير منتظمة، استدار نحو منزله وهو ينتوى أن يطلب المعونة من أم حامد، ثم حلت النقطة الثانية التى زلزلت جسده كله؛ وبذل جهدا خارقا ليتنفس القليل من الهواء، ثم تمايل هنا وهناك ووقع على الأرض. هنا رآته سماح وأطلقت صرخات متتابة.

حملوه إلى كنبه المندرة الامامية، أفاق لكن الصوت بالكاد يصدر من حنجرتة. لم يعد قادرا على تحريك أى جزء من جانبه الأيسر. أرسلوا للشيخة "داية"، وآخر أحضر بعض المشايخ من قرية الكوم، ما أن حضر هؤلاء حتى انهمكوا جميعا فى تلاوة أجزاء من القرآن الكريم فوق رأسه طوال هذا اليوم وكذلك صباح اليوم التالى، أخذت أم حامد فى ممارسة الصلاة بطريقة لم تعهدها من قبل. فى وقت الظهيرة، حملوه إلى العبارة ليذهبوا به إلى مستشفى الأقصر. بعد فحص دقيق،

صرح الطبيب بأن هناك القليل الذى يمكن عمله. حاول عبد الباسط أن يبتسم فى وجه زوجته، لكن نصف وجهه كان قد تعرض للشلل، لذا أصبحت الابتسامة نوعاً من التكشيرة. أخبرها بهدوء بصوت متلعثم، "أنا حاموت، الحمد لله"، وطلب منهم أن يعيدوه إلى منزله. هناك حموه وألبسوه ملابس نظيفة، ثم تلى صلواته، فى النهاية طلب أن يشرب قليلاً من ماء النيل. تجمع جيرانه من الرجال على الباب وهم يصيحون، "لا إله إلا الله، ارحمنا يا ارحم الراحمين"، أما النسوة فقد تجمعن على السلام وابتدأن فى الصراخ والعيول والعديد. عدلت أم حامد وجهه ليقابل القبلة، ثم أغمضت عينيه بينما شفته تنطق بالدعاء الأخير، "إنّا لله وإنا إليه لراجعون، لا إله إلا الله، محمد رسول الله"، ثم... مات.

صرخت أم حامد ثم صرخت. لم يظن أحد أن هذه السيدة ضئيلة الحجم من الممكن أن يصدر منها هذا الحجم الهائل من الصراخ. كان صراخاً مرعباً، كل القرية سمعته، فى الوقت الذى لحقت بها الجارات، كانت هى تمزق وجهها، صدرها، جلدها بدون أى اهتمام. أخذت النسوة فى التدفق بخفة فوق الدرج وما أن يدخلن الغرفة حتى يند من كل واحدة منهن صرخة ثاقبة.

ارتج المنزل من صرخاتهن، لكن صرخات أم حامد تفوقت عليهن جميعاً. استخدمت بهية كل قواها لتمسك بها وتمنعها من إيذاء نفسها، لكن هى كانت تستبسل لتفلت منهن. هدموها تمزقت وأصبحت هلاهيل

وغطى وجهها الهباب. التفت النسوة حول جثمان عبد الباسط الساكن
وهن لا يتوقفن عن إصدار صرخاتهن الموجهة، البعض منهن أخذن فى
قرع صدورهن قائلات، "يا خسارتك يا اخونا يا خسارتك"، والبعض
منهن أخذن فى ضرب وجوههن وهن يتلوين ويدرن طالبات من الميت أن
يقوم من رقدته!.

غيروا ملابس الميت. غطوا وجهه بملاءة. أم حامد بسطت يديها
نحو جسده، بينما أمسكت بها النسوة ليبعدوها عنه، وبدأت تنادى، "قوم
يا غالى، يا سيدى، يا جملى، يا حامينى. قوم يا حياتى". بكأوا وعديد
النسوة أثر فى كل القرية. أقفل الحاج عبد المطلب باب محله بكل عنف،
قام الرجال مسرعين هاجرين القهوة وهم يبعثرون الزجاجات والأقداح
هنا وهناك. العزب وضع جلبابه فوق رأسه وجرى نحو المنزل حافيا.
فى الحقول، ترك الرجال أعمالهم وأسرعوا بالذهاب إلى المنزل. تجمع
الكل أمام الساحة التى أمام المنزل وهم يتصايحون ويخبطون أكفهم
وقد تغيرت ملامح وجوههم ويصيحون، "الله يرحمه، الله يرحمه، ويسكنه
فسيح جناته". أتى فاروق، لكنه غادر سريعا، بعدها وجدوه ملقيا على
وجهه فى الحقل وهو سكران طينة. أبناء العم وهما صبحى والحاج على
بالغا فى إبداء مظاهر الحزن، كأنما العويل الصادق يمكن أن يزيل
تماما سنوات عدة من الخصام. أحمد وقد اكتسى وجهه الوسيم حزنا
حقيقيا، أتى متأخرا ووقف مستندا على حائط مذهولا عما يجرى

من حوله. بعض النسوة هدهم التعب، "فتنة" أخت عبد الباسط الكبرى،
وهى عمياء تقريبا، أغمى عليها وحملوها خارجا.

فى الصباح الباكر، أتى المغسلون، وهما اثنان من قرية الكوم
واللذان سوف يأخذان ثياب المرحوم كأجر لهما. أحضر الحاج
على كفنا من البوبلين الأبيض. وكلما اشتعلت مشاعر الرجال بسبب
العويل الثاقب الصادر من النسوة وأم حامد، يقوم هو ويوزع السجائر
على الحاضرين.

لم تحتل سماح المناظر التى تراها فى الطابق العلوى- حملكة
أما التائهة عن الوجود، الصوت الصادر من لمبة الجاز، حفيف قطعة
الإسفنج فى الماء الصابونى الساخن، خريشة موس الحلاقة، لذا سحبت
أمامها الولدين الصغيرين نوبى وأحمد بعيدا عن هذا المنظر المفجع. لكن
حتى فى الطابق الأرضى، كان فى إمكانها أن تستمع لصوت الماء
الجارى وصوت الجسد وهم يقلبونه على العارضة الخشبية العارية، لذا
غطت أذنيها وأغمضت عينيها بكل ما أوتيت من قوة.

أخيرا وبعد تغسيل جسد عبد الباسط وضمخه بالكافور وماء الورد
ووضع قطع من القطن فى أذنيه وأنفه؛ ربطت أعقابها ووضعت يداها
متعارضتين فوق صدره، أخيرا رقد مستسلما وسط أكفانه البيضاء.
لم يتبق سوى أن يشعشع نور الصباح كاملا لكى يدفنوه. أم حامد
- وقد أنهكت تماما - بدت كأنها شبح فى ملابسها المستعارة ووجهها

المغطى بالسواد وشعرها الممزق - أخذت تشهق وهي ما زالت بين أحضان بهية. سمع صوت المشايخ فى الأسفل وهم يرتلون القرآن الكريم بصوت متهدج يمدحون ويحمدون الله. الفجر لم يشعشع بعد، لكن فى المشارق بدت السماء تنير قليلا قليلا، وبدأ كل شىء واضح الملامح ولو بشكل غامض.

سمعت جلبة فى الطريق، أصوات الترتيل والعيول اتحدت جميعا فى نغمة واحدة. قادوه، بل جروه، تقريبا حملوه، كأنما هو رجل أعمى عاجز عن المسير، ليس أحد بقادر أن يحملق فى وجهه - كل ملامحه قدت من ألم وعذاب وتعب مضى - مظهره ينبئ بأقسى حالات الفشل الإنسانى. جروه بل حملوه إلى الطابق الأعلى حيث توقف للحظات متأملا وجه أبيه؛ ثم ارتمى على ركبتيه لتتلقفه يدا أمه التى تبكى الآن بكل حنية وهدوء.

الجزء الثاني

"انت خلاص عايز تخنقنى وتطلع روحى؟

يا رب

من فضلك، فكها شوية"

(شدو فلاح مصرى وهو فى الغيط)

الحياة المعتادة تأخذ مجراها

الحياة، ممائلة لجرى مياه النيل، تبدأ صغيرة أولا ثم تندفع كالسيل من فوق الجبال، وتتلمس طريقها الصعب خلال هضاب الصحراء والوديان والرمال، تهدأ عندما تتقابل مع الجنادل والصخور القاسية، ثم تستقر مطمئنة وهى تشق طريقها بكل نعومة لتغذى الوادى الخصيب، حتى تصب فى النهاية فى البحر الكبير.

شحات، مدفوعا بذكرى والده، حزن أم حامد، عتاب أحمد، توقعات الجيران وآماله التى تفور داخله، كلها تفاعلت ليصبح رجلا كما كان يرغب والده. فى الأسابيع الأولى بعد وفاة والده، بدا كأنه خاطئ يبحث عن الخلاص، لذا أجهد نفسه فى عمل جاد مجهود. كان يصحو كل يوم قبل الفجر، يذهب ومعه حماره إلى النيل، وباستخدام المعديعة يعبر النهر متجها إلى الأقصر لى يشتري الخضروات من هناك وكذلك عرقى البلح وحلويات مختلفة ليبيعه فى دكان والده. ثم يعود لىباشر خدمة أرضه فى الثامنة صباحا. بعد الظهر يقضيه فى تصنيع الكنافة، وهى من المعجنات التى تستخدم كنوع من الحلوى فى شهر رمضان،

ويسويها مستخدما فرنا مفتوحا تحت لهيب الشمس المحرقة. فى المغربية تجده ذاهبا إلى الحقل مرة أخرى ليحصد علف الحيوانات. إنه الآن لا يشرب الخمر، لا يدخن، لا يطلق النكات، وحتى لا يتكلم كثيرا. فى تلك الأسابيع أصبح إنسانا وحيدا هادئا يسير مرتديا جلبابه الأسود دليلا على حزنه، يعمل حافيا، غير حليق الذقن، وقد بدا أرفع عودا وخدوده ضامرة. عندما استمر فى مسيرته تلك، مع تمسكه بصيام شهر رمضان، حيث لا يمكن للمسلم أن يأكل أو يشرب من فجر اليوم حتى مغيب شمس النهار. الكل كان مندهشا، قالوا فى أنفسهم إن شحات قد أصبح أخيرا رجلا بحق وحقيق.

نادرا ما كان يخاطب أمه. بالنسبة لأم حامد أصبحت الحياة كأنما قد شارفت على نهايتها، كل ما كانت تتمناه هو أن تزور الكعبة قبلما تموت. إنها الآن لا تذهب لأى مكان. تقضى صباحها فى العديد بصوت عال كله حزن وأسى. كان ما يشغل فكرها هو أن تؤدى ما عليها من واجبات نحو المرحوم زوجها، هى احتفالات تتم فى اليوم السابع للوفاة، الأربعين، ثم المائة، يتبعها بعد ذلك احتفالا رئيسيا نهائيا بعد تمام عام كامل. هذه العادات متفقة تماما مع الطقوس الفرعونية، لكن اتخذت شكلا إسلاميا من ذكر وصلوات. التكاليف كانت ضخمة، ولأن الأرض التى يملكونها فى سنباط كانت باسمها، لذا أمكن لأم حامد أن تستدين ثلاثمائة جنيه وقالت بأنها سوف تسدها بعد جنى محصول القصب -

هذا المبلغ يعادل إنفاق عام كامل، وبهذا أصبحت العائلة تحت طائلة الديون.

فى حفل الذكر، يتجمع أربعون شيخا ودرويشا ومنشدا- معظمهم ملتحمون آتون من قرية الكوم- أمام المنزل ينشدون الذكر من أجل أن تستريح روح عبد الباسط، يحدث هذا طوال الأمسيات وجزءا كبيرا من الليل. ساعة بعد أخرى، يستمرون بلا كلل أو نصب، ينشدون بصوت عال وبنبرة سريعة، فى دندنة وتعزيم، أحيانا ينخفض الرتم ليصبح على شكل مناجاة ثم يرتفع ليصبح نوعا من الهستيريا الزاعقة. مثل هذا الذكر يمكن أن يقام بسبب أى مناسبة دينية مثل الذهاب أو العودة من الحج، لكن كثيرا ما يحدث كشعيرة تختص بالموتى.

"يا الله بارك على سيدنا محمد بين السالفين، بارك على سيدنا محمد بين اللاحقين، بارك على سيدنا محمد فى كل مكان وزمان، بارك على سيدنا محمد بين النبيين العظام يوم الدين..."

كلما عمقت الليلة فى مسيرتها، تزداد بالتالى سرعة نطق الكلمات، ويبدأ الشيوخ أولا فى الهززة أماما وخلفا، أيديهم وأكتافهم تهتز إلى أعلى وأسفل فى تناسق مع رتم ترتيلهم، "لا إله إلا الله... لا إله إلا الله...", أحيانا يتحرك أحد الشيوخ الصغار وسط الصفين المتقابلين من الرجال، ثم يبدأ الآخرون فى تحريك رؤوسهم بسرعة ذات اليمين وذات اليسار مع كل لفظة تنطق سريعا بجملة، "لا إله إلا الله"، الرجل المستقر

فى الوسط ىرمى بذراعيه حوله ويحول وجهه فى كل الاتجاهات، مرة نحو الأرض وأخرى نحو السماء، ليصل بعد فترة إلى نوع من الوجد والانسجام الدينى العميق، يصبح وجهه متوردا، بشرته تغرق فى عرق غزير، عضلات رقبتة تنفر وتبدو كأنها حبال عندما يزعق فجأة بصوت مرتفع للغاية، لتصبح صرخة خارقة، "الله، الله، الله، لا، لا، لا.."، ثم ينادى "يا أمى، أمى، أمى" ويكررها مرارا، ثم "يا خالى، يا عمى!" بعد فترة يهدأ صوته وبالكاد يسمع، ثم يتلوى ويبدأ فى الوقوع على الأرض، حينئذ يندفع شيخ آخر ليمسك به بينما يبدأ الزبد فى التدفق من فمه وتغض عيناه وتختلج ذراعه، هنا يبدأ كل الشيوخ فى الانتفاض بشكل سريع وقد ازدادت درجة حماسهم وهم يأرجحون رؤوسهم خلفا وأماما. عندما ينضم إليهم شحات، فإنه ينزاح وينسجم تماما داخل نطاق هذا الوجد العاطفى، يأخذ فى أرجحة رأسه وكتفيه فى كل جانب، العرق يغمره، وجلبابه السائب يطير فى اتجاهات مختلفة حوله، يتوحد كل كيانه مع هؤلاء المشايخ المنشدين، يتخيل أباه وهو يسرع الخطى فوق الصراط المستقيم، وهو المعبر الذى يقع فوق منتصف نار جهنم، هو أدق من شعرة الرأس وأحد من شفرة السيف. الخطاة أمثال شحات وأقرانه ربما يزلون ويسقطون فى مزيج من النار الملهبة والثلج!، هناك سوف يصرخون وسط سيل لا ينتهى من الضرب والتعذيب حتى تغفر ذنوبهم؛ أما الرجال الصالحون أمثال أبيه، فإنه تأكيدا سوف يردون الجنة فى التو واللحظة.

شحات وقد تشبع بمعتقدات إسلام العصور الوسطى، صورت له الجنة فى ضوء ذهبى مشع؛ هو يتخيل وجود ينابيع براققة، أنهار يانعة، فواكه وخضروات ناعمة، فتيات بعيون مثل عيون المها.

لقد وعد القرآن، حتى بالنسبة لأقل الناس منزلة فى الجنة بثمانية آلاف خادم واثنين وسبعين حورية، وخيام من اللؤلؤ والمرجان والياقوت، وأقداح من الذهب الخالص، والاستماع إلى أغان ينشدها الملاك إسرافيل - أما بالنسبة للمباركين من الناس، فإنهم يتمتعون بكل المتع الروحية العليا من الصباح إلى المساء، بل ويتاح لهم رؤية الله سبحانه وتعالى وقد أشع وجهه حتى يصبح النظر إليه كأنما تحمق فى قرص الشمس^(*).

يؤمن شحات بأن مصيره سيكون أسفل سافلين فى النار السابعة، يضربه مختصون بالعقاب، هما ناكرون وكير. هو يتقبل مصيره ذاك، لكن أباه هو رجل فاضل بالرغم من انهماكه أثناء حياته فى الشرب والقمار، هو يؤمن بأنه لو عقد من أجله عددا كافيا من جلسات الذكر، فإن فرصته ستكون عظيمة لأن يرد الجنة ويتمتع بما فيها، وليس على شحات أو أم حامد أن يغمطوا حق عبد الباسط، حتى لو أنفقوا كل ما يمتلكونه من متاع.

حزنهم البالغ أثر فى الجميع. ابن العم صبحى، صاحب اللوكاندة شعر بندم وتقرع للضمير، تبرع أن يشتري جاموسة صغيرة لأم حامد قائلا، "إننى تاخدى لبنها بالليل وعيالها لما ييجوا، وأنا أخذ لبن الصبحية

(*) هذا هو فهم المؤلف لما ورد فى القرآن الكريم من آيات تتصل بوصف الجنة ونعيمها .

لعيالى واللوكاندا". ووعد بأنه إذا قام شحات بتغذية الجاموسة لمدة عام، فإن نصف الجاموسة سوف يؤول لأم حامد، ولأن الجاموسة يمكن أن تعيش ثلاثين عاما، إذن من الممكن أن تخلف عشرين رضيعا، لذا لم يذكر فى محضر كلامه أى شىء يختص ببيع النتائج.

صدمت أم حامد، ووقفت أمامه بعيون غائرة متعبة، بدت كأنها شبح بالمقارنة بماضى أيامها، ردت على كرمه بقولها، "لكن الناس حتقول إيه؟". أجاب صبحى، "ولا حاجة، هو انتى بترقصى والا ماسكة صاجات". سمع الأطفال سماح ونوبى وأحمد بتلك الأخبار وشعروا بسعادة بالغة وحلموا بحصولهم على اللبن كل يوم، اخذوا يتضحكون ويتغامزون إلى أن أسكتتهم أم حامد بعنف، "ازاى تضحكوا يا قلات الأدب قدام الجيران، حيقولوا إيه عنا، مش ابوكم ده هو اللى مات؟".

غضب شحات عندما سمع بهذا العرض، "أنا مش حاحش ليها علف، انشالله تموت، ما اخدش إحسان من حد". وافقته الأم قائلة، "فعلا دا كلام فارغ، الراجل يموت وعيلته تجيلها جاموسة؟". لكن طبيعتها العملية تغلبت أخيرا. عندما أحضر صبحى الجاموسة إلى المنزل، توصلت لشحات بأن لا ينطق بشىء، "من فضلك يا ولدى، صبحى ده زى الشمعة اللى نورت لنا فى الضلمة، هو مبسوط وفرحان وييعمل دا كله عشان فاكرك أبوك".

كرم صبحى لم يدم سوى إلى مدى ذهابه للسوق، هناك اشترى أرخص جاموسة معروضة للبيع. ما أن شاهد خيبة الأمل المرسومة

على وجه أم حامد، حتى هز كتفيه قائلا، "بصى، خليها فى بيتك،
واعملى من الختا بتاعها جلة تخبرى بيها، إذا ماتت أنا بنفسى حارميها
فى الصحرا".

لكن الحاج على لم يعان من أى تأنيب للضمير، لأنه بادر وطلب
من أم حامد تسديد كل ما أنفقه على شراء كفن المرحوم وكذلك ثمن
السجائر التى وزعها بكرم على المعزين، لكن عندما ذكرته بأنه ما زال لدينا
لهم بمبلغ سبعين جنيها، ثمن حبوب كان قد اشتراها من عبد الباسط،
أخبرها بأن لا تفكر بتاتا فى هذا الموضوع، وأنه متبرع بأن يساعدها
فى عمل إجراءات لمنحها معاشا من الحكومة يساوى عشر مرات ما هو
مدين به. لكن أم حامد من الناس الذين يصعب خداعهم، لذا أخبرت
شحات، "الحاج على ده راجل مكار وزى الحية". لكن خيالاتها
الرومانتيكية كانت فى حاجة إلى أقل القليل من التشجيع والمساندة،
لذا تمسكت بموضوع المعاش هذا واعتبرته كمخرج مناسب تستطيع
فى حالة حدوثه أن تحقق كل آمالها، لا سيما موضوع حجها لمكة.

بعد مرور زمن، لم يتطرق الحاج على لموضوع المعاش مرة أخرى،
ذكرته به يوما، فانتفض فى ضيق مخبرا إياها، "الحرمة لازم تبلى
لسانها! بطلى لت وعجن"، لكنها ردت بصوت هادئ، "أنا ما يهمنى
الفلوس، لكن دلوقتى عيسد الباسط عند رب كريم، وانت دلوقتى أبونا
يا حاج على. أروح لمن يساعدى أنا وعيالى الصغيرين نوبى وأحمد؟

إذا احتاجوا أكل والا شرب. إيه رأيك أبعثهم بيتك يا حاج على ياكلوا عندك؟". فانتفجر الحاج على، "لا يا اختى، أنا مش أبوحد. ما اعرفكيش، اعملى اللى انتى عايزاه".

خجلت أم حامد من نفسها لأنها وثقت فيه وأخبرت شحات بعد ذلك، "أنا كنت عارفة من الأول إن الحاج على ده ابن كلب، لكن ما صدقتش روى. أروح لمين بس دلوقتى يا ولدى؟".

أصبحت العائلة بعد ذلك وحيدة فى أحزانها، واستمرت الحياة فى مسارها المعتاد فى القرية، وبدأت فى شدهم بلا توقف لينخرطوا وينتظموا فى شئونها.

بعد شهرين من وفاة عبد الباسط، حدث أمر مثير، فقد وجد فاروق فى خصه صباح يوم وقد ضرب ضربا موجعا، لذا أخذه للمستشفى فى الأقصر، لكن لأيام عدة منع من أن يراه أى إنسان، كان معلوما أن شحات قد ارتاد هذا الخص فى اليوم السابق، وحدث همس مفاده بأنه ربما حاول شحات أن يقتل فاروق فى إحدى اندفاعاته الغاضبة، ربما تجرأ فاروق وسب والد شحات بطريقته العفوية. كل هذه الهمسات أقلقت أم حامد، لذا سألت ابنها، "انت اللى ضربت فاروق وعدمته العافية". مثل هذه الاتهامات تغضب شحات وتخرجه من شعوره، هو كان قد غادر الخص مبكرا، وموضوع الضرب هذا يعتبر لغزا حتى بالنسبة له، لذا رفض بكل إباء وشمم أن يناقش هذا الموضوع مع أى إنسان.

بعد عدة أيام، أصبح فى مقدور فاروق أن يتكلم. ذهب العمدة لزيارته، ما أن شاهد الوجه المنتفخ الأزرق حتى بادره، "مين اللى عمل فيك كده يا فاروق، إوعى يكون شحات؟"

أجاب هذا، "لا. لا مش شحات". لكن أكثر من ذلك لم يفصح، واستمر فى رقدته فى المستشفى لمدة عشرة أيام أخرى، وكثيرا ما كان يزوره شحات وهو مصمم على معرفة حقيقة القصة، أخيرا نطق فاروق وحكى لشحات ما حدث.

تلك الليلة، عندما غادره شحات، استمر فاروق فى خصه يخن الحشيش. كانت ليلة مقمرة لطيفة، وكان قد اتفق سرا أن تحضر إليه امرأة معينة من قرية قريبة. هى سيدة ضخمة، يبدو عليها الوقار نهارا، كان زوجها قد هجرها، لكن هى كانت رشيقة كما لو كانت شابة صغيرة. بالرغم من أنها لا تمتن الدعارة، إلا أنها تساير بعض رجال القرية مثل فاروق لقاء أجر. عندما حضرت مخترقة الزراعات قبل منتصف الليل، أخذ فاروق يستجلى المكان ليطمئن أن لا أحد قد قطرها، ثم صاحبها داخل الخص. كان هو قد شرب قدرا كبيرا من الحشيش، لذا أخذ يتمايل فى سيره ويتعثر، فجأة سمعا صوتا سكرانا صادرا عبر الحقول، "فااااروق!". أخذ فاروق يشتم فى سره، وجلس بجوار المرأة يتسمع، بعد لحظات سمع نفس النداء الخشن المسحوب كأنما هو صادر من بطن الأرض، "فاروووق!"، ثم سمعا صوتا ثانيا ينادى أيضا، هو صوت سكران وخشن مثل الأول.

المرأة، وقد ميزت الأصوات وعرفت من كان يتابعها، انكملت خائفة مستندة على خلفية الخص وهي تجمع ملاءتها حولها، كان أمرا عجيبا أن ترى أمارات الجزع المرتسمة على وجه تلك المرأة العملاقة، لذا شتمها فاروق عندما سمع شهقتها العالية، "مالك يا مرة، اخرسى واسكتي، هما حيسيبونا فى حالنا بعد شوية". كانت الأصوات مألوفة لفاروق مما جعله لا يحس بالأمان، إنه صوت اثنين ضمن مجموعة من أشقياء قرية الكوم يعرفهم بالاسم، وطالما حضروا إلى قهوة عبد اللاه ليشربوا العرقى. فى كل مرة، يسرفون فى الشرب وتدخل الحشيش، ينسون كل شئ ويتحرشون بالكل، وكانوا قد ضربوا بعضا من جيرانه بشكل شنيع، لذا تم القبض على بعضهم وحبسوا لفترة.

"فالاروق! فارووق"، أصبحت الأصوات قريبة للغاية من الخص. فى خوف وجزع، أخذ فاروق فى البحث عن عصا أو شومة أو أى شئ يصلح ليدافع به عن نفسه، إلا أن المرأة وقفت فى طريقه وتعلقت بذراعه وهي تتفتف، "بالله عليك، احمينى"، فكر أن ينظر خارجا، لكن قبلما يتاح له تنفيذ ذلك، سبقه سعال مخمور ودخل رجل الخص. كان هذا طويل القامة، طويل الذراعين، طويل الأنف، كل شئ فيه طويلا، ما عدا رقبته التى كانت قصيرة للغاية لدرجة بدا مظهره كما لو كان أحديا. هو يرتدى جلبابا قديما كالحا وعمامته انزاحت قليلا عن رأسه موضحة جانبا من رأسه وجزءا من صلعته اللامعة بينما تعلقت على كتفه بندقية

طويلة. خلفه ظهر شكل رجل آخر، قصير القامة متين البنيان تفوح منه روائح مختلطة من الخمر والحشيش. رأى فاروق أنهما ما كان يخشى أن يكونا، فهما خشنان، قذران، خائنان ومعتادان فى مجال السكر والعريضة. هما من ذاك الصنف الذى يعتدى دائما على زوجاته بالضرب، ودائما فى حالة خناق وعراك مع الآخرين. عندما يزيد عيار سكرهما فى قهوة عبد الله، يبدآن فى شتم الآخرين وإدخال الرعب فى قلوبهم.

توقفا داخل الخص وأخذ الرجل الطويل فى استعراض ما أمامه إلى أن عثر عما يبحث عنه. ذهب نحو المرأة، ورفع ذراعه إلى أعلى وهوى بيده وضربها بقوة على وجهها. أخذ يقهقه وانضم إليه الآخر بشكل قاس غبى. فوجئت المرأة بهذه اللطمة، لكنها لم تنطق بحرف بل انكمشت على نفسها، وفى الحال بدأ أنفها فى الإدماء.

أخذ فاروق يشتم، "يا ولاد الكلب، يا شراميط"، لكنهما سرعان ما تكتلا عليه وأمطراه بوابل من اللكمات فى كل مكان من جسمه، أخذ فاروق فى التنفس بصعوبة بالغة ثم زحف على يديه ورجليه ملتصقا الهواء. قام الاثنان بربط يديه بدويرة وجداهما فى الخص، فى لحظات كان مكوما على الأرض يكافح للخلاص، لكن بلا فائدة.

كان واضحا أنهما مدركان ما صنعهما من رعب حولهما، هذا زاد من سرورهما. ثم أمسك السكيران بالمرأة وجذباهما إلى الخارج، وبدأ فى نزع ملابسها وهما يعويان كالحيوانات. بينما فاروق يلاحظ ما يجرى

أمامه وهو مكوم فى الخص، لاحظ أنهما نزعا كل ملابس المرأة حتى بدت عارية تماما، وأخذت المرأة ترتعد وأسنانها تصطك. كان شكلها فى ضوء القمر غريبا، فهى باهتة وجميلة، شعرها طويل، صدرها ممتلئ، متماسك وناهض، رونق بشرتها واضح تماما. ثم دفعا بها إلى الأرض وهجما عليها مما صعب من مهمة فاروق فى المراقبة. فجأة عوت المرأة بصوت مرتعب، لكن سرعان ما هدأت وضبطت نفسها. فقط كان يسمع بين الحين والآخر أنين يعلو فوق الصوت الحيوانى الذى يصدر من الرجلين. بين الحين والآخر، يسمع فاروق صوت كلاب تنبح، بكاء أطفال من بعيد، أصوات أخرى مبهمة.

سمع أحد الرجلين يقول للآخر، "بسرعة". الرجل القصير انتهى أولا، ثم وقف ممسكا بزجاجة خمر يقرب منها فى جرعات كبيرة. ثم تحرك من مكانه فأمكن لفاروق أن يرى يدي المرأة وقد قبضت بقوة على كتفى الرجل الطويل فى حضن غرامى، وساقاها الممتلئتان البيضاوان فى ضوء القمر قد انضما بقوة حول فخذي الرجل العريانين الأسمرين. لم يستطع فاروق من إبعاد نظره وهو يستمع لأناث المرأة.

شعر فجأة بيد ممسكة برقبتة ورأى على بعد بوصات منه الوجه الساخر للرجل الآخر، رأى جزءا من ذقن سوداء غير حليقة، عين حمراء كالدم، فم ممتلئ يظهر منه أسنان مكسورة بنية اللون بسبب دخان السجائر، وتنفسه يزخر بروائح كريهة لا تطاق يختلط فيها الخمر مع الحشيش.

ثم أمسك الرجل بجلباب فاروق وانفجر فى ضحكة خشنة عميقة وخاطب زميله، "واه! يظهر إن فاروق عايز دوره كمان". عندما لا حظ فاروق أن تنفس الرجل قد ثقل، وفهم ما يود فعله من ابتسامته الغبية، وعلم أنه مقبل على تنفيذ ما انتواه، انفلت إلى جانب واخذ يشتمه بأقذع الشتائم، "يا ابن الكلب، يا خنزير، يا حمار.."، وكأنما لم يكن هذا كافيا للإعراب عن غضبه، لذا أضاف، "يا ابن القحبة، الله يلعنك!". تأثر الرجل بهذا التعنيف الشديد وبدأ هذا واضحا على وجهه السكران، لذا تراجع وخرج من الخص.

ما أن أَرْضَى الرجلان أنفسهما حتى شعرا بذنب ما، وبدون أن يلتفتا نحو المرأة فكا قيود فاروق وهما يعتذران له ويلقيان بالنكات. طلبت منهما المرأة نقودا، لكن لم يعيراهما التفاتا، وبينما هى تلتقط ملابسها وتلعنهما، اختفت فى بطن الحقول. أمسك الرجل الطويل ببندقيته وبفظة أمر الآخر أن يتبعه. كان من الممكن أن ينتهى الأمر عند هذا الحد، لولا أن فاروق أسرع وراءهما وهو يطلق شتائمهم ولعناتهم، لذا التفت الرجل الطويل إليه ودفعه إلى الخلف وضربه بعقب البندقية على كتفه، ثم ضربه مرة أخرى، لذا وقع فاروق على الأرض متدحرجا، وحاول أن يزحف على يديه ورجليه، مما جعل الرجلان يفرقان فى الضحك، ثم بكل رغبة حقيقية واستثارة انهالا عليه ضربا فى كل أجزاء جسمه كما لو كان حيوانا، إلى أن أغمى عليه.

أخبر فاروق شحات بأنه كان يرى هذين الرجلين كل ليلة فى قهوة عبد الله، وقال إنه يود أن يتجنب نزاعا دمويا، هذا ليس نادرا فى الصعيد عندما يثار أحد أفراد عائلة ما من عائلة أخرى، ثم تبدأ بعدها سلسلة لا تنتهى من حلقات الثأر. أخو فاروق الكبير كان قد قتل فى معركة نشبت بين مجموعة من السكارى، وانقطعت سلسلة الأخذ بالثأر عندما حضر القاتل إلى بيت فاروق وقد استرد وعيه حاملا على يديه أكفانه، أخبر فاروق بأنه سوف ينام على الأرض تلك الليلة أمام منزله، وأضاف، "دلوقتى إذا حببت تاخذ بتارك اتفضل"، عندما قدمت قضية هذا الرجل إلى المحكمة، حكم عليه بالسجن لمدة ثلاث سنوات لأنه لم يكن قتلا متعمدا.

رفض فاروق أن يسمى من اعتدوا عليه أو ينبس باسم المرأة لشحات، ولم يحدث ذلك قط لاحقا. فالحياة فى القرية تهتم بالحاضر، وما حدث بالأمس، لا سيما إذا كان للخمر أو الحشيش دور فيه، فإنه ينسى وينتهى. استمر فاروق فى ارتياد قهوة عبد الله مشاركا مع من اعتدوا عليه فى الشرب وتدخين الحشيش، واستمر أيضا فى مواعدة النساء فى خصه العتيد واستمرت الحياة فى دورتها المعتادة.

معظم الخناقات فى القرية تنشب بسبب مشاكل توزيع مياه الري، فمنذ انتهاء فيضان النيل السنوى الذى كان يغمر الأراضى الزراعية فى الصعيد، استبدل هذا بنظام الري الدائم مع استخدام ماكينات الديلز

لضخ المياه. منذ سبع سنوات، أصبحت تلك المضخات هي أولى الآلات التي استخدمت في بيراط. كانت هذه الآلات غالية الثمن إذا انتوى أن يملكها ويديرها فرد واحد، والتعاون المطلوب بتكوين نوع من التشارك أو بيع المياه للآخرين كان خارجا عن تقاليد القرية، لكن ما أن أتيح استعمال هذه المضخات حتى استخدمها الجميع، ما عدا قلة أمثال شحات هي التي استمرت في استخدام الوسائل القديمة، مثل السواقي والشواذيف التي تكسر ظهر الإنسان.

تملك الحاج عبد المطلب النصف في عدد كبير من الماكينات، واحدة منها كان الفقير سالم هو الذي يديرها، لكن عندما اختلف كل من الرجلين بسبب أمر تافه، اشترى الحاج عبد المطلب نصيب سالم. فقام هذا الأخير بشراء واحدة جديدة بمشاركة عبد الرحمن، صديق شحات ووضعها في نفس مكان الآلة القديمة على التربة. هاتان الطلمبتان اللتان عملتا جنبا إلى جنب كانتا مصدرا لانهاثيا من النزاع. أحمد، وهو ابن الحاج عبد المطلب، نوقل حام وطبع محتدم، يماثله في ذلك عبد الرحمن، كانا كلاهما يعملان باستمرار على فك الأنابيب والقائها في التربة، وبعد كل حادثة، يتجمع أنصار كل من الفريقين ويتعاركان. وقد حاول كل من الحاج عبد المطلب وسالم بأن يحافظا على السلم بلا جدوى. هذا وقد انضم شحات إلى زمرة جمال بن الفقير سالم، حيث إن هذا الأخير نسي تماما ما حدث من شحات عندما ربطه في الخص

وجعله أسيرا، لا سيما أن جمال هذا كان يتنازع كثيرا مع والده، لكن شحات اشترط على جمال أن لا يصل هذا القدر من التعاون والمساندة إلى أذان أم حامد.

لأيام عدة، استخدم شباب القرية المتنازعون استراتيجيات مختلفة، ثم استراتيجيات مضادة، وكاد أن يصبح للنزاع تبعات خطيرة لولا وصول اثنين من الغرباء ليصليا الجمعة في الجامع الذي أنشأه الحاج عبد المطلب.

لم يكن هذا مبعثا على العجب، فمن العادة أن يرتاد الفلاحون أقرب مسجد، لكن جامع الحاج كان صغيرا لا يعتد به وليس مشهورا أو ملحوظا، ولا سيما أن بخل منشئه حرمه من أهم سماته وهو المنارة، لذا ندر حضور الغرباء ليصلوا فيه.

الغريبان، اللذان ظهرا أولا في القهوة المجاورة لبوابة المعبد، بدا على وجهيهما الإجمام الأصيل، وقد ارتديا جلبابين صوفيين طويلين واعتبرا عمامتين سوداوين، وأصبحا في التو واللحظة مثار تعليقات وتنبؤات. مجرد تصفح وجهيهما والاستماع لأصواتهما وضحكاتهما يتأكد مقولة إجمامهما. بالفعل هذان الاثنان ينتميان إلى أسوأ الطبقات، ويمكن الحكم بذلك من قبح شكليهما وخشونة أصواتهما وبذاءة نكاتهما، لذا توقع الكل الأسوأ الذي يمكن أن يصدر منهما. ثم عندما أخبر هذان الاثنان شلتوت صاحب القهوة بأنهما حضرا من قرية جامولة، وهي منبع ومفرخ للصوص، كان هذا كافيا للحكم عليهما. ما أن دفعا ثمن المشاريب

وتوجهها للمسجد، حتى أرسل كل من شلتوت وشحات ولدا صغيرا يقطرهما ويتسقط ما قد ينطقان به. رجع الولد مقطوع النفس قائلا إنه سمع أحدهم يقول للآخر، "خلينا نروح دكان الحاج عبد المطلب ونشتري علبه سجائر ونشوف فيه إيه تانى هناك". فصاح شحات، "أنا حاقول للحاج عبد المطلب ما ينامش الليلة دى، دا حتى عنده بندقية"، لكن العجوز يوسف قال، "لا. بسرعة علينا نبلغ النقطة". لكن لا أحد شجع تنفيذ هذا الاقتراح، لأن الجميع يشعر أن أى تدخل للبوليس يعنى التعرض لمتاعب جمّة. مرة قام بعض اللصوص بمهاجمة بيت شحات ليسرقوا الجاموسة، فقفز هذا فوق سطح الزريبة واختبأ، أما اللصوص فقد ظنوا أنه أسرع يطلب المعونة، لذا هربوا سريعا. قال شحات بأنه لو صادف وقابل أحد هؤلاء اللصوص فى الطريق، فإنه سوف يمر عليه بدون أن يبدي معرفته به، لأنه فى الواقع يخشى البوليس مقدار خشيته من اللصوص، وهكذا بالنسبة لمعظم الفلاحين.

غادر الغريبان الأتيان من قرية جامولة قرية بيراط بعد صلاة الظهر، لكن الخوف من أن يعودا فى أى ليلة وحد الجميع ونسوا تماما الصراع حول موضوع ماكينات الديزل، كل الشباب تبادلوا حراسة منزل الحاج عبد المطلب ليلا.

لعدة أيام، أصبحت القرية فى حالة حصار. البقر، الجاموس، الجمال، المعين، الفراخ والأرانب أدخلت مبكرا إلى حظائرها وتم إحكام

إقفال أبوابها، واستقرت كل الأسر وراء أبواب متربسة جيدا، سلم صبحى مسدسات لكل خدم فندقه، وعندما حل الظلام بدا كأن كل الخطر جاثم خلف كل شجرة، لم تنبج الكلاب بكل قوة مثلما حدث تلك الأيام. مرة أطلق "العزب" عيارا على لا شىء، لذلك عنفه الكبار. بعد مرور أسبوع ولم يحدث شىء، شعر كل فرد بالخجل وتوقفوا عن حراسة منزل الحاج عبد المطلب ونسوا تماما موضوع الغريبيين.

لكن هؤلاء حضروا فعلا فى وقت متأخر من ليلة الثلاثاء، وفاجأوا الجميع. كان هناك توقع أن يختاروا ليلة الخميس، حيث إن التقاليد الإسلامية تعتبر هذه الليلة هى المفضلة لأن يعاشر الرجل زوجته، لاحقا لم ينطق الحاج عبد المطلب بشىء ما يختص بموضوع السرقة التى حدثت، لكن الإشاعات ادعت أن اللصوص حملوا فيما حملوا نقودا، جواهر وذهب تزيد قيمتها عن خمسة آلاف جنيه. كانت خسارة الحاج كبيرة، طالما، أنه مماثل لكل الفلاحين، لا يثق فى البنوك ويحتفظ بكل ثروته داخل منزله.

ما أمكن التقاطه من فم بهية والأولاد أن اللصوص كانوا عبارة عن ثلاثة أفراد عرايا تماما، وقد دهنوا أجسادهم بالقار، واعتمروا فوق رؤوسهم بطراير سوداء تغطى وجوههم. أيقظوا الحاج فى الثانية صباحا بالخبط فوق رأسه بماسورة مسدس، يقال إن أحد اللصوص طلب منه أن يعطيه مفتاح خزنته وآخر طلب مفتاح الدولاب الذى تحتفظ فيه بهية بذهبها.

للحظ الحسن كان ابنا الحاج وهما أحمد ومحمود ومعهما أختهما الصغيرة نادية نائمين فى الجانب الآخر من المنزل الواسع ولم يسمعا شيئا، بينما قيد اللصوص كل من الحاج وزوجته. أما الأتاويل التى ادعت أن بهية قد اغتصبت، فقد ثبت أنها كاذبة. فى الحقيقة، استطاعت بهية، وذلك طبقا لأدق المصادر، أن تحرر نفسها من القيود وتنقذ الحاج. هناك تفصيلات أخرى أسرت بها بهية لصديقتها أم حامد، مثلا أن الحاج عبد المطلب بمجرد ما تحرر طلب من بهية أن تصرخ لأن صوتها حاد ومسرّس ويمكن أن يستجيب إليه الجيران سريعا.

حضر مفتش البوليس، وسأل كل من اعتاد على ارتياد القهوة. ألقى أسئلته بصوت هادئ ورتيب وسمع أقوال فلاح ثم آخر، وكان يصرف كل واحد منهم بقوله، "اطلع بره". ثم أسرع إلى اللوكاندة وهو يسعل، هناك كان من الممكن رؤيته بصحبة صبحى جالسين على مائدة رص فوقها عدد من زجاجات البيرة ومملوءة بأعقاب السجائر، يناقش فيما يختص بأموره الخاصة، ويبدأ كأنه قد نسى تماما المناسبة التى حلت على دماغ الحاج عبد المطلب.

توقعات القرية لم تعد تنصب فى ما إذا سيتم القبض على اللصوص أم لا، لكن عمن أخبرهم بالمكان الذى خبأ فيه الحاج نقوده وذهب. زعق العجوز يوسف، "بتقولوا مين؟ طبعا ما فيش غيرهم عدوين الحاج هما اللى بلغوا. دا كل واحد فيكى يا بلد مديون للحاج، مين غيرهم يعنى؟".

ركوبة صباحية إلى السوق

لعدة شهور بعد وفاة والده، كان نوم شحات غير منتظم وكله مصحوب بالقلق. بقدوم شهر أغسطس، هبت رياح شديدة مصدرها الصحراء، أخذت تهز أعواد النخيل بعنف وتشغل مصاريع النوافذ بينما يظل شحات مستيقظا لساعات عدة، يتذكر كيف أن أباه قد مات وأنه لن يراه فيما بعد. نوم العائلة ككل كان مضطربا، أم حامد بسبب خسارتها الجسيمة، وسماح بسبب قلقها، الأولاد الصغار بسبب الجوع والحك. كان شحات يستمع إليهم وهم فى الطابق الأعلى يسعلون، يتقلبون من جانب للآخر، يهتمون أثناء نومهم أو يقومون ليشربوا الماء.

هو ينام فى الدور الأرضى بالمندرة الأمامية ليحرس الزريبة. هذه الغرفة أرضها وجدرانها طينية، يتم إنارتها باستخدام لمبة جاز تدخن باستمرار وضوؤها خافت. إذا تحرك هو أمام اللبة، يرى ظلا ضخما مرسوما على الحائط المقابل، ويمكن أيضا أن يميز ضوء القمر. عند الفجر، عندما تسكن الرياح وتنطفئ اللبة، يمكن حينذاك أن يميز ضوء القمر الباهر وهو يغمر الشباكين الصغيرين العالين.

يحاول شحات أن ينام لكي ينسى، للحظات يباغته نعاس، ثم فجأة يحس كما لو أن أحدهم قد وضع يده على كتفه وأنفاس تحتك بخده، لذا يستيقظ مذعورا متوقعا أن يرى والده أمامه، لكنه للأسف راح، من المستحيل أن يعود مرة أخرى. أخذ يفكر فى قول سمعه من العزب عندما قال: قبل كده ما كنتش تهتم بأى شىء فى حياتك، لأن أبوك كان هو اللى واخذ باله من العيلة ويصرف عليها، لكن دلوقتى حزن الدنيا كلها حل على دماغك. لازم تثبت للكل إنك بقيت راجل.

حول شحات جسمه إلى الناحية الأخرى وتناسى تماما والده. هو الآن يفكر فى شأن النقود، العلف اللازم للحمار والجاموسة، الأسعار المتصاعدة للمخصبات، الدين الذى يتزايد على كاهلهم بسبب مسحوباتهم بالشك من دكان الحاج عبد المطلب من دقيق ولوازم أخرى، أخذ شحات يئن بسبب أفكاره السوداء تلك، ثم بعد فترة اعتدل فى نومه مغفما "الحمد لله".

أحيانا كان يستمع لأصوات مبهمة صادرة من الطابق الأعلى، لكن عندما ينظر نحو النوافذ العليا يصعب عليه أن يتأكد ما إذا كان هذا الضوء مصدره القمر أم ضوء الفجر. أخيرا عندما هبطت سماح لحلب الجاموسة، عرف أنها قد تجاوزت الساعة الرابعة فجرا. الوقت الآن مبكر للغاية، لكنه استطاع أن يميز مكان الأشياء. أحيانا كان يسمع الصوت العالى لتهيدة أم حامد المتألمة

وهى تدور فى أرجاء المطبخ، تشعل النار وهى نصف نائمة وتتحرك بشكل روتينى.

عندما يشع ضوء أزرق من خلال ثقب الباب الرئيسى، ينهض شحات من رقدته ويخرج ليطس وجهه بقليل من الماء الموضوع فى جرة، ثم يتمضمض ويضع إصبعه فى فمه محركا إياه خلال أسنانه ثم يبصق، بعدها وهو شارد الذهن، يتذكر أنه لم يطلب السماح من الجنى الذى يسكن المكان!. أسنان شحات المتينة لوثها بعض من النيكوتين؛ فهو لا يماثل أم حامد التى تحافظ على أسنانها دائما. تعوى الكلاب على طول الطريق كأنما هى عازمة أن تحفز الجميع على أن يستيقظوا، ثم بعد ذلك يسمع صوت ابن عم الحاج عبد المطلب المدعو عمرو وهو يؤذن بصوته الجهورى زاعقا، "الله أكبر، الله أكبر". يخرج العجوز يوسف من منزله ويتحرك قليلا فى الحارة وهو يسعل وينهج ويحدث جلبة ويبصق عدة مرات، ثم يعود إلى منزله ليستأنف نومه.

بعدها غسل شحات وجهه، ينطق شحات بدعوات صباحية، "اللهم نجنا من الشيطان الرجيم"، ثم يجمع من تحت مخدته معدات الحفظ، نسخة مصغرة من القرآن الكريم، تعويذة مكتوبة، خاتم ملفوف بخيط أبيض. إنه لا يفارق أبدا هذه اللوازم منذ أن شاغبت تلك الجنية.

تحضر له أم حامد الشاى. وجهها باهت جامد كما يبدو على وجوه الناس فى الصباح الباكر عندما تخفت النجوم ويبدأ أول ضوء للنهار

فى الظهور. لقد ركب الهم شحات، فهو لا يستطيع أن يحمل إليها كل يوم ما اكتسبه من لعب القمار كما كان يفعل أبوه لكى يغطى إسرافها، لكنهم الآن يسقطون فى بئر لا قرار له من الديون، ولأن يحدثها ويناقشها فى هذا الأمر، معنى ذلك أن هناك عراقا سوف ينشب.

دائما ما يشعر شحات بالراحة وهو يغادر منزله كل صباح. هذا اليوم بعدما أسرج حماره، توجه فورا إلى سوق القرية الذى يعقد صباح كل يوم ثلاثاء بجوار المعديّة التى تقف أمام شاطئ النيل.

ما أن يبتعد قليلا عن القرية بالخطى الواسعة للحمار، حيث لا يحجب الرؤية تلك الأشجار، المنازل أو جدران المعبد الهائلة، يمكن حينذاك لشحات أن يستجلى السماء الزرقاء، الهضاب الصفراء، الأراضى الزراعية المنبسطة الخضراء التى تمتد لأميال وأميال، هنا يحس بانشرّاح وبشر يغمره. أثناء سيره يلاحظ مزروعات جيرانه، ونظرة شحات التى تخترق المفاصل، هى موهبة ربما حصل عليها مع طبيعته سريعة الاشتعال من جدود جدوده من البدو. ما يعتبر بالنسبة لغيره خواء فارغا، يجده هو مكانا يشغى بالحياة والحركة، ليس عليه سوى أن يوجه ناظره نحو الهضاب حتى يلمح ثعلبا صحراويا، أرنبا يسرع بالاختباء، صقرا يحوم مركزا نظره على القريسة، يراها وهى ليست فى حالة هروب أو هلع، لكن وهى تمارس حياتها اليومية الحرة غير مختفية أو متلصصة. الفضل كله يعود إلى حدة نظره، فبجانب كل

العوالم التى يمكن أن يحددها كل فرد، شحات له عالم آخر يخصه لا ينافس فيه الآخرون، وهو عندما يحدق فى شىء بعيد ويتعرف عليه بسهولة، يصبح من الصعب أن لا يتعرض لنظرات الحسد.

جاوز الحمار حقل الفول الخاص بلمعى، وهو المزارع الميسور الحال، ثم تابع مسيرته مخترقا مسارا خشنا يتكون من رديم قصر فرعونى منسى، ثم دار شرقا ليتابع سيره على أرض الطريق المرصوف المؤدى إلى النيل. أجبر شحات لأن يظل عينيه، فعلى البعد عبر النيل، حيث يفصل السماء عن الأرض تلك الهضاب الصفراء للصحراء الغربية، برز شعاع متسع أصفر اللون مصدره الشمس، أخذ يزحف خلال قمم الأشجار وبيوت الأقصر على بعد ميلين تقريبا. فى لحظات، تقترب منه حزمة الأشعة تلك، وعندما يتفحص ما حوله، يتضح له أنها فى الحال قد افترشت هضاب الصحراء الكبرى التى تقع خلفه. ثم يحس بشىء دافئ يمس كتفه، فهناك شعاع يتقدم حثيثا مفترشا الطريق الذى أمامه ويرتفع ليتقابل مع الشعاع الأول، ثم فجأة يفيض النور وينير كل وادى النيل ويغمره بنور مبهر.

كيزان الذرة الناضجة، السمسمل الملقى على الأرض على هيئة أكوام ليحف، البرسيم الأخضر الذابل، كلها نصف ميتة منذ المساء السابق بسبب الحرارة الشديدة، تجدها الآن وهى تلمع بسبب الندى وقد شملتها حياة جديدة . يرى أيضا اثنين من طائر أبى قردان يطيران

عبر الحقول المروية، ثم سرب من الحمام بأجنحته البيضاء التي تتغير ألوانها بفضل أشعة الشمس المبكرة، يرتفع الحمام إلى الأعلى ثم يتميل بكل رشاقة ويلف في دوائر متناسقة، ثم يبتعد حتى يصل إلى جدران المعبد ليحتم هناك طوال النهار في الظلال. على البعد يسارا في مكان ما، سمع صوت هديل قمرية.

طاف أمام شحات وحماره هدهد متوج لونه أبيض بنى، يحرك جناحيه بنعومة بالغة، ثم توقف الطائر فجأة وحط على الأرض كأنما قد تذكر مأمورية عاجلة يجب الوفاء بها، ثم اندفع كالسهم طائرا عبر الحقول. إذا مات الهدهد وعلقتة فوق باب منزلك، فإن الحظ الحسن سوف يطرق بابك، والقرآن الكريم يخبرنا أن هذه الطيور بالذات كانت تحمل رسائل من سليمان النبي إلى ملكة سبأ.

"حا، حا، اطلع يا حمار"، أخذ شحات في تحفيز حماره ليسرع الخطى، وفي نفس الوقت أخذ يصدر فرقة صوتية من فمه.

أماما، قدمت عربية محملة بأعواد السمسسم، وولد صغير راقد فوق قمة الحمل مستغرقا في النوم يتأرجح مع حركة العربة. فجأة رفع هذا الولد رأسه بتثاقل ليحيى شحات قائلا، "سلامو عليكم"، فرد شحات، "سلام ورحمة الله وبركاته"، ثم تغيرت لهجة شحات وخاطب الولد مازحا، "انت اتجوزت يا سيد والا لسه؟"، فأجاب هذا، "لا لسه، لكن إنشاء الله".

رقد الولد فى مكانه وعبرت مركبته وجاوزت شحات. كانت قصته معروفة فى كل أنحاء القرية، فبالرغم من أنه لم يتجاوز الثانية عشرة من العمر، إلا أنه حاول أن يتزوج فتاة تبلغ الثامنة عشرة. كان والد الفتاة موافقا لأن سيد هذا كان قد ورث ثلاثة فدادين من الأراضى الزراعية. عندما مانعت أم سيد من إتمام هذا الزواج، أغرق سيد نفسه بصفيحة جاز، لكن الجيران أنقذوه قبلما يشعل عود كبريت. بعدها تزوجت الفتاة لشاب مقارب لعمرها، لكن سيد حصل على تعويذة من الشيخة داية يمكن بموجبها أن تهجر تلك الفتاة زوجها الجديد، وهذا ما حدث فعلا. الآن هوذا سيد يعمل بكل جد واجتهاد كرجل بالغ، يشرب الخمر ويشعل السجائر ليقنع والدته بأنه قادر على الزواج، ولا يمر أحد بسيد هذا فى الطريق بدون أن يسأله، "أنت اتجوزت يا سيد والا لسه؟"، فيجيب هذا بتأكيد منقطع النظير، "لسه، لكن إنشاء الله!".

لم يسر شحات مسافة طويلة قبل أن تتبخر قطرات الندى وأصبح الهواء ساخنا جافا، واستأنف الوادى فى عرض مظهره المسترخى الفاتر، بدت الهضاب الصفراء، الحقول الخضراء، الزنابق البعيدة المتراسة على جوانب النهر كأنها ميتة وبلا حياة، كأنما هى صور مرسومة باليد. يبدو أن اليوم سوف يكون خانقا، ثم لاح له مبنى نقطة البوليس، وهو بناء أبيض ضخم يقع على يسار الطريق، جاوزه شحات دون أن يوجه نظره إليه. إنه يمكن أن يفتخر أمام أصدقائه بقوله،

لو حاوطني عشر عساكر، أنا ممكن أغلبهم. لو كنت برئ، ممكن أعمل أى حاجة، اكسر على دماغاتهم القزايز، حتى ممكن كمان أضرب راسى فى حيطه". فى الحقيقة، شحات مماثلا فى ذلك معظم الفلاحين، لا تنقصه الشجاعة فى معاركه القروية، لكنه يبدو خاضعا وأليفا عندما يختص الأمر بالسلطات. يدرك الفلاحون أن حمايتهم الوحيدة فى مقابل رجال السلطة هى مدى درجة ذكائهم ومكرهم.

ما أن اقترب شحات نحو النيل، حتى مر على حقول قصب السكر المملوكة للحكومة وهى تمتد على الجانبين، هنا تتجول الثعالب على حريتها ليلا - ولا يستطيع أحد أن يدخل غابة القصب الطويل بعد حلول الظلام. ثم مر على حقول للقول وشاهد ستة من الفلاحين متراسين فى صف يحركون مناجلهم وقد انحن ظهورهم، وعلى بعد قليل كانت هناك امرأة تتلفع بثياب سوداء وهى تحش بعض الحشائش، ثم وقفت فجأة ممسكة ظهرها المتألم بكلتا يديها وتابعت بعينيها مسيرة شحات. إنه لا يستطيع أن يجزم ما إذا كانت تعرفه، أو إنها فقط تستريح. على أية حال وقفت مدة طويلة تنظر إليه بدون حراك.

عاجلا، ازدحم الطريق بالقرويين المتوجهين للسوق؛ نساء غطين وجوههن بطرح سوداء يمشين على أرجلهن أو يمتطين ظهور الحمير، فوق رؤوسهن تتوازن مقاطف ضخمة محملة بكل أنواع الخضروات؛ رجال طوال القامة يوسعون الخطى يرتدون جلابيب بيضاء أو زرقاء

باهتة؛ فلاحون ميسورو الحال يسировون والفخار يملأ جوانحهم وهم يتمخضرون بقفاطينهم الصوفية بالرغم من وهج الحر القاتل؛ رجال فى هلاهيلهم حضروا لبيع معزة أو غنمة؛ فتيات حضرن ليشترين ويثرثرن وفتيان أتوا ليغازلوا الفتيات. بالنسبة لشحات، هناك أربعة فئات من الناس حاضرون فى هذا السوق؛ هؤلاء الذين يبيعون الخراف والماعز أو الخضروات؛ هؤلاء الذى يقومون بشراء هذه اللوازم؛ تجار يشترون الحيوانات ثم يبيعونها بسعر أعلى فى سوق المدينة؛ هؤلاء الذين حضروا للفرجة وتبادل الأحاديث والأخبار.

استمر السوق فى أعماله منذ الفجر حتى منتصف الفترة الصباحية. إذا أراد شحات أن يبيع شيئا، يأتى نهرا ثم يختار مكانا على مدى الطريق ليعرض خضرواته أو أن يعقل شاته ثم يجلس القرفصاء منتظرا قدوم الزبائن. ما أن بلغت الساعة الثامنة صباحا حتى أصبح السوق كله عبارة عن ضوضاء لا تطاق وخليط من الرجال، النساء، الأطفال، البهائم والبضائع. بالرغم من تواجد أماكن كثيرة على طول نهر الطريق، إلا أنهم جميعا تكوموا فى منطقة صغيرة للغاية، فالفلاحون مغرمون باستجلاء الأماكن المزدحمة. عندما يعبرون النيل كل يوم ، يحتشد الجميع فى تلك المعديّة الصغيرة، مع ذلك يندمى المرء من ندرة الحوادث. وعندما ينون ركوب القطار، يحضرون قبل موعد قيامه بساعتين أو ثلاث ويتجمعون فى إحدى نهايات الرصيف، ثم يتزاحمون

ليحتلوا جميعا عربية واحدة من القطار حتى لو كانت العربات الأخرى شبه خالية. فى الطريق السالك وسط السوق، ترى الناس وهم يهرولون خلاله فوق ظهور حميرهم أو على أقدامهم - معظمهم يحمل ربطا ضخمة أو يصطحب أغناما أو معيذا أو واضعا عددا من الأرانب تحت أزرعته، منهم من يتوقف ليحى بعضهم بعضا بصوت عال وأخرون يزعمون فيهم ليخلوا الطريق - كل هذا يشبه عملية إجلاء أو إخلاء، ثم ترى الغبار المستثار وهو يكاد أن يغطى المركبات السائرة، بينما يساق سرب لا ينتهى من النعاج خلفها أولاد صغار ممسكون بالعصيان. يعبر الطريق أيضا تاكسيات قديمة جدا نغيرها لا يتوقف أبدا، رأى شحات أيضا ولدا صغيرا ينفخ فى نفخة ورقية ليثبت أنه متواجد، ثم ابتلعه الزحام، لكن صوت صفارته لم ينقطع.

رأى شحات بهية وسعاد، وقد غطاهما السواد من قمة رأسيهما حتى أخصم قدميهما، يسيران على جانب الطريق، ف جذب لجام حماره وتوقف بجوارهما، فآلقيتا عليه التحية بحرارة بصوت عال وسرور بالغ، وهو ما يحدث عادة فى السوق. ثم أمطرته بهية بسيل من الاستفسارات والتحيات، "أزيك يا واد يا شحات؟ انت مشغول والا إيه؟ ازاي حال القصب اللي انتو زارعيه؟ انت ليه ما فتحتش دكان أبوك؟".

عبرت كلتا السيدتين قرية الكوم وهما يسيران بجوار شحات، وقد امتلأت أفواههما بكل نوعيات الثثرة، قالت بهية مخاطبة شحات، "عارف البنت فتنه؟"

"فتنة مين؟"

"فتنة اللي ابوها محمد اللي مات السنة اللي فاتت،
دى بكرة دخلتها"

"بس دى لسه صغيرة، ازاي حتتجوز وهي سنها ما يزيدش
عن اتناشر أو تلاتاشر سنة"

"لا دى مش صغيرة، انت يظهر ما شفتهاش ليك مدة، دى طويلة
طول النخلة، هي يتيمة دلوقتي، فيه واحد كويس من الكوم أخدها لدكتور
فى الأقصر وسننها وحيتجوزها. ليه يا شحات ما فكرتش تتجوز لغاية
دلوقتي؟" نطقت بهية بذلك فى لهجة اتهام، فقاطعتها سعاد، "ازاي يتجوز
بس ولسه ابوه ما لهوش غير ثلاث شهور ميت"، فهرزت بهية كتفها قائلة،
"إذا اتجوز، أبوه حيستريح فى قبره وشحات يقدر يفتح بيت ومراته
ممكن تساعد أم حامد. دا بيتهم كبير وفيه شغل ياما"، قاطعتها سعاد
قائلة، "شحات دلوقتي راجل وممكن يتجوز بعد سنة أو اتنين، وممكن
ياخد أى بنت يا بهية، لكن أخته سماح لازم تتجوز الأول، دى سنها
دلوقتي أربعناشر"، قالت بهية التى لا تتأثر كثيرا بأراء الآخرين،
"أنا عندي بنت حلوة خالص ليك يا شحات وست بيت تمام وغنية كمان
ولا حتكلفك حاجة وعندها لبس بالكوم، ومعاها شوية دهابات
وخواتم وعقود.."

ضحك شحات، "لازم الأول أشوفها، أنا ما يلزمنيش الذهب ولا تهمنيش الهدوم الحلوة، عايز أشوفها، إذا كانت كويسة، ممكن أعيش معاها فى خص جوا الغيط. يمكن بعد ما نحصد المحصول أجيلك".

توقف شحات عن المسير، ثم عقل حماره بجوار نصبة شاي، ثم اقترب منه "العزب" وقال، "تعالى يا شحات، انهارده بالليل نروح لقهوة عبد اللاه ونقرب قزازتين والا تلاتة"، مصمست السيدتان بشفتيهما مما يعنى عدم رضائهما، فضحك شحات وأمسك بذراع العزب، "يا لله بينا نروح". أشعل العزب سيجارة، لكن شحات اختطفها من بين شفتيه وبدأ كل من الشابين يتنازعاها، فزعقت فيهما بهية، "وقف يا شحات انت والعزب من الهزار ده. انتو الاتنين دمكم فاير وعايزين كل حاجة بالقوة". صاحت سعاد، "واه، ما انتى عارفه، شحات يموت فى الهزار". ضحكت بهية قائلة، "الواد طالع لابوه، ولاد البطة يعوموا ورا بعض".

فدافعت سعاد عن خالها، "خالى عبد الباسط كان راجل بحق، هو صحيح كان بيشرب ويلعب، لكن الواحد يعتمد عليه فى أى خناقة. ندعى لربنا يكون متواه الجنة".

ابتعد الشaban عن السيدتين، ونظر نحوهما شحات، "نهاركم اسود يا حريم، أوعو تفكروا فى". ثم خبط أحدهم على كتفه بقوة، فالتفت ليجد أنه "التعبان"، فتعانق الصديقان بحرارة بالغة وأخذا يقبلان بعضهما عدة مرات يمينا ويسارا، فهما لم يتقابلا منذ عدة أيام.

"سلامات"

"طيبون"

"حمد الله على سلامتك"

"إن شاء الله تكون بخير"

"سلامو عليكم"

"عليكم السلام ورحمة الله وبركاته"

"مرحبا، تعالى اشرب عندنا الشاي"

"أنا شربت، متشكرين".

تعانق أيضا كل من "التعبان" و "العزب" وكررا نفس حوار التحيات. ثم أخبرهما "التعبان" أنه قضى ليلته في السجن لأنه اشترك في خناقة عند مرسى المعدية، أغرق في الضحك وهو يقول، "تصور، أربعين واحد محشورين في زنزانة صغيرة، قعدت طول الوقت أفكر، أنا إيه اللي جابني هنا يا ربي؟". التعبان هذا من مواطني قرية القرنة المجاورة وتقع شمال بيراط. رجال القرنة، وقد اختلطت دماؤهم بدماء قبيلة الحروب، كانوا دائما منغمسين في منازعات دموية لا تنتهى.

حتى في بيراط، أى نزاع ينشب بسبب ماكينة رى أو أى شىء آخر تافه، يمكن أن يستمر زمنا طويلا. الخصومة قد تنشأ لسبب لا يعتد به

مثل، غنمة شاردة، علف ناقص أو زحرحة مكان فى السوق، ما أن تنتقضى فترة بسيطة إلا وتصبح حياة الفرد ذاتها لا قيمة لها بالمرّة. مثل هذه النزاعات فى بيراط يمكن أن تهدأ وتتوقف إذا تدخل العقلاء الكبار فى السن.

لكن فى القرنة، تسير الحياة فى ظل عدم الأمان. عندما يحل الظلام، تجول الكلاب وهو تنبج باستمرار، كل فرد قابض على شومة ثقيلة إذا جازف وخرج ليلا. أحيانا تنشب معركة حامية بدون أى سبب ظاهر، بعد لحظات ترى الرجال مندفعين لينضموا إلى هذه الجهة أو تلك، مسلحين بالمسدسات والشوم صارخين، "الله، الله"، ولا يمر وقت إلا وقد أقسم كلا الطرفين بأن يتحاربوا حتى الموت. يعانى البوليس أشد المعاناة ليحل السلام مرة أخرى. مثل هذه النوعية من المعارك تعتبر نادرة فى بيراط لأن الفلاحين منشغلون باستمرار فى فلاحه أرضهم. بالرغم من أن بعض رجال القرنة أصبحوا فلاحين وانتقلوا للسكنى فى الوادى، ظل معظمهم ساكنين عند أهاليهم الذين احتلوا مساكن مبنية وسط مقابر الفراعنة يتربحون، بشكل غير قانونى، من التنقيب أسفل منازلهم ليلا، وآخرون منهم يمتنون بيع الأنتيكات المزيفة للسائحين.

يتشارك كل من رجال القرنة وبيراط نفس الطريق والسوق والمعدية، وكل فرد له معارف فى القرية الأخرى. مع ذلك، فإن الزواج المختلط يعتبر فضيحة، فالبيراطيون ينظرون لأهالى القرنة بنظرة مختلفة.

فى الحقيقة، كل قرية هى عبارة عن نظام مقفل، بعمدتها وخفرائها ليحافظوا على القانون، النظام، السجن، المساجد، المدارس الإسلامية، المدارس الحكومية، الصيدليات والأطباء ولكل منهما مفتش زراعة مستقل. يحافظ أهل بيراط على العادات، القيم والتقاليد المتوارثة منذ أيام الفراعنة؛ أهل القرنة لهم عادات أهل الصحراء.

سأل شحات "التعبان" عما إذا كان والده سيعطيه علفة، فأجاب هذا، "يمكن أبوه، يمكن لا. ما حدش يعرف غيره". ثم سأل العزب عما إذا كان الجانب الآخر من الخناقة سوف ينتقم، فضحك "التعبان" قائلا، "محدش يعرف إيه اللى حيحصل غير ربنا فى سماه، يمكن بعض العواجز يتدخلوا وينتهى الموضوع على كده. دول كلاب، والبوليس عايز فلوس. أديلهم ليه أنا فلوس من غير ما استفيد حاجة، دا انا اخلص عليهم الأول!"

تساءل "التعبان" عن أسباب عدم قيام شحات بفتح محل أبيه حتى الآن، فى الحقيقة شحات لا يؤيد موضوع القمار الذى كان أبوه منغمسا فيه؛ هو أولا وأخيرا فلاح، فنصحه صديقه بقوله، "ما تزعلش يا شحات يا خويا، دا مصيرنا كلنا، أنا حاموت، انت حتموت. كل واحد حيموت. انت لازم تفتح المحل وتكلم على شوية فلوس وتبقى زى ابوك، يوم بعد يوم حتنسى كل شىء مزعلك لأن أصحابك وأصحاب ابوك حيجوا دكانك ده عشان يشربوا ويلعبوا ضمنة مرة ثانية".

عندما بدت مظاهر الحزن على وجه شحات ولم ينبس بكلمة، قبض "التعبان" على كتفيه وهزهما قائلاً، "شوف، الناس اللي بييجوا يلعبوا قمار عند أبوك بطلوا دلوقتي وكرهوا المكان. لكن ليه ده كله كان بيحصل؟ السبب هو إن أبوك كان راجل طيب وبحبوح مع كل الناس"، ثم لكى يرفع من معنويات شحات، خطف عمامته وزاغ بها وخاطبه مغيظاً، "حانجسك!". فشخ شحات فمه فى ابتسامة واسعة وجرى وراء "التعبان" ويعد جهد استرد عمامته.

الجلبة التى أحدثوها أيقظت ثلاثة كلاب جريانة من نومها، وابتدأت فى النباح دفعة واحدة، وبدا كأنهم وقعوا فى كمين. كان منظرها مربعاً، شعر منتفض، عيون تدمع، ثم اندفعت نحو "التعبان" كأنها على استعداد أن تمرقه إرباً. التعبان يعشق العراك، يشعر دائماً بسرور بالغ واستثارة، لذا التقط عدة زلطات من الأرض وأخذ يرمى الكلاب بها ووجهه ملئاً بأمارات الغل. أصاب الكلاب حجران، فأخذت تنبح فى ألم، وبعدت مسافة ليزيد نباحها عما ذى قبل.

ما أن دخلوا السوق حتى أخذ شحات يستجلى المكان، فهو يبدى اهتماماً بكل شىء. لاحظ وجود امرأتين طاعنتين فى السن، تربعتا على الأرض تتهامسان بصوت فيه صفارة، ووجهاهما متقاربان تماماً، وبدت ملاءتهما سوياً كما لو كانتا خيمة واحدة. أيضاً استطاع أن يميز صوت "فاتح" وهو يفاصل فى شراء غنمة، "وحياة ربنا أنا مش حادفلك

أكثر من خمسة وعشرين!". شاهد أيضا فتاة شابة وجهها رائع الجمال وهى تحرق فيما يجرى حولها فى السوق وأمارات السعادة والابتهاج ترتسم على وجهها الذى زينته نصف ابتسامة، كما لو كان هذا السوق المزدحم القذر هو شيء عجيب جدير بالفرجة عليه. شاهد أيضا شابا مفتول العضلات يرتدى جوالا يتجول هنا وهناك. إنه شاب متخلف العقل من قرية الكوم، النساء لم يبتعدن عنه، بل سمحن له أيضا أن يخترق صفوفهن، فمثل هؤلاء المتخلفين يقال إنهم ذوو حظوة عند الله وأرواحهم تستقر فى الجنة حتى وهم على قيد الحياة.

ترجع العجوز يوسف بجوار عجوز آخر وأخذ يجعر بصوت عال بسبب رغبته فى شراء معزة من الآخر، يفتح منديله ويخرج منه أربعة جنيهاً قدرة بكل احتفاء وجلال ثم يسلمها للآخر الذى يبدو الامتعاض على وجهه. بكل بطء يعد هذه النقود ثم يعيدها لعم يوسف ويكشر قائلًا، وقد بدت لثته خالية من الأسنان، "أربعة ونص"، فيبدو الغضب على وجه يوسف، "بس معزتك دى عجوزة! ما حدش عاقل يشتريها، حتى لو ادتهاله ببلاش!"، مال عليه شحات هامسا فى أذنه، "ادفعه، يمكن يطلع منها لحم كتير.. لكن أقولك الحق، السوداء اللي هناك دى أجده منها".

ابنة سعاد، وهى الأنسة بطة، عيونها لعوية خلف رموش طويلة ناعسة، قبضت على ذراع شحات، وسألت ما إذا كان مبلغ جنيهاً قدرا

كافيا للحمل الذى تسوقه، فرد متجهما، "أيوه مناسب"، لكن فى الحقيقة كان السعر قليلا للغاية.

حيا جمال، ابن سالم، شحات. كان هو غاضبا من أبيه لأنه باع نعجة ووليدها بمبلغ عشرين جنيها، "دا سعر وحش، كنا عايزين فيهم ثلاثين، لكن أبويا خجل وكان عايذ ينهى الموضوع بسرعة من غير خناق. وحياة ربنا لو كان معايا العشرين جنيه لكنت اشتريتهم انا ويعتهم فى الأقصر بأكثر من كده بكثير. لكن يا شحات يا خويا أنا ما أقدرش أتكلم. أبويا لسه فاكر انى انا واخويا سيد لسه عيال صغيرين. أنا وسيد ابتدينا نكره كل حاجة فى بيتنا"، نصحه شحات، "معلش، انسى. انت ما خسرتش حاجة من جيبك يا جمال، الصبر جميل. لازم تعرف إن كل حاجة حتكون من نصيبك انت واخوك سيد فى النهاية". ثم دعا شحات كلا من جمال والعزب لأن يفطرا معه، لأن كلا منهما لم يتناول صباحا سوى كوب من الشاي، أما الآن فقد تجاوزت الساعة التاسعة صباحا.

توقفوا أمام نضبة فى الطريق عليها العيش، الفول، البصل. وكما هى العادة، ازدرد شحات الأكل بسرعة بالغة، بعدها مضمض بقليل من الماء واستخدم أصبعه داخل فمه للتنظيف ثم بصق الماء على الأرض.

ذهبوا بعد ذلك للفرجة على خناقة؛ فقد اختلف رجلان على سعر شراء نعجة، وبدأ كل منهما فى استخدام عصاه والمشاهدون يحجزون بينهما وينادون بصوت عالٍ "معلش، معلش". فى الأيام التى ترتفع فيها

الأسعار أو أن يكون الطلب على شراء الغنم أو الماعز أكثر من العرض، فإن معارك مثل تلك تنشب في السوق، كثيرا ما يقتصر الأمر ما بين البائع والشارى على تبادل بعض عبارات اللعنات والإهانات، لكن البعض معروف عنهم أن الغضب قد يدفعهم لأن يحاولوا خنق الخصم، عض أنفه أو حتى قتله. في تلك الحالات النادرة، يحس المعتدى دائما وغالبا بندم فوري ويأخذ في البكاء على جثة ضحيته. الطبع الساخن الحاد هو القاعدة وليس الاستثناء في مصر العليا، إذا افترضنا أن الأمور لم تصل إلى نهاياتها المأساوية، فإن هذه الخناقات تعتبر مثار اهتمام وفرجة للمشاهدين، موضوع مفضل لكثير من الوصف عند العودة إلى المنزل.

أعجب العزب ببطة عندما مرت بجواره وهي وسط مجموعة من الفتيات الضاحكات. اقترب منها وخاطبها بصوت خافت لا يسمعه سواها، "اتكلم معايا يا جميل، ما تيجى تونسنى الليلة دى"، كانت جراءة العزب ساذجة للغاية. عندما احمرت وجنتا بطة خجلا، رمقته بنظرة غاضبة. ثم صرح لزملائه، "بصراحة صدرها تمام التمام، لكن رجلها تخينة شويتين". بينما أسرع بطة في سيرها، نادى شحات وراءها، "يا عيني، ضحكته تجزن، والودان تعشق قبل العين". رمته بطة بابتسامة دلع، فنسى كل شيء وتعجب لماذا لم يلاحظها من قبل وكيف أنها قد كبرت وأصبحت فتاة جميلة.

حول منقذ النار

فى الأمسيات، يلذ لشحات أن يتجول قليلا ثم يتوجه إلى قهوة شلتوت ليقضى بعض الوقت. ودائما ما يكون هذا المكان مزدحما ما بين الغروب والعشاء. البعض تجدهم جالسين يلعبون الدومينو، والبعض الآخر يردد بعض الأغنيات بصوت خافت، وينادون عاليا طالبين الشاى بدون الحصول عليه لأن حسابهم قد ثقل. جلس شحات ليدخن سيجارة، وأخذ يراقب مغيب الشمس. من الفندق، أمكن له أن يسمع صوت صبحى وهو يشتم أحد الخدم، "لا. انت حتشغل يا ابن الكلب، عايز ليه تروح الأقصر؟ ارجع لشغلك أحسن أقتلك والله العظيم!"

فى الساحة الواسعة أمامه، يمكن له أن يشاهد الحقول المبنورة حديثا بالبرسيم تمتد على طول التربة، لها لون أخضر يانع فى ضوء الشمس الغاربة. هنا وهناك يتحرك رجال يجمعون العلف لبهائمهم أو يروون الزرع.

على منحدر صخرى شمال المنازل تجمع عدد من النسوة العائدات من البئر وقد حملن فوق رؤوسهن الجرار، كلهن تلفعن بطرح سوداء

تغطى جزءاً من وجوههم وهن يثرثرن ويضحكن. رأى شحات بينهن أخته سماح ثم بطة التى سارت أماما وهى تنادى على إحداهن بصوتها الحاد المرتفع، كانت تلتفت حولها وتستدير هنا وهناك، ويبدو أنها رآته وترغب أن تلتفت أنظاره، ثم رأى أيضا سنية بينهن، كانت تسير خلفا وتجاهد بأن تلحق بهن وهى تلتقط أنفاسها بمشقة بالغة. كانت بطنها عالية بسبب الحمل، فعن قريب سيكون فى حضنها طفلها الأول.

استدار شحات ودخل القهوة، حيث كان هناك العجوز يوسف مصدر الإزعاج فى القرية وقد احتل كالمعتاد ركنا معينا. بذراع منحنية، بادر شحات بالتحية وخاطبه هذا قائلا، "أيوه يا شحات، أنا فى السوق اتفقت أشتري المعزة بأربعة ونص، من غير ما حد يغصبنى.. أيوه..". يقوم أبناء يوسف الآن بزراعة أرضه، كان يزعم بأنه يقوم ببيع الليمون للسائحين الذين يزورون المعبد، وإذا لم ترهقه زوجته بالشجار المستمر، فإنه يمارس مهنته، إلا أن معظم أيامه يقضى وقته فى قهوة شلتوت يشكو ويثرثر. دائما ما يخبر أى إنسان يستمع إليه بأن هناك أعداء يتربصون به، ويشكو أيضا من الإهانات التى تلحق به من الجيران، وكيف أن السلطات تسيء استخدام سلطتها، إنه إنسان مزعج، وحظه عاثر من يستمع إليه.

هذه القهوة كانت صغيرة الحجم، إنارتها براقه، حيطانها بيضاء، نظيفة، على الموائد أغطية ملونة؛ معلق على الجدران صور آيات قرآنية،

فشلتوت صاحب القهوة رجل متدين، هو وزوجته زينب كانا فقيرين للغاية، يعملان فى مقايضة الخضروات من باب لباب، لكن الآن وهما يملكان هذه القهوة، بدأ العز المعتدل يعرف طريقه إليهما. لكن صبحى دائما ما كان يتأمر مع مفتش البوليس ليقفل أبواب هذه القهوة. كثيرا ما كان البوليس يضايق شلتوت، لكن الأمور لم تتعد ذلك، فلا يوجد مسلم محترم يرضى أن يخطو داخل الفندق، الفلاحون ليس لديهم مكان آخر يتجمعون فيه إلا إذا فكروا أن يذهبوا لقرية الكوم. عندما يجد شحات أبواب القهوة مقفلة ونوافذها مسدلة، ليس عليه سوى أن ينادى، "شلتوت"، فيهبط هذا حالا من الدور الأعلى ويفتح القهوة ويضع البراد على النار ليغلى. أخبر شحات كل معارفه أن شلتوت وزينب، وهى امرأة جميلة معتدلة القوام، يقضيان كل أوقات فراغهما فى الطابق العلوى فى حالة عشق وغرام.

شفت العجوز يوسف شفقة قوية من الشيشة التى يعدها شلتوت لزبائنه قائلا، "شوف يا شحات، عارف، أنا اشتريت المعزة من غير ما حد يغصبنى، الحمد لله، أنا ما أحبش أزعل حد، وفى ساعة نحس جه حسين من القرنة، ما انت عارفه، خال الواد محمود سواق الحمير، وهو ...". أخذ الرجل العجوز ينتقل بين موضوع وآخر ولا أحد منتبه لكلامه. فصورته المهتز الذى لا يتوقف أبدا، ولطف شلتوت وابتسامه زينب الساحرة، هذه كلها مظاهر تكون جزءا خالدا من جو هذه القهوة، ويمكن أن تفتقد مثل تلك الأغاني أو الشتائم التى يتبادلها لاعبو الدومينو.

يقال إنه منذ زمن قديم، ربما منذ عشرين أو ثلاثين سنة، كان القيل والقال أكثر متعة وإثارة. فى أيام ما قبل الثورة، كان يبدو على كل إنسان كما لو كان يحتفظ داخل قلبه بسر ما، كما لو كان يعلم شيئا ما، يتوقع وقوع حدث. الجميع كانوا يتحدثون عن إعادة توزيع الأراضى المتنازع عليها مثل سنباط، وعن المقابر الفرعونية المكتشفة حديثا المليئة بالتحف والثروات، لكن الآن، ها هى الثورة قد أتت ثم ذهبت، وكل المقابر الملكية قد عثر عليها، والصراع مع إسرائيل استمر طويلا ولا تعتبر تطورات الآن مصدر اهتمام. بدا كأن القرية قد خلت تماما من الأسرار ومما قد يبعث على الإثارة؛ كل حياتهم بدت كأنها منقوشة على كف اليدين يطلع عليها كل الجيران، واقتصر جل حديثهم على لا شىء سوى المياه، العلف والأسعار.

قال شحات، "زمان أحسن من دلوقتى". ثم جلس بجوار يوسف ممسكا كوب شاي فى يده، "كان القمح مثلتل ويحطوا العيش الشمسى للكلاب عشان تاكل، دلوقتى مين يلاقى عيش كفاية؟". تفتف يوسف وأخذ يكركر بسرور، ثم خاطب شلتوت بصوته المشروخ، "شحات ده لسه ولد صغير، ما يعرفش إيه اللى كان حاصل أيام زمان، مش كده؟"، ثم التفت نحو شحات وقال مبتهجا، "أيام زمان كنا نزرع القمح والذرة وناكله، دلوقتى إحنا بنزرع القصب، وإيه كمان، محاصيل كتيرة تجيب فلوس نشترى بيها الأكل". ثم التفت العجوز نحو الجمهور مخاطبا،

"إننا دلوقتى الحكومة هى اللى واخدة بالها منا وعندينا كل حاجة. إذا مرض واحد يروح على طول على المستشفى". كان يوسف يرحب دائما بالذهاب إلى المستوصف القريب من قرية الكوم، كثيرا ما كان يذهب هناك ليحصل على القطرات له والمراهم لزوجته. أحيانا كان يذهب لمستوصف القرنة بدلا من ذلك، بل ربما ذهب إلى مستشفى الأقصر، إنه يعرف جميع الأطباء والمرضات، ولم ينج واحد منهم من ملاحقة يوسف وشكواه المستمرة وأرائه. ثم استأنف حديثه، "دلوقتى لازم الحكومة تعاملنا كبنى آدمين"، هذا ما أعلنه بينما يخطط قبضته على المائدة ويخلق فى الحاضرين كما لو كان يحذرهم من أن يعارضوه. قال شحات، "لكن بس دلوقتى الناس كتترت خالص". أجاب يوسف، "أيوه. أيوه يا شحات. انت مضبوط، أنا من رأيى إن الناس اتضاعفوا مرتين أو ثلاثة أو أكثر من أيام ما كنت عيل صغير. زمان ميت نفر ما كانوش يلاقوا حاجة، دلوقتى ميتين يلاقوا كل حاجة. راديو، تلفزيون، تاكسات - ممكن دلوقتى ناكل ونشرب على كيفنا. أيام زمان كنا ناكل الزبالة، مش كده يا شلتوت؟ مش أنا باقول الحق؟".

خلف نصبته وهو يعد الشاي، ضحك شلتوت؛ كان رجلا طويلا لطيفا قامته معتدلة، رد على يوسف وهو يهزل، "عارف، لو كان عندى قنبلة ذرية، لرميتها على بلدنا دى وابتديت من جديد". فصاح شحات، "ربنا مش حينولهاك لأنه عارف حتعمل بيها إيه". تنحنح العجوز يوسف

قائلا، "ربنا مش حينولنى أبدا فلوس كتيرة، لأنه عارف أنا حاعمل بيها إيه"، ثم أخذ يضحك بسبب النكتة التى ألقاها، بعدها استغرق فى نوبة من السعال.

قال شحات وهو يهم بالانصراف، "كلنا بكرة حنموت، كله فى علم الله"، فصاح العجوز بصوت عال كأنما يؤكد أنه من زمرة المؤمنين مماثلا فى ذلك كل من يجلس بجواره، "الحمد لله على كل شيء".

كان الجو باردا عندما وصل شحات إلى منزله، وجد كل أفراد عائلته متجمعين على شكل دائرة حول منقذ به بعض الحطب المشتعل فى الغرفة الأمامية، وقد توهج الحطب وشع دفئا محببا. بعدما ازدرد عشاء سريعا مكونا من شوربة اللحم، بصل وعيش، رقد شحات على بطنه فوق الكنبه مسندا رأسه على يديه وهو يحملق فى الحطب المشتعل. ذهبت سماح لتحضر بعض الحطب. الولدان الصغيران ومعهما بعض من أحفاد أم حامد تمددوا كالكلاب الصغيرة فى كومة، ينعسون أو يحملقون فى النار بأعين محملقة، بعدما أخذت أم حامد أطباق شحات، انسحبت إلى مكان ظليل بعيدا عن النار مرردة الله أكبر. لقد بدأت فى ترديد صلوات العشاء.

شحات نفسه لم يصل أبدا الصلوات الخمس، أو حتى كان يذهب للمسجد بانتظام، لكن أم حامد كانت إنسانة مؤمنة، بدأت أولا بقراءة الفاتحة ثم أخذ صوتها يخفت وهى تواصل صلاتها. قامت. ركعت،

جلست ورجلاها أسفلها، أحنت رأسها ومست به الأرض. وقفت مرة أخرى، وفى كل خطوة كانت تردد الآيات القرآنية. بعض القرويين يسرعون فى الصلاة جاعلين إياها نوعا من التريديد المبهم، لكن أم حامد كانت تنطق كلماتها بكل وضوح وتأن وتحديد تام. أخيرا التفتت إلى جانبيها مرددة بصوت ناعم، "السلام عليكم ورحمة الله". عرف شحات إنها قد انتهت من صلاتها، أخذ يلاحظها وهى تجلس فى هدوء تام لفترة وهى تحرك شفتيها فقط، بينما انهمكت يدها فى تحريك حبات مسبحة، فى كل مرة يسمعها شحات وهى تذكر اسم النبى، يهمس هو باستجابة، "صلى الله عليه وسلم". ما أن انتهت هى من الدعوات التى وجهتها نحو روح عبد الباسط، سمعا قرعا عنيفا على الباب، عندما فتحه شحات اندفع عبد الرحمن صديقه داخلا منقطع الأنفاس ومنفعلا، سأل شحات بكل اهتمام، "فيه إيه؟ لقيت كنز مدفون فى الأرض والا إيه؟"، فانفجر هذا الشاب الطويل الرفيع فى الضحك، وأطبق بكل جماع قلبه على يدي شحات الممدودة إليه، "أنا جيت لك علطول، أنا عارف انك تحب لى الخير، عشان كده حببت تكون انت أول واحد يعرف"، أجاب شحات، "ده صح، مش قدامك بس باقول انى باحبك، لا دا كمان من وراك". عندما جلسا أخبره عبد الرحمن أن أباه قد أعلن وهم يتعشون بأنه وافق أن يشتري له تاكسى، "قال إنها شغلانة تكسب"، ثم أضاف بصوت متهدج، "أبويا قال انه كبر خلاص، وانت دلوقتى متجاوز وعندك أولاد وبيت،

لكن أنا عايز أموت مرتاح انى عملت معاك واجب. انت كنت كويس معايا ويتشتغل جامد فى أرضنا". كان هذا أمرا حقيقيا، فبالنسبة للحصاد، لا أحد يفوق عبد الرحمن فى جده واجتهاده. أصدر عبد الرحمن تنهيدة طويلة ثم خبط شحات على ظهره - استغرق كلاهما فى ضحك متواصل وأخذا يضربان بعضهما بهزار.

لم تشارك أم حامد فى هذا الابتهاج، وعبرت نظرة قلقة استغرقت كل وجهها الوسيم، "بس يا عبد الرحمن، دى مش شغلتك! أحسن يا ولدى أبوك يشتري لك فدان أرض تزرعه، التاكسيات دايمًا محتاجة إصلاح وحتصرف كثير عليها من جيبك، وفى النهاية تتبسط لما تتخلص منه". فى الحقيقة، كان اعتراضها له مغزى آخر! فسائقو التاكسى لديهم وقت فراغ كبير يقضونه عند موقف المعدة حيث يشربون الخمر والحشيش.

ما أن رأت أمارات الهم تعبر وجهيهما، حتى رفعت يديها إلى أعلى قائلة، "أنا باقول رأيى وانتو حرين تعملوا ما بدا لكم!". اعترض شحات فوراً، "كام مرة أقولك يا أمه ما تزوديش فى الكلام؟ الراجل جاى فرحان عشان حيشترى تاكس. كلامك ده وقع قلبه وقطع خلفه". فى التو بدأت خناقة بينهما، "انت فقري يا شحات، ويتفتى فى حاجات ما تعرفش عنها حاجة. تعرف إيه انت فى التاكسيات؟ انت تعرف فى الجاموسة، الحمار، الزراعة"، انفجر عبد الرحمن فى ضحك متواصل،

وصاح وهو يخطب فخذه، "وحياة ربنا، أنا جاي عشان حد يعيننى، أتأبى انتو المحتاجين للعون"، ثم استغرق هو وشحات فى ضحك متواصل حتى دمعت أعينهما، ووقفا على أرجلهما. ولكى تجارى أم حامد هذا الموقف، أخذت تضحك هى أيضا، لكن عيناها كانت مليئة بأمارات القلق. صاح شحات ومازال مغرقا فى الضحك، "والله، لايبيع الجاموسة والحمار والأرض واشترى مرسيدس جديدة وأشارك عبد الرحمن!". أبدت أم حامد بعض أمارات الامتعاض، مما زاد من درجة قهقهتهما. وهى ساخطة، أمسكت بذراع عبد الرحمن تستبقيه ليشرب معها كوبا من الشاي، لكن هذا غمز لشحات كعلامة بأنه يود أن يخرج. كان شحات يعلم أن عبد الرحمن يتقابل مع أرملة من قرية الكوم سرا، وأنه مهتم بأن يكون فى الميعاد معها.

بعد رحيل صديقه، أخذ شحات يروى للأولاد حكاية عن رجل من قرية الكوم كان قد هاجمه بعض اللصوص، هنا استرجعت أم حامد روحها المرحلة المتشوقة، ففى الليالى الباردة، عندما يتجمع الكل حول منقد النار، كان شحات يحكى تلك الحكايات التى تدهشها بينما يتجمع أولادها حولها ويجوارها. أرسل نوبى إلى سطح المنزل ليحضر بعض حطب السمس الجاف، انضم شحات للدائرة جالسا القرفصاء واضعا يديه فوق شعلة النار، محملا فيها وهى تستهلك الحطب بشراسة. أحضرت سماح الماء، وملأت أم حامد البراد ووضعت فوق النار

التي تراقصت وهى ترسم قسما ت وجه شحات الوسيم وأحيانا تخفيه،
الجميع راقبوا الحطب يتراقص مظهراً أشباحا ورؤى.

بدأ شحات فى سرد حكايته، "دا كان من خمس سنين فاتوا، هما
كانوا اتنين حرامية أصل بلدهم جامولة، فى ليلة قعدوا متربصين ورا
تمثال ممنون القريب على النيل، وكان الوقت شتا. الضلام غطى البلد
بدرى، فى مجية واحدة ست غنية راكبة حمار. الحرامية راحوا مسكوها
وكتموا بقها عشان ما تصرخش، وسحبوها ناحية شوية شجر سنط
ونتشوا منها الكردان بتاعها وبعدين قطعوا راسها".

لم يصدر أى نفس من المجتمعين حول النار، أم حامد
وهى حريصة أن لا يصدر منها أى ضوضاء، أخذت تحرك بعض
الحطب فى النار. بعد قليل من الانتظار حتى ينتهى هسيس الحطب،
واصل شحات الحكاية، "وكان فيه واحد من سكان الكوم مارر برضك
وهو فوق حماره وشايل عليه مقطفين مليانين خضار راجع بيهم بيته، دا
كان ابن عم لفاروق واسمه محمد أبو المجد، لما شاف بعينه الى حصل
حاول يهرب، لكن الحرامية جريو وراه ومسكوا حماره وسحبوا الراجل
ووقعوه على الأرض"، ارتفع صوت شحات واعترتة نبرة فزع، "سيبوني"،
بدا وكأن حياة شحات ذاتها هى المعرضة لخطر داهم، وأكمل،
"أنا عندى عيال كثير، حيوجعوا من بعدى، أن حاديلكم حمل البطاطس
الى معايا ده، كمان البصل والطماطم، وكل الى معايا وكمان الحمار،

لكن بسم الله الرحمن الرحيم ما تخلصوا على"، وجه شحات الممتقع على ضوء المنقذ لم يعد يخصه هو، لكنه بدا كأنه روح شرير نصادف أمثاله كثيرا فى أحلامنا.

كان الماء يغلى. صبت أم حامد قليلا منه فى كوب به سكر وشاى ثم تنوقتة، همست سماح، "خلاص، كويس؟" فهمست الأم، "استنى شوية"، بينما انكمش كل من نوبى وأحمد وهما جالسان بجوار بعضهما بالكاد يتنفسان، ملأت أم حامد أكواب الشاى وقلبته ومررتها عليهم. لم يبادر أحد فيهم بالشرب بل حملقوا فى شحات كما لو أنهم يتسمعون خطوات اللصوص وهى تقترب لبابهم، لكن الحرامية ما سمعوش كلام الراجل، قطعوا راسه هو كمان، بعدين قطعوا جسمه حتت وحطوها فى المقطفين وحطوا الخضار فوق وضربوا الحمار وقالوا له "يا لله على بيتك".

ما أن رأى شحات أمارات الجزع المترسمة على وجوه الأطفال، حتى انفجر ضاحكا وهو يقول لهم، "يا له اشربوا الشاى". لكن لم تتحرك ولو أنملة من أجسادهم. لذا توقف شحات عن السرد وأمسك بقطعة حطب مشتعلة وأخذ ينفخ فيها، فبدا شكل وجهه واضحا، ثم واصل، "بعدين ظهر عيل جاى من ناحية النيل، لقي الحمار ماشى من غير صاحبه ومحمل، فسحبه وراه لبيته، لما أهله فتشوا المقطفين اتعرفوا على راس محمد أبو المجد وراحوا مبلغين البوليس،

بعدها قعد الضابط يستجوب الولد الخايف ويعصر فيه، لكن الولد اتخرس خالص. الكل ظن إنه هو اللى قتل القتيل، قال له الضابط، "انت حتتشق لأنك قتلت الراجل ده"، لكن فى اللحظة دى بالذات، طلعت راس القتيل من بين البصل والطماطم اللى فى المقطف وقالت بصوت عالى، "مش الولد هو اللى قتلنى، دول اتنين حرامية هما اللى قتلونى أنا وواحدة ست غنية، وحتلاقوها مدفونة تحت شجر السرو اللى جنب التمثالين!".

سكت شحات، ثم استأنف بصوت عادى، "الأيام دى، الراجل ده راسه مدفونة فى الكوم وقبره مكان مبروك وليه كرامات كتيرة". شاعرا بالجو المحيط بانتهاء القصة، أضاف شحات، "والأيام دى، فيه حرامية كتير من الصنف ده". أكدت أم حامد على كلامه، "أيوه صحيح. كتير، ثم اقتربت أكثر نحو النار، "كتير، كتير. غارة تشيلهم".

يميل شحات دائما لنسج مثل تلك القصص وهم متجمعون حول منقد النار فى ليالى الشتاء القارصة، فى جميعها تستمع إلى قصص اللصوص والجن والعفاريت، ولها سمات واحدة تتلخص فى إثارة الرعب والمبالغات الغريبة. بعض الحكايات استمع إليها من آخرين، والبعض الآخر ألفها هو مختلطة بخبراته الشخصية.

الحياة فى الصعيد الأعلى مخيفة ورائعة فى نفس الوقت، فمهما كانت القصة التى يحكيها شحات مرعبة، إلا أنها تبعث فى نفوس

المستمعين لها حقيقة الأحداث. ألم يهجم على منزل الحاج عبد المطلب ليلا مجموعة من اللصوص العراة، وقد غطوا وجوههم بأقنعة سوداء؟، ألم يعذب شحات عفريت له قرون وظهر له أولا على هيئة فتاة رائعة الجمال؟ ثم هل ينسى ذلك المارد المخيف الذي تصور له على هيئة عاصفة صحراوية عاتية؟ يتوقع من الغريب المتعلم أن يشعر بالملل والتشكك وهو يستمع إلى هذه المستحيلات والمتناقضات، لكن القرويين الذين قضوا كل حياتهم تحيط بهم الصحراء من كل جانب لآلاف من الأميال، خالية من الحياة وخاوية، وكذلك تلك المعابد الفرعونية الجرانيتية التي استقرت في مكانها لقرون عدة لا تتغير ولا تتبدل. لأى إنسان معزول مكانا وزمانا مثلهم، ليس من المستغرب أن يجد أن أكثر الأمور غرابة وإغراقا فى الخيال تختلط وتتشرب من الواقع المعاش.

كسر شحات ذلك الشعور المسيطر عليهم وذلك بسرد الأحداث التي وقعت معه أثناء النهار؛ مرة أخرى، كما لو كانت طبيعة ثانية فيه، أخذ يمثل حركات وهمسات كل من قابلهم. فى لحظة، هو صبحى المزعج الزاعق، الذى دائما ما يكيل سيلا من الشتائم للعاملين عنده. مرة أخرى، يتحدث بصوت عال، ثم يقبض يديه ويمسك برأسه، إنها الآن بهية بدون أدنى شك. سماح ونوبى وأحمد، بالرغم من أنهم يخشون طباع أخيهام الأكبر، إلا أنه لا يوجد أى حائل يمنعه من مواصلة سماعه وهو يقص عليهم حكاية، حتى إذا كانوا على علم كامل بما حدث.

فالسرد بفهم شحات له طعم آخر وله صبغة درامية محكمة وأكثر إثارة للاهتمام من الحدث ذاته. بالرغم من أن عادة الصدق ليست شائعة كثيرا بين القرويين - وشحات ليس مستثنى من ذلك - إلا أن هناك قدرا كبيرا من الإثارة والإخلاص في سيل كلماته المتدفق، في عيونه البراقة، حركات يديه الطويلتين، ويصبح من الصعب عدم تصديقه.

هذه الليلة، ما أن نعى كل من نوبى وأحمد، حتى حملهما شحات واحدا بعد الآخر إلى كنبته، بينما حملت أم حامد وسماح الأحفاد الصغار. ما أن خمدت النار، حتى غطى شحات نفسه ببطانية صوفية ثقيلة (بردة)، ولفترة طويلة أخذ يحملق في الدائرة الحمراء للحطب المشتعل. ما أن داعب النوم جفونه، حتى أحس بالأسى يخترق فؤاده لأنه عارض أمه في موضوع التاكسى. كان يود أن يخبرها بذلك، لكن هي الآن تغط في النوم وإذا حاول أن يوقظها فإنها لن تفهم.

قال في نفسه، "معلش، ننسى الموضوع ده"، ثم استدار ليواجه الحائط وجذب البطانية لتغطي رأسه. شعر بالنوم اللذيذ يتسلل بينما هو يستمتع بالدفء والراحة، "إن شاء الله بكرة"، ثم غط في نوم عميق.

طبعاً، إنها المرأة

يوم ثلاثاء آخر فى السوق. ذهب شحات ليقابل فاروق، الذى يختار دائماً لمجلسه مكاناً معيناً بقرب منطقة رسو المعديّة، هناك يشتري الحبوب من الفلاحين الذين لا يرغبون فى التوجه إلى سوق الغلال فى الأقصر. وجد شحات فاروق وهو يؤنّب رجلاً عجوزاً ممتطياً حماره. تعرف عليه شحات، إنه ليس سوى "مترى"، هو أحد أغنياء نجع باسيلي، وهى إحدى ضواحي قرية بيراط المسيحية.

هناك قول سائر أن عمر مترى هذا قد تجاوز المائة والخمس سنوات، مظهره يدل على ذلك؛ كان نحيفاً للغاية ومكرمش، يبدو كأنه عفريت من عفاريت ألف ليلة وليلة؛ عيناه الزرقاوان بالكاد يبصر بهما بسبب إصابتهما بالمياه البيضاء، أيضاً كان تقريباً أصم. يقال أيضاً إنه إنسان بخيل للغاية بطريقة تجعل الحاج عبد المطلب يحمر خجلاً. زوجته، المحنية، الهتماء الحيزبون، هى تقارب مترى فى السن، وقفت بجوار حمار زوجها وهى تنوح بصوت عال وذراعاها العنكبوتيتان تتحركان جيئة وذهاباً.

كان الرجل العجوز يصرخ فى وجه فاروق، "لا أنا مش عايز أبيع الفول، امشى بعيد عنى!". أخذ فاروق يضحك بينما تصرخ الزوجة فى أذن زوجها قائلة بأنه فعلا قد اتفق مع فاروق على بيعه ثلاثة جوانات من الفول بثمن قدره ثلاثة جنيهات، وأخذت تحرك النقود أمام وجهه وتتضرع له أن يعودا لمنزلهما. لكن مترى كان قد نسى تماما ما اتفق عليه منذ لحظات قليلة، لذا استمر فى المشاغبة، "إذا ما بعدتش عنى يا فاروق، حاصررخ وأقول الحقونى، فين البوليس!". احتج فاروق بقوله، "باقولك إيه، أنا اديتك سعر كويس خالص". طلب مترى من زوجته أن تخبره عن المبلغ الذى دفعه فاروق، فردت بأنه ثلاثة جنيهات. أجاب مترى، "لا. أنا عايز أربعة! أنا قلت قبل كده يا مرة إننا نطلب أربعة جنيه، الحقونا يا ناس، يا بوليس!". كان هناك رجل بوليس واقفا بجوار المعديّة، ورأى أن المستنجد ليس سوى مترى، لذا لم يهتم. عندما رفض مترى أن يتزحزح من مكانه، بدأت زوجته فى النحيب وهى تتوسل لفاروق، "من فضلك يا فاروق، زودهم جنيه كمان، وإلا حيضربنى لما نرجع البيت!".

شعر فاروق بمرح فائق، وراح يزقق فى أذن الرجل، "دا انت راجل بارد يا مترى، بقه عشان جنيه أغبر، عايز تسحب العصاية على مراتك، دا انت عندك فلوس بالكوم". أجاب مترى غاضبا، "ادينى جنيه كمان يا حرامى!". اضطر فاروق أخيرا أن يعطى جنيهها للمرأة،

"خدى يا امه الجنيه أهه. على الله ما يضربكيش". ثم قام فاروق برفع العجوز من فوق ظهر حماره مستخدما ذراعا واحدة وأخذ يمرجها فى الهواء قليلا، بينما وضع خرج مترى الفارغ فوق ظهر الحمار. مترى وهو ليس سوى مجموعة متهافتة من الجلد والعظام، كأنما هو لحم مجفف، ظل فى وضع الجلوس وهو يتأرجح فى الهواء، ثم وضعه فاروق فوق ظهر حماره، وخاطب شحات، "دلوقتى ما يقدرش يروح للبوليس ويقول فاروق سرق الخرج". ثم عدل فاروق اتجاه الحمار وصفع الحيوان على فخذيه ليتحرك بحمله، بينما يحاول العجوز بقدر الإمكان أن يتماسك ومن ورائه فاروق يودعه، "أخذت الجنيه بتاعك يا مترى؟ إنشالله يحرقك فى نار جهنم".

ضحك شحات قائلا، "كل الأغنيا من طينة واحدة، يدفنوا فلوسهم تحت البلاطة"، ابتسم فاروق، "زى النصارى ما بيقولوا، القرش الأبيض ينفعك فى اليوم الأسود". ثم اتخذ فاروق مظهره جادا، "فين يا شحات الاتناشر جنيه اللى عليكم؟ أمك سحبت بيهم شوال نتروكيما".

شعر شحات بالارتباك، لقد أعطته أمه فعلا النقود، لكن قبلما يسلمها لفاروق حدث شيء ما واضطر أن ينفق المبلغ، الآن وجد نفسه مرغما أن يعترف لفاروق بأنه صرف المبلغ، وترجاه أن لا يخبر أم حامد؛ ووعده أنه سوف يتصرف ويعطيه نقوده.

استغرق فاروق فى ضحك متواصل، ثم خبط شحات على ظهره،
"انت فقري يا شحات، صرفت المبلغ الكبير ده كله على مرة؟ مش كده؟".
يعلم فاروق تماما نوعية تلك الحماقات، ألم يفعل مثل ذلك مرارا
وتكرارا؟. استمر شحات فى تحفظه ولم يخبر فاروق بما حدث للنقود،
لكنه شعر بارتياح بالغ عندما وافق فاروق أن ينتظر وأن يظل الموضوع
بينهما. أخبره فاروق، "انت عارف إن فيه ناس كتير بيخبصوا على عند
أم حامد ويقولوا انى ماشى على حل شعري ومش واخد بالى من
الأرض، شوف بقه كد إيه أنا حاديلكم فى محصول الدرة. بس اوعى
تقول لها. لكن انت لازم لازم تسدد لى الانتاشر جنيه".

فى لحظة من الافتتان، منح شحات تلك النقود لقريبته بطة،
حدث ذلك بالشكل الآتى:

إلى أن رآها فى السوق آخر مرة، لم تكن بطة تثيره أو تشغل
فؤاده. بطة هى ابنة "سعاد" التى تسكن بجوار منزلهم. هى أيضا
حفيدة "فتنة" أخت عبد الباسط الكبرى، ولأن فتنة تلك كانت سيدة عجوز
نحيفة وتقريبا عمياء، وزوجها العجوز مريض بشكل دائم وملازم
للفراش، لذا عاشت بطة مع جديها فى البيت الواسع الذى ولد فيه
عبد الباسط لترعاهما. رأى شحات بطة وهى تروح وتجيء أثناء زياراتها
لأمها سعاد لمدة سنوات طويلة، لكن منذ أن شاغلته فى السوق، انشغل
بها وأدرك كم هى كبرت ونضجت بشكل مفاجئ.

منذ ذلك الحين كثرت زيارات بطة لسعاد، كثيرا ما كان شحات يقف فى شباك المنور عندما تسير هى فى الحارة، فى البداية كانا بيتسمان لبعضهما ثم يتبادلان التحية كالمعتاد، لكن ماذا حدث منذ أن وجهت له بطة سهام نظراتها التى ترسلها من تحت جفون سهتانة وهى تستدير مسرعة نحو باب سعاد، ثم تنفجر فى سلسلة من الضحكات اللعوب تشعل قلبه وتلهبه؟!.

بطة الآن فى الرابعة عشرة من عمرها، هو سن مقبول للزواج. هى جميلة الشكل، لدنة القوام بزوج من العيون السود البراقة فى وجه صبوح مملوء بالحياة. كانت معجبة بنفسها وذات طبيعة ملتعبة العواطف والرغبة. هى بالكاد تتمتع بالذكاء، وبالكاد أيضا تراعى مشاعر الآخرين، لكن هى كانت قمة فى الجمال.

فورا بدأ شحات فى تصويرها فى حلم الليل مثلما حدث مع الجنية فى سابق الأيام، وأصبحت هى مصدر خيالاته. فى ارتباك ظن شحات أن بطة قد سحرت له. لماذا لم يلاحظها من قبل؟ لقد سمع أقاويل عديدة تؤكد أن الشیخة دایة تربط بعضا من مسحوق مستخرج من عدد من عیدان الکبریت أو شوكة سنط تضعها داخل تحویطة، یمکن هذا العمل من أن تقوم الفتاة بكعبلة أى فتى تختاره وتشعر بالاهتمام نحوه، مما یمجله فى شوق دائم إلیها ورغبة أكیده بأن یرتبط بها، لذا فقد راوده الشك بأن بطة قد عملت له سحرا.

فى يوم، عندما رأها من بعيد، ذهب لمقابلتها فى منطقة مهجورة من الطريق خارج حدود القرية كما لو أن هذا قد حدث بالصدفة. بعد التحيات المعتادة، مشى بجوارها ثم قال بصوت خفيض، "أنا مش قادر أنتظرك كل يوم فى الشباك، أمك حتخمن انى باحك وانتى بتحبينى، وإذا سمعت جدتك بأى حاجة، مش حتخليكى تعدى من ناحيتنا. لازم ناخد بالنا. أنا عايز اشوفك، بس لازم أجى بيتكم".

ردت، "امتى؟"، كلاهما كان يتكلم بصوت خفيض خوفا من أن يلاحظهما أحد. قال، "بكره بالليل بعد العشا، حاجى بعد ما الدنيا تضلم".

"انت مش خايف؟ فيه كلاب كتير نواحيننا، دول حيهوهووا ويمكن يعضوك"

"أخاف من شوية كلاب؟ أبدا، أنا حاجيب معايا شوية عيش أحطهم فى جيبى، أبقى ارميها ليهم"

"متأكد إن ما حدش حيشوفك ويتكلم علينا؟"

"أيوه طبعا، فى الوقت ده جدتك حتكون بتصلى، ويا ريت تلبسى جلبيتك الحمرا، دى حلوة قوى عليكى". رمته بطة بنظرة متأملة، ثم ابتسمت ابتسامة جذابة، تشجع شحات واستمر فى لهجته التأمرية التى أسعدت كليهما، "بكرة وانتى بتزورى امك، أنا حاكون واقف على الطريق

ومعايا كام واحد من اصحابى ومش حامسى عليكى، كده ما حدش
يلسن علينا. لكن انا حاجى بكرة بالليل".

وافقت بطة، لكنها أضافت بحدة، "أبعد اخواتك الصغيرين عننا،
خايفه ليتجسسوا علينا ويبيوظوا كل حاجة".

قرر شحات أن يسلك طريقا منفردا ما لأن اقتربوا من منازل القرية،
لذا همس، "أنا حاكون على نار يا بطة، عشان كده بكرة نتقابل إن شاء الله".
تركت بطة أناملها تلمس كمه، ثم همست بحنان، "يا سلام، نفسى اقعد معاك
كمان وكمان، لكن لازم امشى"، ثم أسرع فى سيرها وهى تهز أردافها.

بعد ذلك، أصبح شحات يتسلل إليها سرا كل ليلة. الجدة فتنة كانت
مغرمة بشحات، لذا لم تلاحظ شيئا، ما أن تحييه وتتحدث قليلا معه،
تتوجه لتصلى أو تجلس باقى فترة المساء بجوار سرير زوجها المريض
وهى جالسة القرفصاء على الأرض تقزقز الجوز أو البندق، أحيانا كانت
تحدث فرقة هائلة وهى تكسر المكسرات بأسنانها، هنا يفاجأ شحات
ويحس كأنه يستمع لصوت طليقة مسدس. خطته الخاصة برمى العيش
للكلاب لم تكن ناجحة على طول الخط، فقد تعرض للعض عدة مرات،
والآثار ما زالت باقية فى عراقبيه.

فى ذلك الحين وقع أسيرا فى سحر بطة، بالرغم من أنه عرفها طوال
عمره، إلا أنها ازدادت حلاوة وحيوية فى نظره. عندما يجلسان سويا

وهما يتحدثان فى التراسينة المفتوحة القائمة فى سطوح الجدة فتنة، وبطة تأخذ فى التهند من كل قلبها، تشكو ظروف حياتها، أو تنفجر أحيانا ضاحكة بدلع وهى تهتز، تبرق أسنانها وترتفع حواجبها بشكل محبب مفر، هنا يشعر شحات كم هى مخلوق رائع ومملوء بالعزة والفخار.

كما فعلت بطة مع شباب القرية الآخرين، كانت أيضا تلاعب شحات كما يفعل القط بالفأر. أحيانا كانت تداعبه حتى يصل إلى درجة الرغبة الجامحة، ثم فجأة تطلق ضحكة ساخرة عالية النبرة. أحيانا تخط قدميها فى الأرض بغضب بسبب حركة متصورة، أو تدفعه بعيدا عنها وتتجهم ولا تخاطبه. ثم بدأت فى طلب هدايا منه، لذا كان شحات يأخذ كميات قليلة من مخزن حبوب أمه ويبيعها "القط".

مع ذلك، اكتشف شحات أنه لا يهتم كثيرا ببطة مثل اهتمامه السابق بسنية، فالمشاعر العميقة التى حركتها فى قلبه سنية لم تتكرر. أدركت بطة ذلك، لذا عانى غرورها الكثير. فى ليلة، وقد غمرتها مشاعر الفيرة المرة، أسرت لشحات بأنها تتواعد أيضا مع صديقه "التعبان" سرا.

أطلقت ضحكتها الساخرة وهى تقول، "ليه لأ؟ وأنا بأخذ منه فلوس ياما، كل رجالة القرنة مليونين فلوس". ما أن لاحظت التغير فى وجه شحات، حتى أسرع فى القول بصوت ناعم مثير، "لكن أنا مش عايزة حاجة منك يا شحات، مش عايزة غير صحتك"، ثم خفضت من رموشها الطويلة لتضيف، "بعض الناس قالوا لتعبان عن مقابلاتنا. هو زعل

خالص. أنا قلت له، أنا بس باتحدث مع شحات، ده ابن خالى. كمان شحات عمره ما بيدى فلوس للبنات، دول هما اللي لازم يدوله. أنا قلت للتعبان انت يظهر غيار ويتزعل بسرعة، سألته كمان، انت ليه مش عايزنى اشوف شحات؟

خجلا من فقره، أخذ شحات الاثنى عشر جنيه من أمه، التى كان واجبا أن يعطيها لفاروق، ثم رماها بطريقة مسرحية فى حجر بطة. سرت هى بهذه الحركة وأخذت تصفق بيديها وتحضنه قائلة، "انت لازم دلوقتى تحبنى اكتر واكتر"، ثم همست، "عشان انت بتبسطنى كده، ما تاخدش بالك من التعبان، أنا مش حاقباله تانى".

لكن بطة لم تقنع، فهى ترغب فى شراء هذا الثوب، وذاك العقد، لذا عادت مرة أخرى لمواعدة التعبان، وأخذت تعرض هداياه أمام أعين شحات.

كان من الممكن لشحات أن يشرح لها كيف يحصل التعبان على النقود، لكن بعزة نفس وإباء احتفظ بفمه مقفلا. كثير من المرات، كان التعبان يخبره أن السائحين الأجانب الذين يحضرون لزيارة مقابر القرنة، يبدون اهتماما به أكثر من الانتيكات المقلدة التى يبيعها، فيصحبهم إلى قلب الصحراء ويؤدى لهم الخدمة التى يطلبونها، طالما أن الدفع سيكون سخيا. هذا الأسلوب لم يكن غير شائع لكسب المال بين شباب قرية القرنة.

شحات لا يهتم كثيرا بالسواح، فى بعض الأيام وهو يقضى وقتا فى قهوة شلتوت، يلذ له أن يراقبهم يركبون أو ينزلون من الأتوبيسات أو سيارات الأجرة عند بوابة المعبد، البعض منهم نحيف القوام، الآخر سمين، قصير، طويل، ذكور، إناث، يتمخضرون فى ملابس عديدة الأشكال، علامات العز والثراء مرسومة على قبعاتهم ذات الألوان الحمراء، الصفراء، البيضاء، الزرقاء والخضراء، نظاراتهم دائما غامقة اللون، بنطلوناتهم إما طويلة أو قصيرة للغاية، الاكتاف معلق عليها كاميرات ذات أشكال متنوعة، جيوبهم مكتظة بالنقود، ويرفقتهم حقائب من كل نوع وصنف.

فى لحظة ما، تخلو ساحة المعبد التى تفترشها الشمس من أى نسمة حياة، فى التالية تشغى بضوضاء ونشاط بالغ مع سحبات كثيفة من الغبار، ويسرع أطفال القرية نحو السيّاح ممسكين فى أيديهم عرائس من القماش أو يتسولون البقشيش، وربما يحضر خادم من لوكاندة صبحى عارضا للبيع عقودا من العقيق وأنتيكات مقلدة سيئة الصنع أو بعض الخرز الحقيقى الخاص بالموميات والتى يتم العثور عليها بالملئات فى الحقول. ثم يوقظ العجوز يوسف نفسه من "تعسيلة" فى ظلال جدران المعبد، ثم وهو شبه نعسان يدور على السائحين يعرض بضاعته من حبات الليمون، ويسرع شلتوت بوضع كراس وموائد فى الظل خارج قهوته، بينما زينب زوجته، وقد أنهكها الحمل،

تتقدم بخطوات خجلة وهى تنادى، "ليمون، كافيه، تى يا مدام.. كوكا ؟ ،
فهذه هى الكلمات الإنجليزية الوحيدة التى تعرفها.

بينما يختفى السياح داخل المعبد، يتطلق الباعة الجائلون والأطفال
حول مدخل المعبد كالطيور الجارحة. ما أن يخرج هؤلاء حتى يستأنف
الباعة صيحاتهم الطويلة الضارعة ويصرخ الأطفال طالبين البقشيش،
بينما يصيح المرشدون السياحيون محددين الاتجاهات نحو الأتوبيسات
والسيارات. أحيانا ربما يتواجد رجل شرطة وييده كرباج أو عصا
يطارد بها الأطفال، وقد يلحق بأحدهم فيضاض أنين هذا إلى معجزة
الارتباك والفوضى.

"مدام، يو لايك زس ؟ إت إز لفلى. بيوتيفول، ألابستر. نوت تو
ماتش. فايف باوندرز!"

"ماى فرنذ ليدى، هاو ماتش يو باى؟"

"ميسو، أ سيجاريت ؟ فور ذا بابا ! فور ذا بابا!"

"تو باوندرز ليدى. نو مونى مور. نايس برايس فور ماى جود الله.
أوكى. يو باى؟"

بعدما تتحرك الأتوبيسات والتاكسيات، ويتحاشى الأطفال قدر
إمكانهم عصا رجل البوليس، يحصل هؤلاء الأطفال بكل فرح ومرح على
توصيلات مجانية وهم متشعبطون على "إكصدمات" السيارات من الخارج

حتى حدود القرية، ويعود يوسف العجوز ليستأنف قيلولته، ويرجع الخادم إلى اللوكاندة، ويسحب شلتوت كراسيه وموائده إلى الداخل. ويختفى الأطفال بنفس السرعة التي ظهرها بها .

يتحدث شحات بكلمات قليلة بالإنجليزية، التقطها من الاستماع للأجانب الذين يردون القهوة، لكنه لم يتحدث أبدا معهم. إذا سأل صديقه، لماذا لا يفعل هكذا، يقول، "ربنا ادانى شغلتي، أنا عندي أرض أزرعها، ليه أتكلم مع الأجانب دول وبيع لهم أنتيكات واشحت منهم البقشيش؟ خللى بتوع القرنة يمشوا معاهم. شغلتي هي انى ازرع وبس".

فى وقت متأخر من المساء، كان شحات يتسلق إحدى الهضاب التى تقع فوق الوادى وهو فى طريقه إلى عمق الوادى. لم تكن هناك ريح تهب والصقور تحوم بكسل فى الأعلى والصخور ذات لون شاهق تسبح فى ضياء شامل. كان شحات مستغرقا فى أفكاره، عندما استمع لصرخات فتاة فى مكان ما على ربة أعلى من مستواه. كانت هذه تزعق طلبا للنجدة.

بدون أن يعاود التفكير، خرج من مساره وبدأ فى تسلق الربوة. بعد لحظات، وهو مقطوع النفس وقلبه يدق بسرعة، تقدم إلى أعلى مخترقا ممرا ضيقا من الصخور أسفل قمة الربوة. ما أن اعتلاها حتى وجد نفسه فجأة وجها لوجه مع فتاة أجنبية شقراء ترفع بيديها صخرة تهم أن تلقيها عليه، لكنها تراجعت فى اللحظة الأخيرة ثم أنزلت الصخرة

وأخذت تحملق فيه للحظات، ثم صاحت بالإنجليزية، "من فضلك، انقذنى". ثم اندفعت الفتاة فى حديث انفعالى لم يفهم شحات معظمه، لكنه التقط عددا كافيا من الكلمات واللمحات مما دعاه لأن يفهم ما حدث، فهو بالإضافة إلى نظره الحاد، يتمتع بسرعة البديهة، لذا فالقليل من كلامها هو الذى لم يفهمه.

لقد سارت الفتاة بمفردها خلال الممر الضيق الهابط من وادى الملوك إلى الأسفل حيث المكان الذى تركت فيه دراجتها. كانت الصخور تحيط بهذه الربوة التى وقفا عليها والتى تلتقى بالممر الضيق المؤدى إلى مقابر الفراعنة. كان هناك طريق قد شق وسط الصخور منذ أمد بعيدة، وكل من لا تهربه الارتفاعات يستطيع أن يتسلقه صاعدا. سلكته هى وما أن كادت تبلغ القمة حتى تقابلت مع ثلاثة أولاد. خمنت أن أعمارهم تتراوح ما بين الرابعة عشر والسادسة عشر. تبادلوا التحية معها ثم حاولوا أن يبيعوا لها بعض من خرز المومياوات، ثم قدم لها أحدهم يد مومياء متغضنة أخرجها من جيبه، وآخر عرض عليها عقربا موضوعة فى صندوق ورقي. بعدما رفضت أن تشتري شيئا منهم واستأنفت صعودها، لاحظت أنهم يتبعونها بينما ينطقون بلغة عربية سريعة. ثم لحقوا بها وأمسك أحدهم بذراعها، بينما آخر أخذ يتلمس جسدها تحت البلوزة. بكل غضب أخذت تجرى وهى تدفعهم بعيدا عنها وتقول لهم بأن يبتعدوا ويتركونها لحالها. استمرت فى الصعود،

لم تبتعد كثيرا قبل أن تسمع صفيرا ونداء. عندما التفتت وجدت الولد الأكبر منهم قد خلع ملابسه وأبرز عضوه الذكري المنتصب، بينما الولدان الآخران قد التصقا ببعضهما وأخذا يتمايلان أماما وخلفا بطريقة رتيبة وقبيحة وأخذا يشيران لها أن تشاركهما. عندما التفتت أماما واستأنفت مسارها، سارعوا بالجري خلفها. تملكها خوف وذعر بالغان وأخذت تتدحرج فوق الصخور بكل ما أوتيت من قوة، وبكل جزع أخذت تبحث عن مكان يمكن أن تختبئ فيه. عندما حاول الأولاد أن يعبروا الممر الضيق، أخذت تطوحهم بالأحجار مما عطل صعودهم وبدأ أنهم سوف يغفرون المكان. كانت تصرخ بهستيريا، لذا ظننت أن شحات واحد منهم.

استمع لها شحات وأخذ يحملق فيها باندھاش، وحاول أن يكون بعض الكلمات بالإنجليزية وهو منبهر بها، فهي أجمل فتاة وقع نظره عليها. كانت عيناها مليئة بالبراءة ذات لون أزرق صاف كالسماوات ذاتها. كل حركة تصدر منها في غاية اللطف والرقّة والسحر. شعرها أصفر طويل كأنه كيزان الذرة الناضجة، حتى وهي في حالة انزعاجها تلك لم يتأثر مظهرها الجميل. كانت تلتقط أنفاسها بسرعة بالغة وترتفعش كلها. أخذ غضبه يتزايد، لذا أعوذه النطق بالحديث، لكنه استطاع أخيرا أن يقول لها بإنجليزية مكسرة، "هما.. كانوا عايزين.. يعملوا حاجة وحشة معاكي؟". عندما هزت الفتاة رأسها علامة الإيجاب، فتحت فمها لينطق بشيء آخر، لكنه لم ينبس بحرف، بدلا من ذلك، اسود وجهه، لمعت عيناها،

أصر بأسنانه، ثم أخيرا قال، "أعرف أولادا في الجبال، يحبون أن يعملوا أشياء رديئة للسياح. إذا وجدوكى بمفردك وسط الجبال، يمكن أن يصنعوا أى شىء يريدونه".

أمسك بيدها، وبصمت أخذا يتسلقان القمة التى كانت تبعد فوقهما بخمسين قدما. هى كانت تشعر براحة عميقة، لكن بوعى كامل. أخذت تختلس النظرات نحوه، كان شحات بملابسه السوداء، وجهه نصف مختبئ خلف شاله الرمادى القديم الذى التف من خلف ذقنه ورقبته بالطريقة البدوية، بعض الضباب والشعر الأسود المتدلى من رأسه مع قطرات من العرق تنازعت جبهته. كان الغضب والانفعال مسيطرا عليه، لكنه أيضا كان يشعر بالسرور. عينا الفتاة مفرقة فى الزرقة، شعرها الأصفر يتمايل بكل حرية ورشاقة، بالكاد استطاع أن يبعد عينيه عنه. بدون أى كلمة، جلسا سويا على صخرة بارزة وأخذا يتأملان الممر السفلى. أشعل هو سيجارة، كلاهما أحسا بنوع من التوحد، لذا لم يعوزهما أى حوار، كما لو أن الحديث سوف يفسد هذه المتعة. مرت عدة دقائق، ثم بعيدا أسفل الجبل، ظهر شخص بمفرده صاعدا وأتيا نحوهما. راقبت الفتاة ذلك المنظر للحظات ثم تخشبت فى مكانها، لقد تعرفت على العمة والجلباب الأبيض. صاحت بانفعال، "إنه هو"، ثم عندما لاحظت إمارات الغضب المتصاعدة فى وجه شحات، غطت فمها. قال شحات، "هو نفس الولد؟"، أجابت، "لا. لست متأكدة". لكنها فى

الواقع كانت متأكدة، لذا أضافت، "هو أيضا كان يلبس ملابس بيضاء، هذا هو كل ما فى الأمر، لماذا يعود الآن وأنت معي؟".

وقف شحات وهو متجهم؛ عندما شاهدت ملامح الغضب التى تكسو وجهه، خشيت عما يمكن أن يحدث منه لاحقا. استمر الولد فى تقدمه حتى توقف على بعد خمسين ياردة قبلهم ثم جلس القرفصاء فى الممر المواجه لهما.

قفزت الفتاة وأخذت تلوح بيديها، "اذهب بعيدا. اذهب"

همس لها شحات، "لا تتحدثي، دعيه يتقدم هنا!"

بدأ كل من شحات والولد يزعقان فى بعضهما بلغة عربية لم تفهم الفتاة كلمة منها، سأله شحات، "أنت حاولت تغتصب الأجنبية دى، دى ضيفتنا".

احتج الولد أولا، "لا. أنا ما عملتش حاجة. دول كانوا عيال تانيين".

صاحت الفتاة، "اذهب بعيدا!"

زجر الولد، "لو كانت لوحدها هنا، أنا كنت عملت اللي أنا عايزه، دا أنا حتى كان ممكن أرميها من فوق الجبل"

فى لحظة هبط شحات المنحدر، وجلبابه الأسود يطير معه، ووجهه متلبد إثر انفجار حاد فى طباعه. أمسك الولد من كتفيه، وجذب جلبابه

إليه، وخبط عمامته بيده فأوقعها على الأرض. جرت الفتاة خلفه وكادت أن تقع وهى تصيح، "لا. لا توقف. إنه الولد الخطأ، دعه يذهب"، ثم أمسكت بكثف شحات، لكنه تخلص منها بقوة، ف وقعت على الأرض. هجم شحات على الولد وعيناه حمراوان كالدم وقبضته مرتفعة على أعلى، "أنا عارفك كويس، عارف كل الناس اللي هنا ! انت عرص وناسك حرامية، وامك شرموطة!". أخذ يهز الولد بعنف مما جعل أسنان هذا تهتز، واستأنف، "يا ولاد الكلب، فاكرين إن أى واحد يطلع الجبل يمكن تعملوا فيه أى حاجة!"

تملك الذعر الولد وأخذ يئن ويتوجع ويتوسل لشحات أن يتركه ، "لا. لا أنا ما عملتش حاجة. أنا رجعت اسأل البنت دى، يمكن تحب حد يعملها حاجة، ممكن انت تبتدى الأول. ماشى؟".

بدأ شحات فى ضرب الولد بقبضته، فى ذعر حاول الولد أن يرد بضربات مماثلة وحاول أيضا أن يتفادى الضربات الموجعة لشحات.

ما أن لاحظت الفتاة أنهما فى وضع خطر قريب من حافة الجبل الهابط نحو ألف قدم فى اتجاه وادى الملوك، أمسكت بذراع شحات بكل قوتها، هنا استطاع الولد أن يحرر نفسه وأخذ يتدحرج على الصخور ثم زحف مستخدما قدميه وجرى عائدا فى الممر. لم يحاول شحات أن يلحق به. عندما بلغ الولد مسافة معقولة، التفت نحو شحات وزعق فيه، "معلش يا شحات، أنا عارفك كويس، انت عايز تاكل البنت لوحدا! اعمل ما

بدالك معاها!". صاح شحات، "أنا عارف كل الناس اللي من عينتك، الرجالة والنسوان، العيال والبنات"، ثم بصق فى اتجاه الولد بكل احتقار، "كلكم كلاب وخنازير!".

لفترة طويلة، كان الغضب ممسكا بتلابيبه بحيث صعب عليه الحديث. أمسك يد الفتاة بعنف وقادها هبوطا فى الممر. لاحظت أنه يرتعش؛ فى نظر الفتاة، كان شحات، بملابسه السوداء بالمقارنة بالصخور البيضاء اللامعة والسماء الزرقاء الصافية المحيطة بكل المنظر، كأنه شخص برز من ثنايا كتاب العهد القديم المقدس. هبطا فى سكون حتى بلغا مضربة منخفضة تعلو وادى الملوك وهنا ينقسم الممر، أحدهما يتجه نحو السهل. كان هناك على البعد بعض السائحين، لذا استعدت الفتاة لأن تشكره وتودعه. شحات وهو ما زال متجهما، نطق بأول الكلمات منذ المعركة، "كنت أريد أن اضرب رأسه بصخرة!". كان يود أن ينطق بهذه الكلمات بصوت هادئ، لكنها صدرت على هيئة صيحة خشنة محتبسة.

بدون وعى، وضعت الفتاة ذراعها حول عنق شحات، وخدها على خده وقبلته قبلة أصدرت صوتا، ثم استدارت وأسهرت عدوا فى الممر واختفت، كاد شحات أن يزغق وراءها، لكنه وقف مكانه متجمدا. أخذ يحملق فى شكلها المبتعد وتعبير من الحب والإعجاب يغمر ملامحه. عندما أخذ طريقه متجها نحو منزله، ظل قلبه يدق بعنف ويدها ترتعشان بشكل بالغ لدرجة أنه اضطر أن يضعهما فى سيالته. عنقه ما زال

دافئاً من مسكتها ، بدت كأنها قد مسحت بطيب وعطر بجوار شاربه حيث تلقى القبلة، أخذ عصب يرتعش. من قمة رأسه حتى أخصص قدميه، كان غارقاً في نشوة وشعور لم يألفه من قبل.

فى وجبة الغذاء، أخذ يأكل ويشرب بطريقة آلية ما وضعت أم حامد أمامه، ولم يسمع لأى كلمة نطقت بها . بسرعة ترك الطبلية قبلما ينهى أكله ثم أسرع نحو المكان الذى تركته فيه الفتاة، بعدها توجه إلى وادى الملوك، ثم إلى معبد حتشبسوت وناحية مقابر الأمراء، وقضى باقى النهار يبحث عنها بلا جدوى، تخيل أنه قد يقابلها مرة أخرى، ثم يقعان سويا فى غرام مشبوب، وربما يلزمها فى بلادها البعيدة حيث تعيش، بل ومن الممكن أن يصبح زوجا لها، ثم عاد للمنزل مع هبوط الظلام، فاقد الأمل، متعباً، معتبراً أنها سوف تكون معجزة حقيقية أن تقع عيناه عليها مرة أخرى.

لعدة أيام بعد ذلك، كان شحات يسبح فى بحر من العذاب، أصبحت طباعه خشنة وميالة للعراك لآتفه الأسباب. شكت أم حامد بأن هناك من سحر له. عندما لا يكون منهمكا فى العراك مع أحد ما بالمنزل، لا يفعل شيئاً سوى أن يدور داخل البيت وهو يصفر بفمه، ثم - متذكراً المنظر فوق الجبل، يقف فجأة فى مكانه ساكناً لا يتحرك، غارقاً فى أفكاره، مثبتاً نظره فى الأرض. كان فى حالة غياب غريب عن الوعي وطباعه شرسة، لدرجة أنهم وهم يتناولون العشاء ذات ليلة،

انفجر في ثورة مجنونة بسبب مضايقة تافهة، فقلب الطبلية رأسا على عقب، فاندلقت الصحن وكل شيء وقع على الأرض.

عندما سمع أن بطة تتواعد مع "التعبان"، لم يهتم، وأخذ يتمتم وهو غير منتبه، "بطة دى جاموسة". عندما رأته بطة فى السوق، استوقفتها قائلة، "انت مش عايز تتحدث معايا ليه يا شحات؟ وليه بطلت تيجى بيتنا؟"، فأجابها وهو راغب فى أن يبتعد عنها، "أنا ما عنديش وقت، مشغول فى الأرض".

"تعالى الليلة، نقدر نتكلم سوا"

"لا. أنا ما عنديش وقت"

ذهبت أم حامد للشيخة داية التى قدرت أن شحات قد ناله عمل ما، ثم أخبرت أم حامد أن ترجع لبيتها وتبحث ما بين الطوبة الثالثة والرابعة من الأرض يسار عتبة الباب، هناك وجدت أم حامد قالب طوب سائب، بتحريكه وجدت قطعة ورق ملفوفة على هيئة مثلث صغير وملئ بخطوط حمراء غريبة الشكل. عندما شاهده الشخة داية قالت إنه ليس سوى حجاب أعده قس قبلى مشهور بأعمال السحر. أخذت كلتا السيدتين فى تلاوة بعض من آيات القرآن الكريم، والشيخة بدأت فى تبخير البيت كله وأنشدت تعزيمًا يطرد العمل الشيطاني المذكور فى الحجاب، ثم طلبت من أم حامد أن تحرق هذا الحجاب أثناء صلاة المغرب.

عاد شحات ليصبح مطواعا، لكنه مع ذلك لم ينس تلك الفتاة ذات
الشعر الأصفر التي أنقذها وقبلته يوما . لفترة طويلة، متذكرا تلك
اللحظات التي قضاها معها فوق الصخرة، استقر في يقين شحات أن
بقاءه في تلك القرية ومعيشته فيها ليست سوى ضياع ومضيعة للوقت
وكلها يؤس وشقاء.

عالم الكفاية

الحياة فى القرية محكومة بالمواسم، عندما نضجت الذرة الشامية وأصبحت جاهزة للقطاف، كان شحات يتوجه يوميا إلى سنباط لكى يحش حملا من أوراق الذرة وشواشيها ليقدمها علفا لجاموسته. مثل كل الفلاحين، يدخل شحات إلى قلب الأرض المنزرعة حافيا، فالأحذية والصنادل تترك خارجا. ويسبب الحر الشنيع الذى يحس به الفرد وهو وسط أعواد الذرة الطويلة الكثيفة حيث يندر وجود الهواء، يخلع الفلاح جلبابه وعمامته ويعمل مرتديا ملابسه الداخلية. وطالما أن الفلاحين كانوا قد هجروا ارتداء السراويل الطويلة القديمة، لذا تتكون الملابس الداخلية الحالية من قميص أبيض بلا أكمام، صديرى باهت الزرقة كثير الأزرار، لباس قطنى سائب أبيض اللون يصل حتى ركبتيه.

كان فاروق على حق؛ الذرة الآن جاهزة للحصد. أخذ شحات يفكر متى سوف يذهب لمفتش الزراعة لكى يحصل على موافقته على بدء حصاد أرضه، إنه أيضا سوف يستأجر جملين أو ثلاثة لكى يتم تحميل

المحصول إلى جرن فاروق فى الكوم. وكما هى العادة، سوف تتجمع كل من أم حامد ونسوة أخريات لكى يفصلن بنور النرة، وعلى العكس مما يجرى فى الوجه البحرى، فإن هذا هو العمل الوحيد الذى تقوم به نسوة الصعيد. عمل شحات بكل سرعة ممكنة، كما كان يحدث دائما وهو فى الحقل. هو يلقى بحمل ذراع بعد الآخر من الأوراق الخضراء فى كومة على الجسر المخضر بالحشائش. بعدما جمع القدر الكافى الذى يمكن للحمار أن يحمله، أخذ بكل حرص يختار عددا كافيا من الكيزان الصغيرة لكى تقوم أم حامد بشيها، ثم تبسم وهو يتذكر كيف أن أخويه الصغيرين، نوبى وأحمد سوف يتعاركان بسبب رغبة كل منهما فى الحصول على النصيب الأكبر. كان لدى شحات العديد من الأمور التى تحتاج للحسم. عليه أن يستأجر بقرتين لكى يحرق الأرض بعد الحصاد لكى يبذر المحصول التالى، لقد أخبره المفتش بأن عليه أن يزرع العدس هذه السنة بدلا من المحصول الشتوى التقليدى وهو القمح، الذى سوف يقوم معظم جيرانه بزراعته. كان مهموما أيضا بسبب الدين الذى عليه لفاروق وهو اثنا عشر جنيها. لقد اكتشف أنه كان فى منتهى الغباء عندما منح هذا المبلغ لبطة بينما هو يعلم يقينا عدم قدرته على اكتساب هذا المبلغ فى وقت قصير.

مع الكثير الذى يشغل فكره، جلس محتارا متوترا على جانب الترعة الأخضر، ثم أشعل سيجارة كليونياترا وأخذ يحملق فى الماء.

فجأة لاحظ أن هناك أسماكاً صغيرة تتوثب بعضها لا يزيد حجمه عن عقلة الإصبع، والبعض الآخر يزيد طوله عن بوصتين أو أكثر، ثم فكر، أنه عندما تنخفض مياه هذه التربة، سوف يجعل كلا من نوبى وأحمد يساعده فى عمل سد طينى يحجز الأسماك الكبيرة فى بربخ، ثم انتبه عندما لاحظ أن هناك شعبانا يسبح من شاطئ إلى الآخر فرمى عليه حجرا، لكنه سرعان ما اختفى هذا.

شعر فجأة بالجوع يقرصه، لذا أخرج من جيبه قطعتين من الخبز وبصلتين وبدأ فى تناول طعامه. هو يشعر بالحر الشديد الذى يزمجر ويشتد فى منتصف النهار، ويزداد وطأته خاصة بعد تناول الطعام. تمدد شحات على النجيل الأخضر مستمتعا بالهدوء والسكينة، لكن هذا لم يستمر طويلا، فبعد دقائق قليلة ظهرت طائرة هليكوبتر تطير فوق رأسه قادمة من جهة الصحراء الغربية. أخذ يستمع لطنينها الرتيب ثم ظل عينيه وأخذ يراقبها وهى تتجه نحو النيل. ثم سمع صوت البط- بط الصادر من ماكينة رى ، حيث بدأ شخص ما فى تشغيلها لتسحب من ماء التربة، كذلك سمع صوت خشخشة الماء المندفِع من الأنبوب. استند بيديه على العشب واختلس النظر نحو ذاك الذى يروى أرضه الآن، فشعر بهواء بارد يلفح وجهه. لاحظ أن الماء المندفِع من الأنبوب صاف تماما وهو يصب فى قناة صغيرة ويلمِع بشكل براق فى ضوء الشمس. هذا جعله يشعر بعطش شديد، لكنه يخشى من شرب هذا الماء خوفا

من ديدان البلهارسيا التى تعيش داخل القواقع ويكثر وجودها فى القنوات المائية لا سيما بعدما جعل السد العالى من الممكن رى أراضى الصعيد طوال العام. كل من نوبى وأحمد يشعران بضعف عام وإعياء مستمر بسبب إصابتهم بهذه اللعنة، وكثيرا ما كان الدم يظهر فى بولهم.

من مكان بعيد، سمع حمارا ينهق، لذا أخذ يختلس النظر نحو حماره مفتشا عما إذا كان قد انتبه لهذا النداء أم لا، فهو يعتقد جازما أن هذا النهيق صادر من حمارة تطلب رفيقا. ككل الفلاحين، كان شحات يؤمن بأن الحيوانات تتخاطب مع بعضها بلغة تخص كل نوع، كذلك تفعل الطيور، فبالنسبة لإنسان ما قد يظن أن صوصوتها لا معنى لها ، لكن هى فى الواقع ليست سوى تعبير عن الحمد والشكر لله !.

الخيرير الناعم للماء وصوت الطلمبة الرتيب، لم يكسرا الجو الهادئ أو يثيرا الهواء الكسول الذى يتخلل عيدان الذرة الطويلة ويجعل شحات أكثر شعورا بالنعاس، لذا أخذته سنة من النوم، ثم استيقظ فجأة ووقف على قدميه دفعة واحدة لكى يطرد النوم، ثم وضع أحماله فوق الحمار وتوجه نحو منزله. أخذ وهو سائر يهز رأسه ويدعك عينيه، التفت ناحية الغرب حيث توجد قرية الكوم، التى ارتفعت منازلها فوق تل اصطناعى تكون من بقايا قديمة لمنشآت كانت عامرة يوما ما فى الأزمان القديمة، لذا كانت هذه القرية واضحة تماما للعيان. على الحدود الشرقية لبلدة

سنباط القديمة مختبئة خلف غابة من أشجار السنط والأكاسيا، يقع الميدان الجديد، أيضا المباني البيضاء للمدرسة الابتدائية الحكومية، بعدها المستوصف، مكتب مفتش الزراعة. لكن الكوم هي القلب النابض لقرية بيراط، هناك يوجد منزل العمدة، السجن، الكتاب حيث حفظ شحات القرآن عندما كان صغيرا، وتوجد أيضا المقابر حيث دفن عبد الباسط، ثم منازل كل من فاروق، الشيخة داية، فاتح، لمى ومقهى عبد اللاه. الآن وتحت أشعة الشمس الحارقة، لا يعثر المرء على أى مظهر من مظاهر الحياة، كما لو أن الكوم قد هزمتها الحرارة. على يمين الكوم توجد بقايا الحصون الجرانيتية لمعبد رمسيس الثالث وكذلك الهضاب التى تظهر فى الخلف وتحت هذه تمتد سلسلة لا تنتهى من أشجار السنط والأكاسيا التى تمتد على طول التربة والتى تخفى منزل شحات المبنى بالطوب اللبن.

أحيانا يذكر رجال المدينة أن كل قرية فى مصر هي شبيهة بزميلتها، لكن بيراط هي الكون كله فى نظر شحات، فالحقول ذات المنظر البانورامى المحيطة بها، وسنباط القديمة مع الكوم ، جميعها تعتبر قلب بيراط، وحولها تناثرت عشرة نجوع بأهلها المغرقيين فى القدم، كونت فيما بينها جميعا تلك القرية العملاقة. خمسة من تلك النجوع اشتقت أسماؤها من جدود بعض من سكانها الحاليين، فنجد هناك: لوهلة، عزوز، توت، عزبة، بالإضافة إلى التجمع المسيحى الوحيد وهو نجع باسيلي.

النجوع الخمسة الأخرى سميت على أساس خصائص مكانية وهى:
القطر، السوق، الجزيرة ، الحلقاية وأخيرا قرنة مرعى.

انخفض عدد سكان هذه القرية خلال أيام الحرب العالمية الثانية بسبب الملاريا والكوليرا. لكل هذا فإن بيراط بكل نجوعها لم تعان أبدا من الازدحام الشديد الذى تعانى منه القاهرة أو بعض بلدان الوجه البحرى، حيث تعتبر الكثافة السكانية هى الأعلى على مستوى العالم. فى أيام الزمن القديم، كانت السهول الطيبية أكثر ازدحاما. المعابد الفرعونية كانت تستوعب ثمانمائة ألف من العبيد، وكان هؤلاء سجناء حرب.

نصف سكان بيراط لا يملكون أرضا يزرعونها، ومن يملكون لا تزيد حيازتهم عن فدانين؛ استثناء من ذلك لمعى الذى حصل والده من إحدى عمات الملك فاروق على مائتين من الأفدنة قبل أيام ثورة ١٩٥٢، الآن وبعد تطبيق قوانين الأراضى الزراعية، يمتلك لمعى مع إخوته خمسين فدانا ويعمل فى أرضه خمسون عاملا زراعيا، يتفوق عليهم لمعى فى الجد والاجتهاد.

فى نظر شحات، كل ما تقع عليه عيناه له طعمه ونكهته الخاصة، وله قيمة ومعنى يفهمه هو. هنا المنارة البيضاء، هناك تجمع عجيب لمجموعة من النخيل، كل حقل يستطيع أن يتعرف عليه بكل سهولة سواء بموقعه بالنسبة للترعة أو بأبياره أو بأشجاره. كل هذه الأمور يدركها شحات بلا وعى أو جهد عظيم، ويحس بها من رائحتها أو صوتها.

بالنسبة له كانت يبراط ليست فقط هي ونجوعها التي تكون مجتمعا متكاملا، وسبعة آلاف من البشر ينتظمون على أساس العلاقات، العائلات، القرابة، الروابط، الحقوق، الالتزامات، العصبية، العداوات والصدقات، كل هذه أمور مفروغ منها. مع ذلك، وهو يجول بناظره في كل هذه الأمور المحيطة به التي اعتادها وتعايش معها، كان يشعر بغبطة ساذجة قوامها الرضا والحبور.

فراشة صفراء أخذت ترفرف بأجنحتها بالقرب منه، ثم استقرت على فرع من نبات الحنة. أخذ شحات يحملق في هذا الفرع، متناسيا كل خيالاته، ثم تملكه شعور غريب، فركع على الأرض مستندا على ركبة واحدة، وركز بصره على تلك المنطقة، ثم بكل بطء رفع الفرع بيد واحدة، وثنى الفرع الآخر، ثم فجأة نفخ أمامه، وخبط يديه قاصدا الإمساك بشيء واقف فوق الفرع.

صاح بفرح وبهجة أيام الصبا، يا راجل. فتح يديه ووجد بداخلها جعران كبير، ومتخيلا أن هذه الحشرة قد يسرها ما قد يفعله بها، أخذ يربت على ظهرها الأصفر والأسود ويتحسس شواربها. كطفل صغير، كان شحات يصنع عجالات من لب نبات الذرة، ثم يثبت فيها جعرانا وذلك بثقب غطائها الخارجي بشوكة سنط. الحشرة وهي تجاهد للتحرر، تفرد أجنحتها وتطير بكل ثورة في دوائر، وبذلك تدور العجلة كما تفعل البقرتان في الساقية. أحيانا كانت خنفسة تحقق نفس القصد من هذه اللعبة،

بل وتستمر في الدوران لساعات أطول؛ ولا يملّ أطفال القرية أبداً من تكرار هذه اللعبة. حرر شحات هذه الحشرة، فطارت سريعا محدثة صوتا واضحا؛ مماثلا لقدماء المصريين الذين صوروا الجعران على جدران معابدهم، كان شحات يعتقد أنها كائنات مقدسة ومبروكة.

استعدادا لتحميل العلف الذي جمعه، أخذ شحات يحملق في الماء السارى المتدفق من طلمبة الرى، ثم قال بصوت عال، "يا ربنا، دا أنا لو لقطت البلهارسيا، حانام فى المستشفى يمكن شهر والا اتنين"، مع ذلك وضع فمه بشكل ألى فى الماء الجارى وأخذ يبلع قدرا كافيا ليطفى عطشه، ثم، وقد تحقق له ذلك، أخذ يرشف الماء بتأن، حتى سرت البرودة التى يحسها فى فمه داخل سائر جسده، أما ملابسه، فقد أصابها قدر لا بأس به من الماء.

فى تلك اللحظة سمع غناء خفيفا، فى مكان ما، بعيدا تماما. كان هو صوت فتاة يتناغم مع الأزيز الصادر من حركة دوران ساقية.

"يا لوبلى يى يى، يا لوبلى يى يى"

حبس شحات أنفاسه. أخذ يتسمع وقد تعرف على الصوت. خلال أعواد الذرة الطويلة، أخذ الصوت يميل مرة إلى جهة اليمين وأخرى جهة اليسار، أحيانا يسرى فى الهواء أو يبدو كأنه صادر من جوف الأرض، كما لو أن هناك جنيا خفيا له دور فيما يحدث. فى غنائها، كانت المنشدة

تحت أحدهم بتصديق أنها لا يمكن أن تلام أبداً، وبكل ما تملك من عاطفة، تود أن تحيا وتعيش. هي ما زالت صغيرة ومغرمة به، وسوف تكون جميلة وريحانة لولا هذا الحر الشديد، الريح الصحراوية الجافة، العمل الشاق الذي لا نهاية له. إنها لا توجه لوما لأحد، لكن تطلب السماح، تعاني ألماً ووجداً، تأمل فيمن يرحمها ويأسف لحالها...

"يا اللي ورا بحر النيل، خد بايدي، خد حبي وقلبي..."

إنها ليست سوى سنية. أخذ شحات يصغي لحدائها فترة طويلة، فجأة أصبح الحقل الذي افتقد نسمة الهواء، أكثر حرارة وسكوناً وقسوة، ثم أخذ ينددن بصوت عال كأنما يريد أن يغطي على صوتها، ثم انتصب ووضع ملابسه خلفه، ثم لاعتنا حماره، حملة بربط العلف. ما أن وازن الأحمال، حتى قفز على ظهره أيضاً وأمره بأن يسير، "اطلع، اطلع".

عندما وصل إلى حدود طريق العربات المجاور للترعة الرئيسية التي تمر خلال سنباط، أخذ يحملق خلال شراشيب نباتات الذرة حيث توجد سنية، رآها بملابسها السوداء جالسة بجوار الساقية تحت بعض النخيل على طرف الحقل. الساقية كانت تدار بواسطة بقرتين لونهما بنى، وكان واضحاً أن من كان يغنى هي سنية نفسها. أثناء مروره، لاحظ أنها فككت إيسار البقرتين وانهمكت في سقيهما الماء، لم يكن متأكداً إذا كانت قد لمحت أم لا، ثم أتت بعض الأشجار حجبت عنه منظرها، ولم يعد يراها.

تذكر وهو يسير كيف أنه بحلول شهر أغسطس من كل عام، كان النيل سابقا يفيض على الجانبين، وكانوا يصيدون سمك القرموط الصغير ويضعونه فى ساقية عبد الباسط القديمة. فى الربيع، عندما ينخفض مستوى الماء، يذهب هو وسنية إلى الساقية، ويرقب السلسلة الطويلة من الجرار التى تثبت على عجلة خشبية أفقية وهى تغطس عميقا فى البئر، ثم تمتلئ ليس فقط بالماء، بل بأسماك القرموط الكبيرة. يمسك بها شحات، وتقوم سنية بتنظيفها، ثم تشعل نارا وتشويها بدون ملح. هناك بجانب الطريق المجاور للترعة ، يجلسان سويا ويتمتعان بوليمة سرية ممتعة. كان هناك حطام لعجلات فرعونية خاصة بجلب المياه وجدت مدفونة فى أرضية المعابد، ومرة شعروا بإثارة بالغة عندما لاحظوا وجود بعض الرسوم المنقوشة على إفريز حجرى يمثل سمك القرموط، قالت سنية عندما شاهدت تلك الرسوم، "يظهر إننا أخذنا منهم كل حاجة كانوا بيعملوها"، بعدها أطلق عليها شحات اسم الفرعونية، وهذا كان يغيظها ويفرسها. تذكر أيضا أن سنية فى صباح أحد الأيام، وهى ترقب بزوغ الشمس التى تغمر الهضاب الشرقية، أنها قالت، "الأرض كلها مبسوفة من الشمس، ويتقولها متشكرين!"

الآن، هناك القليل من الناس الذين يستخدمون السواقي، وقريبا سوف تلد سنية طفل رجل آخر. بدأ شحات فى ترديد نفس اللحن الذى كانت تشدو به سنية، لكن بكلمات أخرى كان قد ألفها سابقا، ليعبر بها عن حبه لها عندما كان يجهد نفسه ليلا فى تشغيل ساقية أبيه.

أوه، أوه، يا بنت يا حلوة يا مبسوبة
دلوقتى انتى نايمة، وأنا الفقير
عمري ما اعمل لاجل المال، دا انا المختار.
يا بنت، يا للى كلك حلوة وشهد،
تعالى وطفى على بالليل
شوفى معايا النجوم اللى مالية السما
بصى جوه عينيا،
ده بير ما له قرار
لأجلك، نسيت صحابى، كمان بقرتى
اللى دايره طول الليل
دى مش عايزه منى غير البرسيم
أنا غلبان يا بنت يا نعسانة وفى جيبك المال
لكن انا إنسان حر
وانتى نايمة وكسلانة ولا حاسة بحاجة
ما تيجى وطفى على وقت الليل...

التجمع المسيحى الوحيد فى بيراط، هو نجع باسيلي يقع جنوب غرب القرية على حافة الصحراء. ولأنه بعيد عن النيل، لذا تعتبر أراضيها الزراعية فقيرة للغاية. باستثناء مئردى وبعض القساوسة، نجد أن معظم المزارعين فيه لا يملكون سوى فدانين من الأرض أو أقل. كانت باسيلي تلك هى مقر المسيحيين، ويقال إن هذا حدث منذ بداية انتشار الديانة المسيحية أيام قدوم القديس مرقس إلى الأراضي المصرية. كان مستقر كنائسها البيضاء بعيدا فى الصحراء، واستخدمت منذ أجيال مفرقة فى القدم، قد تمتد إلى أيام حكم الرومان لمصر. العائلات القبطية فى باسيلي منعزلة وعلى فطرتها منذ قرون عديدة، وتعتبر من أكثر الناس جهلا وفقرا بالمقارنة بباقي أهالى بيراط.

يوما، كان شحات يمر فى الطريق المجاور للترعة المارة بنجع باسيلي، عندما سمع صيحات غاضبة. ثم رأى زكريا، وهو مزارع مسيحى، يجرى نحوه ومعه فأس يرفعها عاليا فوق رأسه، وتتبعه امرأة عجوز وولد صغير يصيحان من ورائه، "لا، انت ما تقدرش تسد الميه اللى بتروى زرعنا"، يلتفت زكريا ويرد، "أنا زيكم دافع، وأرضى جنب الترعة، أنا اللى لى الحق أروى الأول. صاح الولد، "والله ما تقدر"، ثم لحق بزكريا ورفع أيضا فأسه كأنه سوف يهم بجز رقبتة. رد زكريا، "لا. أنا أقدر، وأقدر كمان، يا ناس الدرة عطشانة وحتموت!". قالت السيدة العجوز، "استنى لما نخلص رى أرضنا، بالعافية أو الذوق حناخد نصيبنا"

تعرف شحات على المرأة العجوز، إنها زوجة عم زكى، وهو مسيحي آخر متواجد حاليا فى القاهرة يعالج من إصابته بالسل.

حرك زكريا فأسه فوق رأس الولد، "حاضريك ! امشى بعيد. مستعد أدخل السجن بسببك". رد الولد: "حاقطع راسك يا زكريا". أخذ الولد يرتعش والعجوز تصرخ، أدار زكريا ظهره وأسرع بخطوات متعجلة واسعة تجاه التربة وبدأ فى إزاحة الطين من السد، جرت خلفه زوجة زكى وهى تنهج، بينما استقرت طرحتها فوق كتفها.

"أنا مش حاخليك تاخد المية بتاعتنا، يا ابن الشيطان!"

"يا ولية، خليكى عاقلة وبطللى جنان"

ما أن أحس شحات بإمكان حدوث مشاكل حقيقية بينهم، أسرع نحوهم يتبعه بعض الفلاحين الآخرين الذين كانوا يحرقون حقلا مجاورا. فى الحال، بدأ الجميع يتصايحون فى وقت واحد، ولعن كل من الأمهات والآباء من كلا الجانبين، وترددت صيحات متعددة مثل، "يا ابن الكلب"، "يا خنزير"، "يا حمار"، "يا غبى". أخذ كل من شحات والآخرين يهدثون الموقف بترضية كل من الطرفين، "معلش، سماح المرة دى". لكن عندما وضع تماما أن الضربات آتية لا ريب، لاحظ الجميع أن زكريا والمرأة العجوز والولد انتحوا مكانا بجوار الجسر وجلسوا بجوار بعضهم، وبدأوا يتحدثون فيما بينهم بكل هدوء، كأن شيئا لم يحدث بينهم،

أو كأنهم هم المشاهدون لأحداث تجرى أمام عيونهم. قالت امرأة زكى،
"المرّة الجاية، لما الحاج عبد المطلب يدينا الميه، لازم كل واحد ياخذ وقته
بالتمام والكمال، وبعدين التانى ياخذ دوره، لكن مش بالشكل ده،
خناقات وضرب، دا مش كويس خالص يا زكريا".

أمن زكريا على كلامها، وأضاف بنفس الأسلوب المهذب، "دا أنا
قعدت ثلاث أيام منتظر دورى، الحاج بنفسه قاللى أبتدى أروى، والعامل
بتاعه بنفسه نده على وقاللى أبتدى أروى". شرح أحد الجيران الموقف
لشحات، "لمدة ثلاثة أيام، الميه كانت شحيحة خالص، إحنا قلنا للحاج
عبد المطلب اكمنه هو اللى بيملك المكن، إننا كلنا بنتخانق بسبب الميه،
وهو السبب. مش بيخلى الميه تجرى بسرعة فى الطلمبات، دا راجل
جلدة، عشان كده الميه جاية بالسرسوب وما حدش بياخذ نصيبه كفاية،
وكده تحصل الخناقات. قلب الحاج عبد المطلب ده أسود غطيس".

قال شحات وهو جالس على الجسر يعفر سيجارة ويعزم على
جيرانه، "دا راجل غنى وبيموت فى الفلوس، امبارح بس، جات بنته نادية
لدكان عم برشومى عشان تشتري ربع كيلو طماطم ودفعت أربعة صاغ،
لكن لما رجعت بيها لأمها، اشتكى أبوها وقال انهم غاليين، وخلها ترجع
بيهم تانى".

تنهد زكريا قائلاً، "دا بيكنز فلوسه تحت البلاطة"

قالت زوجة زكى، "بيخاف يا خويا يحط فلوسه فى البنك، لبعدين تعرف الحكومة قد إيه هو غنى، وتقوله ادفع ضرايب".

استمر شحات فى روايته، "وبعدين حضر لدكان برشومى الواد "العزب"، ما انتو عارفينه قد إيه هو فقران وكحيتى ومضطر انه يشتغل فى أرض الحاج، قام العزب اشترى بطاطس وطماطم تمنهم خمسة واربعين قرش، لكن هو دفع خمسين قرش. خمس قروش بحالهم اعتبرها بقشيش".

قالت العجوز، "هو دا الحاج عبد المطلب، ومش حيقدر يغير دمه"
"كل يوم، كل يوم .. أنا فى رأى الساقية أحسن ستين مرة من المكن يا شحات، الميه اللي طالعة منها سخنة، وممكن تستحمى بيها كل يوم، أنا عارف الساقية دى من أيام أبويا وجدى، باشتغل عليها طول النهار، من الفجر للمغربية".

قال شحات، "إحنا فى الصيف بنشغلها بالليل"

"أحسن طبعا تشغلها بالليل"

"وكمان لازم نغنى واحنا بندورها"

"أنا لسه باعمل كده حتى اللحظة دى. ربنا يصبرنا، أراضى كلها عبارة عن رملة. ما ينفعش يتزرع فيها غير الطماطم، البطيخ والفول. بس اعمل إيه يا رب. دول تمن عيال والتاسع فى السكة"

ضحك شحات، "الستات الأيام دى بياخدوا حبوب عشان ما يخلفوش، الناس دلوقتى مخهم فى راسهم ولازم يعملوا كده عشان يمشوا الحال، ازاي انت قادر تعيش التسعة دول؟"

قال زكريا، "أرضنا يا شحات كويسة خالص، بس إحنا اللي كسلانين. ما عدناش نخدم الأرض كما يجب. المفروض الحكومة تساعدنا أكثر. دا انت لو دورت على شوية نتروكيما دلوقتى ما تلاقيش. المفتش يقولك تعالى الأسبوع الجاي. إذا ما كانش معاك فلوس تشتري من السوق السوداء، يبقى انت رحت بلاش. أيام ما كان لسه فيه فيضان، عمر ما الأرض احتاجت للنتروكيما ده".

قالت زوجة زكى، وقد نسيت تماما الخناقة، "كلام زكريا كله حكم"، وافق شحات على كلامها قائلا، "أيوه كلامه صحيح، الأرض بتبقى ضعيفة، بعد خمس سنين يمكن ما يتزرعش فيها حاجة"، ثم أكمل ضاحكا، "انشالله الدنيا كلها تموت!".

قال زكريا مبتسما، "أنا لاحظت إن زرعة الحاج عبد المطلب مش تمام. ضحك شحات، "دا مش عايز يصرف قرش من جيبه، عايز الزرعة تطلع سكيّتى كده لوحدها، عشان كده هو غنى، أنا سمعت انك يا زكريا لما بتروح الكنيسة بتملا جيبك من العيش اللي بيعملوه هناك عشان تاكل عيالك".

ترك شحات جيرانه المسيحيين وهو سعيد ومنشرح، وتوجه إلى منزله متتبعا الطريق المجاور للترعة. كان ماء هذه الترعة يعكس لون زرقة السماء، وبدت المياه فى ذلك الحر الخائق كأنها تدعو الجميع ليسبحوا فيها. تخلص شحات سريعا من ملابسه، وهبط حتى مستوى الماء، ثم قفز.

كانت مياه الترعة باردة منعشة. أخذ يعوم تحت الماء لفترة، ثم بلبط هنا وهناك. عام على ظهوره وهو يغمض عينيه شاعرا بسعادة غامرة. بعض الأولاد الصغار، كانوا يلعبون بجوار مسجد الحاج عبد المطلب رأوه فأتوا جريا وبسرعة خلعوا ملابسهم وقفزوا فى الماء وهم يطلقون صيحات مرحة. حالا أصبحت الترعة الهادئة مجالا للصيحات والقفزات والعطس، وأخذ شحات فى مطاردة ولدين صغيرين عوما، هما ولدا عمرو، مؤذن القرية، الذى يؤذن فى الجامع خمس مرات فى اليوم داعيا الناس للصلاة. استمر الأولاد فى الصياح والحبور وهم يمثلون كأنهم سوف يغرقون، ثم طاردوا شحات محاولين الإمساك بقدميه لتغطيسه وإغراقه.

أخذوا يصيحون، "امسكوا شحات، طبوه"

زاغ منهم شحات وهو يضحك سعيدا، غطس فى المياه الطينية ولس قاع الترعة ثم ركل برجليه وظهر مرة أخرى على السطح. وبدأ فى الطرطشة والعطس والنفخ فى الماء لعمل فقاعات. فتح عينيه ليجد الشمس تفرش ضياء باهرا وتركز بكل قوتها على وجهه،

بدأت أولا كإشعاعات مبهرة، ثم كمواضع متنقلة تتراقص أمام عينيه. ولايستفيد بقدر الإمكان من برودة الماء، نام على ظهره وأخذ ينثر الماء على جسده، ثم عمل حركة بهلوانية وعام على جانبه، ثم على بطنه. الذرة على الجانب الآخر من التربة تلالأت كالذهب تحت ضوء الشمس المنحدرة، الرمال أيضا برقت بلون ذهبي؛ أما حافتا التربة فإنهما كانتا كثيفتين بالأعشاب الخضراء، ومئات من القواقع الخضراء البنية تتأرجح أعلى وأسفل سطح المياه.

سمع بعد ذلك صوتا غاضبا، التفت ليجد عمرو - رجل ضئيل الحجم، قفطانه مرفوع إلى أعلى حتى وسطه، بينما جيوب القفطان السائبة مدلاة على سيقان عظمية نحيفة - واقفا على الكوبرى وهو يحرك يديه هنا وهناك ويصب لعناته على ابنه. الولدان، وقد تملكهما رعبا قاتلا وهما ما زالا فى مياه التربة، أسرعوا بالخروج من الماء، بدون تجفيف، أسرعوا بارتداء ملابسهما. زعق الأب، "ليه نزلتوا التربة؟" وذلك بنفس النبرة الحادة التى يدعو بها المؤمنين إلى الصلاة، "أنا مش قلت لكم اوعوا تنزلوا التربة لبعدين تاخذوا بلهارسيا، مش انتو بتقروا كتب؟ وحافظين القرآن؟ خلاص إذا ما كنتوش عايزين تقروا كتب أو تحفظوا قرآن، من بكرة تنزلوا تساعدونى فى الغيط!"

أخذ الولدان فى التحديق فى الماء بدون النطق بحرف، هذا زاد من غضب والدهما، لذا أسرع وأمسك برقبة أحدهما وأخذ يضربه

بالصفعات، ثم التفت ليبدأ فى ضرب الآخر. بأصوات ضارعة، أخذ الصبيان يرجوانه أن يتوقف، ويعدانه بأنهما لن ينزلا التربة مرة أخرى. ما أن سمعت أمهما تلك الجلبة، حتى أسرع نحوهما وهى تقول، "وبعدين بس، يا رب صبرنى"، لكن ما أن رأت مظاهر الغضب المرتسمة على وجه زوجها، بينما الولدان منهمكان فى البكاء، غيرت من لهجتها فورا وطلبت من عمرو أن يسامحهما، "دول خلاص مش حينزلوا تانى، سيبهم المرة دى يا راجلى، عشان خاطرى".

حدج عمرو الولدين بنظرة حادة، "عشان أمكم اتكلمت، أنا حاسيكم المرة دى، دلوقتى على البيت طوالى، امسكوا كتبكم وذاكروا"، ثم أهدى كل منهما قلما على صدغه، فعاودا فى النحيب مجددا، وأصبح وجهاهما مبللين كما كانا عندما خرجا من مياه التربة، ثم جرى الولدان نحو منزلهما. عمرو هذا، هو إنسان جاهل مثل الآخرين، يمتلك فدانين من الأرض، لكنه يكن للتعليم احتراماً هائلاً. بتضحية كبرى استطاع أن يرسل ابنه الأكبر "شمس الدين" إلى معهد تجارى فى أسوان ليدرس المحاسبة. عمرو هذا رجل متدين ومستقيم للغاية.

شحات - وكان قد خرج من الماء وارتدى ملابسه -، أتى وحيا عمرو بالأسلوب المعتاد عند القرويين، ابتداءً عمرو فى الشكوى لشحات، الذى اعتبره خبيراً فى شئون الحياة، بأن ابنه شمس الدين قد حضر إلى المنزل اليوم قادماً من أسوان يقول بأن والده لا يرسل له مبلغاً كافياً

ليعيش بعيدا عن بلده. قال عمرو بأنه كان قد أرسل له مبلغ خمسة جنيهات، لكن ابنه لم يتسلمها. فخدمة البريد كما هو معروف بطيئة للغاية. قال أيضا إن شمس الدين يده "فرطة" في موضوع القلوس، وإنه يذهب للسينما "ليلاتي".

ضحك شحات، "لا، ده بس يمكن ييحب واحده من بنات أسوان".

عندما يوجد شمس الدين في منزله، يرى دائما جالسا تحت نخلات أبيه. هناك وجده شحات بالفعل، وجهه شاحب، ونظرة كاسفة تكسى وجهه الشاب. ما أن تصافحا، ألقى على شحات نظرة ناقدة، كأنما يود أن يقول له، طالما إنك يا شحات لا تجد غاية سرورك سوى القفز في مياه التربة، والتقنيت على الناس، أو التسكع هنا وهناك، فإنك لن تفلح. شمس الدين يشغل وقته دائما بتلاوة القرآن الكريم أو القراءة في أى كتاب نافع.

من النادر أن يحضر شمس الدين إلى قريته هذه، لا يأتى سوى أيام الأعياد الكبرى أو عندما يعوزه المال، بالرغم من أن أسوان لا تبعد سوى ثلاث ساعات يقضيها فى القطار. مع ذلك، هو كثيرا ما يبعث برسائل لعائلته يكتبها بخط جميل منمق على ورق أبيض ناصع من ورق المدن. هذه الخطابات مليئة بتعابير لا يستخدمها شمس الدين أبدا في حواراته المعتادة: "أبى العزيز أنت وأمى، إننى فى أشد الحاجة إلى مدد كاف لكى أتمكن من الوفاء بحق الدراسات الإضافية المستفيضة

التي سوف تنمى مهاراتي كثيرا لأصبح يوما سكرتيرا تنفيذيا!،
في نهاية كل خطاب ، وبأجمل خط ممكن، يبدو توقيعه وتحتته يكتب
"أسوان - المعهد التجارى". كانت هذه الخطابات تقرأ عدة مرات، حتى
الجيران يستمعون إلى فحواها. عمرو وقد غمره الفخار يقول، "شوفى
بقه يا مراتى، إحنا فعلا ضحينا عشان نبعت شمس الدين للمعهد،
شوفى بقه الحال أصبح إيه، أصبح للولد شان وشنشان!".

شمس الدين هذا، هو ضمن خمسة أولاد فى بيراط التحقوا بالمعهد
فى أسوان، وهذا ما لم يخطر على بال أهاليهم فى عصرهم. مع ذلك،
هو لا يحس بتجاوب كامل مع شباب القرية أمثال شحات ولا يستمتع
بصحبه أو بنكاته. كل اهتماماته هى التبحر فى دراسة الدين الإسلامى
لأنه إنسان تقى ورع. هو يقرأ القرآن يوميا بصوت عال كما يفعل
مولانا. الكثير مما يقرأه لا يفقه معناه، لكن الكلمات المقدسة كانت
تسيطر على مشاعره وتلهب خياله. نقيضا لملايس شحات القديمة الممزقة
وقدميه الحافيتين القذرتين وذقنه السوداء، كانت ملايس شمس الدين
أنيقة ونظيفة، دائما ينتعل صندلا فى قدميه، يخلق ذقنه كل صباح.

إنه يتتبع الوصايا القرآنية بكل دقة وحرفية، لا يذوق الخمر بقاتا،
لا يقامر، أو يستخدم اسم الله بخفة كما يفعل شحات وأصدقائه.
هو يتحدث عن أعداء الإسلام ووجوب مكافحتهم كواجب مقدس أمامه،
بالرغم من أنه ما زال طالبا وقد تأجل تجنيده فى الجيش. هو مغرم باقتباس

مقاطع من القرآن الكريم في أحاديثه، وعندما يبدأ هذا، يبدو الوقار والركة البالغة وقد كسبا وجهه. شحات يكن قدرا كبيرا من الاحترام لصديق طفولته، لكنه الآن يشعر بالإحراج وهو في صحبته، حيث يجد نفسه متورطا في النطق بأسوأ الأيماناء وأقبح اللغات أمام صديقه، ربما ليظهر له كم أصبح منحطا وخشنا وفضا. كان شحات يحس براحة عميقة عندما يغادر صديقه، لكن هو في صميم قلبه كان يرغب أن يكون متعلما مثله.

الضحك الشافى

"أخو بهية، اللي هو فاتح، ما انتى عارفاه، حيتجوز بنت عمى
نعمات"

"إمتى؟"

"بيقولوا الشهر الجاى"

"لا. دا محتمل يحصل السنة الجاية، هو اشترى العفش لسه؟"

"لا لسه"

"يبقى العروسة حتنام على إيه؟"

أخذت النسوة فى التضاحك بينما أصابعهن بكل مهارة تفرط
حبات الذرة من قوالحها باستخدام عصا صغيرة، ثم يكسرن القوالح
ويلقن بالأوراق التى كانت محيطة بالكوز فى مقطف. أخذن فى تقشير
الذرة والثرثرة أيضا بلا وعى. جلسن نصف مدفونات فى أكوام
من كيزان الذرة. أم حامد كانت هناك، كذلك زوجة فاروق وطفل يرقد

على حجرها، أيضا هناك سيدتان أخريان عجوزان، هما أرملتان، كانتا تستلمان سبتا مملوءا بكيزان الذرة كأجر يوم لهما.

أم حامد، تقريبا كانت هذه أول خروجة لها منذ وفاة عبد الباسط. في السابق، حصد شحات الذرة التي تخصصهم، وذهبت هي للحقل لكي تساعده، تصنع الشاي، ترسل نوبى وأحمد ليحضرا أشياء ويحملا هذا أو ذاك، تأخذ بالها من عديد من النسوة والأولاد الذين انهمكوا في جمع الحصاد. موجة إثر موجة، حاصدون، جامعون، حيوانات وطيور، يتحركون جميعا في الحقل بينما الذرة يتم قطفها. حضر شحات أولا ومعه ثلاثة أجرية من الكوم، جميعا كانوا يجزون عيدان الذرة من جنورها باستخدام جاروف! بين وقت وآخر كانوا يتوقفون ليضعوا الأحمال على الجمال التي تحمل كل شىء إلى جرن فاروق في الكوم، تبع ذلك الجامعون، هم نساء بملابس سوداء وأولاد أمسكوا بأسبطة وضعت تحت ذراع واحد. ثم تبعهم بعد ذلك قطعان الماشية والماعز تقودها عدد من البنات الصغيرات اللاتي يحملن عصا صغيرة، هن يتقافزن هنا وهناك بجلبة، يطوحن بالطوب على الغنم الملتكى أو المتأخر. أخيرا ظهر سرب من طيور أبى قردان الأبيض ليتغذى على الحشرات التي ظهرت حديثا. بعد الظهر، وصل العزب ومعه محراث وزوج من البقر ليبدأ في تقليب الأرض وحرثها، لكي يتمكن شحات في أقرب وقت من نثر بذور العدس، فليس هناك شىء يمكن إهداره، حتى الوقت.

نحو الغروب، ظهر فاروق، دفع بسخاء لكل حصاد مبلغ خمسين قرشا، وسمح لكل واحد منهم أن يحمل حماره بقدر جيد من العلف. وصل أخيرا عدد كبير من الجامعين، لكن شحات طردهم وتابعهم بالشتائم واللعنات.

آخر جمل تم تحميله مع بداية حلول الظلام - ربط شحات حملا ضخما من العلف فوق حماره، ثم تبعه باقى أفراد العائلة سائرين على أقدامهم حتى المنزل. كثيرا ما كانت أم حامد تتوقف فى الطريق لتحى النسوة، ودائما ما تجرى لى تلحق بركب أسرتها؛ بالها كان مشغولا، وتشعر بالتوهج ونفسها مقطوع، لكن كانت تحس بالرضا الآن، فالحصاد بعد وفاة زوجها قد تم على خير وسلام.

محصول شحات من الذرة كان ضعيفا، أقل من طن واحد من فدانه الوحيد، بينما حقق الحاج عبد المطلب محصولا أكثر منه بقليل. لمعى حقق أربعة أطنان للفدان الواحد، فمن غيره يستطيع أن يستخدم أى قدر من النتروكيما وقتما يشاء؟. يستطيع الحاج عبد المطلب أن يحقق ذلك، لكن هو إنسان بخيل، لقد استأجر جهد أربعة نسوة عجائز يعاون بهية فى تقشير الذرة وتفصيلها، لكنه دفع لهن أقل القليل، وأمكن لشحات أن يستمتع لشكايتهن وهو جالس على قهوة شلتوت. حاولن أولا أن يتملقته، أخذن فى الصياح بصوت عال، كل سنة وانت طيب يا حاج عبد المطلب! ربنا يوعذك بزيارة النبى، يا راجل يا كريم،

ربنا يزيدك من نعيمه كمان وكمان!، لكن هذا لم يحقق أمانيهن. سمعن شحات يقلن، "ربنا يقحمه فى نار جهنم". بعد هذه الواقعة، لم توافق أى امرأة أن تحضر إليه، وأصبح على بهية أن تقشر وتفطر كل المحصول بمفردها وتعمل لوقت متأخر كل ليلة.

على العكس، أم حامد هى الكرم ذاته، فقد وزعت هدايا من المحصول، ليس فقط على السيدات اللاتي ساعدنها، بل على سقاء الماء فى الكرم، الحلاق وفقراء آخرين مروا عليها، إلى أن انتهى بها الأمر أن وضعت فى مخازنها نصف نصيبها من المحصول فقط. عندما انتاب شحات الغضب، أجابت كعادتها أن الله سوف يجزى كرمها وإحسانها هذا بأفضل منه.

زوجة فاروق، ذات الأكتاف البارحة، هى إنسانة محبة لبيتها وطيبة. هى أيضا إنسانة كريمة. كل يوم كانت تحضر للنسوة اللاتي عملن فى منزلها وجبات شهية من الفول الشهى، الكرات، الجبن والبيض الذى كن يتناولنه على الطبلية، يغرفن الطعام من الصحون بقطع صغيرة من العيش. بالرغم من الغبار الذى أثارته كيزان الذرة، إلا أن امرأة فاروق وضعت فى حجرها طفلا رضيعا واهنا حتى أنه كان أمرا غريبا أن يبكى أو ينظر أو أن يعتبر من سلالة آدم. هذا الرضيع كان يرفس برجليه الحمراوين خارج بطانيته، يضحك ويبكى وفى نفس الوقت يعطس ويسعل سعالا جافا كذاك الذى يصدر من صدر رجل هرم.

دائما تجد أطفال القرية يسكرون ويجرون هنا وهناك، شكلهم أغبر، ملابسهم قديمة، ممزقة وقذرة، يبدو كأن الجميع قد أهملهم. عيونهم قذرة، منات من الذباب تتنافس على العين الواحدة لكل طفل والذي لا يبذل أى جهد لطردھا. فى الحقيقة، كانت النسوة يتركن أولادهن فى هذه الهيئة المزرية خوفا عليهم من الحسد! يعتبرن أن غسل عيون الأطفال لإزالة ما يجذب الذباب هو شىء ضار بأطفالهم. فى الحقيقة أيضا، أن القرويين مغرمون للغاية بأطفالهم ويفقدون عليهم كل مظاهر الحب، لكن لديهم خوف غريزى من المرض أو فقد النظر! لكن وفيات الأطفال وفقد النظر أمر متكرر وعادى.

تفريط بنور الذرة استمر خمسة أيام. فى آخر صباح، رفعت أم حامد عينيها لتجد كلا من نوبى وأحمد يقتربان منها مترددين، قالت لهما، "ليه انتو مش فى المدرسة؟". كان من المفترض أن يستأنفا ذهابهما للكتاب بعد انتهاء موسم الحصاد. عين نوبى كانت حمراء كالدّم بسبب البكاء وأخذ يدعكها بكفه القذر. عندما استفسرت الأم عما حدث، انخرط فى بكاء موجه ونهنية قائلا، "الفقى ضربنى على وشى بالعصاية".

"هو اللى عمل فيك كده؟ يا ربى، وإيه تانى بس!". اكتسى وجهها بمظاهر الجد والحزم، قالت، "ما تروحوش تانى، أبدا ما تخطوها، وتعالوا اشتغلوا معانا، ناولنى يا واد شوية كيزان". ثم أخبرت باقى النسوة، "ولدى نوبى ده ولد ولا كل الولاد، باحب النوبى بتاعى موت،

دا حفظ القرآن كله ما عدا خمستاشر سورة، إذا حفظ الباقي من الممكن يكسب من الحكومة ميت جنيه". ثم تحول فخرها إلى ثورة عارمة، "نفسى كده أضرب الفقيه ده على وشه بالمركوب".

لاحظت أن إحدى النسوة كانت تقشر الذرة بيديها، فنبهتها، "استعملى العصاية يا أختى فى التفصيل، لبعدين صوابك تنقح عليكى". ضحكت السيدة العجوز وقالت، "باقولك إيه يا بتى، عمرى ما استخدمت العصاية دى، وما فيش حاجة أبدا تأثر فى اليد العجوزة دى". بعد ذلك، استطاعت أن تحول اهتمامهن بأن حكى لهن آخر الإشاعات. تقدمت المرأة العجوز بجزعها إلى الأمام وأخبرت بصوصتها الحاد المرتفع كيف أن جد بطة ضبط حفيدته مع "التعبان"، فثار ثورة عارمة وجرها جرا إلى المنزل. علقت أم حامد على ذلك، "كل واحد عارف سمعة البت بطة، دى حتخرب بيت جدها".

حوالى الظهر أتى الفقيه إلى المنزل. هو رجل طويل القامة بعين غائرة تدور حولها حلقات سوداء، فهو تقريبا أعمى البصر. كان على صلة قرابة بعيدة بأم حامد، هى تكن له أعجابا عظيما، لكن، ما أن ظهر أمامها حتى تجاهلت كلية تحيته، ثم قالت غاضبة، "مش حابعت عيالى للكتاب بتاعك تانى وانت نازل ضرب وتعذيب فيهم. مش حابعتهم إلا إذا غيرت معاملتك دى". فتح الرجل فمه باستغراب، "دا أنا قريبك يا أم حامد، وباعلم عيالك بذمة وضمير لأنهم زى عيالى تمام".

"أنا بادفع ثلاثة جنيه كل شهر عشانهم، أحسن أوفر فلوسى بدل ما يتعذبوا عندك، وأحسن يقعدوا عشان يساعدوا شحات فى الغيط".

أجاب الرجل، "أنا متأسف خالص، بس ولدك نوبى ما قالش الحق. دا واد شقى، دايمًا يحب يضرب العيايل التانيين". شرح الفقيه ما حدث وقال إنه انتوى أن يعاقب نوبى لأنه ضرب أخاه أحمد أثناء الدرس مرتين. كما هى العادة فى عقاب الكتاب، أمر نوبى أن يخلع صندله ويرقد على ظهره، ثم يرفع قدميه العاريتين فى الهواء حتى يتمكن الفقيه من ضربهما، لكنه ما أن بدا فى تنفيذ الضربة الأولى، حتى ثنى نوبى رجله، فأصابت الضربة وجهه. تقدم أحمد وتطوع بالقول، "الى بيقوله سيدنا الشيخ مظلوط"، فحججه نوبى بنظرة قاتلة متوعدة نظير خيانتته.

قالت أم حامد، "صحيح الكلام ده يا واد يا نوبى؟". خفض هذا رأسه إلى الأرض، ثم اعترف بأن هذا صحيح، فرفعت أم حامد يديها إلى السماء، "يا رب صبرنى، كده يا واد تكذب على امك!". بعد ذلك، التفتت معتذرة للفقيه، "باقولك إيه، إذا الواد ده اتشاقى تانى، أربط إيديه ورجليه كمان واضرب فيه لغاية ما يبان له اصحاب". عند سماع ذلك، انتثنت أطراف فم نوبى إلى الأسفل ودعك عينيه بقبضته، وكاد أن ينخرط فى البكاء مرة أخرى. فى تلك اللحظة، حضر شحات وهو يقود جملاً محملاً بالذرة وأخبر الولدين، "هاتوا الجمل التانى نحت السرج فوق ظهره، الجمل ده رجله عرجانة". سعيد بإنقاذه، اندفع نوبى لينفذ المطلوب.

أخبر شحات أمه، "الوقت اتأخر خالص على زراعة العدس، نفسى ومنى عيني زراعته تكون كويسة زى الدرة!". ثم طارت حمامة فوق رؤوسهم، عندما لعنتها إحدى العجائز، ضحك شحات قائلا، "إيه اللي بتقوله ده، الحمامة دى أخويا! دا هديل الحمام يرد الروح".

أحس شحات بسرور بالغ عندما سمع بما حدث فى الكتاب. هو نفسه كان قد قضى ست سنوات فى الكتاب، يعلم تماما نوع العقاب الذى يوقعه الفقيه على المذنبين. كل الأولاد يجلسون فى دائرة ساحة مفتوحة يحفظون القرآن محدثين جلبة فظيعة. واحد تلو الآخر يتقدم نحو الفقيه الجالس القرفصاء داخل الدائرة وعصاه مشرعة فى يده، وأى غلطة فيما يجب حفظه اليوم، تتلقى عنه ضربة موجعة على يدك المفتوحة. وعد الفقيه أم حامد أن يحضر فى المساء ذاته ليستمع إلى ما فات نوبى وأحمد من درس اليوم. وصل فعلا قبل المغرب ممتطيا حماره، وجلس مقرفصا بجوار مدخل الدار لكى يلتقط آخر إشعاعات الشمس الدافئة الغاربة. جلس أمامه نوبى وأحمد مقرفصين أيضا وشرعا فى ترديد ما حفظاه بشكل غنائى وجسداهما يهتزان من جانب إلى آخر، لأنه يقال إن هذا يساعد فى التذكر.

جلست أم حامد بقرب الباب، حتى شحات وسماح وقفا خلفها يشاهدان هذا المنظر. كان الولدان يحفظان ما يقوما بترديده عن ظهر قلب، لذا صاحت أم حامد، "يا سلام، يا سلام". لم يوقف الفقيه التردد

سوى مرة واحدة ليصحح خطأ ما، عندما انتهى الدرس، أخبر أم حامد،
"ولادك انهارده أحسن من أى يوم".

ضحكت بسعادة غامرة، وأخبرت الغلامين بتحفظ ضاحك، "مش
قادرين ليه تسمعوا قدامى زى ما بيحصل قدام الشيخ، انتو عارفين كل
حاجة! نفسى أرمى حاجة ظبطة على عنيكم!"، ضحك الولدان وقد أدركا
أنها تتفاخر بهما.

فى تلك اللحظة، ظهر أخوها أحمد قادما من بعيد. ما أن اقترب
حتى وقف فى مكانه متجمدا مركزا نظره على ما يجرى أمامه، ثم اندفع
فجأة نحوهم منزعجا، "يا رب، سترك"، ثم تخطاهم مندفعا داخل المنزل.
ثم توقف وارتسم على وجهه تعبير غبى. صاحت أم حامد، "مالك يا احمد،
فيه إيه؟". فتح أحمد فمه كأنه سينطق بشيء ما، لكنه توقف، كأن قدرته
على الحديث قد تعطلت تماما، ثم تمايل قائلا، "لما شفتكم كده متجمعين
وسيدنا الشيخ وسطيكم، فكرت إن فيه حد مات، عارفين طبعا إن مراتى
عيانه، أنا قلت إن هي..."

انفجرت أم حامد ضاحكة واندفعت الدموع من عينيها ووقفت على
رجليها غير قادرة على ضبط نفسها.

زوجة أحمد بصحة جيدة على وجه العموم وفى قوة الحصان،
لا يعيبها سوى شيء واحد، هو أنها لا تسمع إلا من أذن واحدة.

حدثت هذه العاهة عندما ضربها أحمد بقوة على أنفها تلك فى ثورة غضب، منذ ذلك الحين، أخذ يلوم نفسه على فعلته تلك ويهتم دائما بصحتها. قالت له أم حامد وهى ما زالت مغرقة فى الضحك، "كان نفسى يا اخويا تموت بحق وحقيق وتدخل الجنة عشان هى عايشة معاك!". رد أحمد، "باقولك إيه يا اختى، ما احبكيش تنكتى فى الموضوع ده". يبدو أن أحمد تذكر ما حدث منه فى حق زوجته، وبأن هذا على وجهه، مما أشعل درجة ضحك العائلة كلها، حتى بدأ شحات يحس بالاختناق من كثرة الضحك. أدرك أحمد كم كان غبيا، لذا شاركهم الضحك وأخذ يحرك يديه.

جارتهم سعاد، وهى تستمع إلى هذا الضحك الهادر، رفعت حاجبها تعجبا، ومصممت شفيتها وهى تقول لابنتها بطة، "الله، الله. بول يظهر نسيوا خلاص المرحوم عبد الباسط!".

الجزء الثالث

حب الابن لأمه، حتى بعدما يكبر فى السن ويتزوج، هى أكثر العلاقات وضوحا فى حياة الفلاح المصرى. إذا لم يبد أى احترام نحوها، حينذاك تشعر القرية كلها بصدمة واندماش... هى سيدة المنزل المتوجة حتى يوم وفاتها.

الأب هنرى عيروط فى كتابه

(الفلاح المصرى)

الجاموسة وعين الحسود

شمس كاملة الزرقة، صباح منعش بارد مناسب للغاية بالنسبة للأسبوع الثانى من شهر مايو. كان شحات يستريح من جهد عمله فى الحقل، يدخن سيجارة وهو واقف على الكوبرى المواجه لمنزل الحاج عبد المطلب، يتحدث مع ابن الحاج الصغير، محمود.

أخذا يراقبان القادم نحوهما ممتطيا حماره، إنه ليس سوى "فاتح" صديق المرحوم عبد الباسط. كان وجهه "مزنهرا" ويبدو عليه القلق. سبب فاتح هذا فضيحة مدوية هزت القرية كلها، فقد أعاد عروسه إلى أهلها قبل أقل من أسبوع من الزواج. فاتح هذا هو الأخ الأصغر للست بهية، بينما عروسه هى نعمات، قريبة أم حامد. كان فاتح هذا مصدرا هاما للأقاويل التى تثار عنه، فهو تاجر المواشى الوسيم ذو الطبع الحامى، ودائما تجده فى حالة عراك مع آخر.

رحب محمود بالرجل، "صباح الخير يا خال"

قابل فاتح هذه التحية بسيل من الشتائم، وصاح فى ابن أخته، "يخرب بيت أبوك، انشالله بيوت الجبهة دى كلها تطربق فى بعضيها!"

فبين أبوك يا واد يا محمود، نفسى أطبق فى زمارة رقبتة واخلص عليه،
دا راجل غشاش وحرامى وابن كلب. وانت حمار".

ذهل الصبى، ونظر نحو الطريق وهو يتمتم، "هو أنا عملت حاجة؟
أنا ما اعرفش حاجة يا خال".

حيا الرجل شحات، ثم نزل من على ظهر الحمار وتوجه نحوه
وصافحه بحرارة، ثم أخذ يشكو من الحاج عبد المطلب، قال إنه دفع له
المعلوم ليسمح له برى حقله المزروع بقصب السكر بماكينة الرى، لكنه
فى الصباح اكتشف أن الطلمبة قد سحبت من مكانها، وترك الحاج
معلومة مفادها أن الماكينة عاطلة وسوف يقوم بإصلاحها، لكن كيف
يتيسر لفاتح أن يروى حقله؟

رد عليه شحات السلام بصوته الخشن بالطريقة التى يستخدمها
فى مجال التحيات، ثم تبسم ودعا فاتح ليصحبه إلى المنزل ليشرب معه
كوباً من الشاي.

قال له فاتح بأنه سمع بأن الجاموسة التى منحها لهم صبحى
الصيف الماضى قد ولدت عجل جاموس صغير، وأراد أن يراه، لكنه
أضاف بأنه يخشى من مقابلة أم حامد، قال، "انت عارف انى رجعت
نعمات لبيت ابوها بعد اربع تيام جواز، خايف لبعدين أمك تلومنى. اللى
حصل يا سيدى هو إن بعض عدوينى سلطوا على واحد وعمل لى عمل

عشان أتخافك علطول مع العروسة، حطوا بودة ناعمة فى الشاى بتاعى بحيث لما ابص على وش مراتى أشوف قدامى جاموسة، عشان كده بعثها بيت ابوها، ثم استمر فى الحكى، "يا سلام يا شحات، نفسى الناس دول اللى سحرولى يروحوا كلهم فى ستين داهية ويموتوا وتتخرب بيوتهم! أنا والله باحب نعمات، ومنى عيني ترجع البيت تانى".

أخيرا أقنعه شحات أن يأتى معه إلى المنزل. أخذ محمود الحمار، وبينما هما يسيران على طريق التربة، طلب فاتح من شحات بأن لا يبيع العجل لأى أحد، "أنا حادلك جنيه زيادة عن أى عرض تانى، إذا هما دفعوك سبعة، أنا حادفع ثمانية. ويا ريت ما تاخدوش من لبن الجاموسة لغاية ما الشب يكبر شوية".

ضحك شحات، "إذا كانت لازماك من غير فلوس، اتفضل شيل". شحات أيضا كان على وعى بأن أم حامد سوف تغضب عندما يقع نظرها على فاتح. نعمات هذه كانت فى السابعة عشر من عمرها وجميلة، كانت قد تزوجت من قبل رجلا عجوزا غنيا عنده أطيان، لكن فاتح كان قد أغرم بها، فطلق امرأته وحاول أن يخرب زواجها ونجح فى ذلك. بالرغم من كل شىء، عندما فتحت أم حامد الباب، حيث فاتح بحرارة، قالت، "مرحباك يا فاتح، اتفضل ادخل". هذا هو طبع أم حامد، فهى دائما ما ترحب بالجميع، فضلا عن ذلك، كانت تحس ببعض الفضول بسبب تلك الزيارة الغريبة. عدم ارتياح فاتح، كان واضحا على قسما

وجهه، قال، "متشكرين يا ام حامد، بصراحة أنا وقتى على كده، بس انا قلت أطل طلة على البطش بتاعكم". احتجت أم حامد، "لا، انت لازم تشربك كباية شاي الأول، دا واجب العرب، هو انت مش عربى؟ لا. دا انت كمان شيخ العربان كلهم". سايرها فاتح، "وانتى كمان يا ام حامد شيخة العرب، إذا جالك الضيف، لازم تفرقيه من كرمك وجودك، حتى لو شحتى من جيرانك". بدأ الاثنان فى تراسل طويل من نوع تلك التحيات، مما جعلهما يتذاكران الأيام الخوالى عندما كان عبد الباسط ما زال على قيد الحياة. فاتح، وهو مدرك أن عينيه لم تقع على أم حامد منذ وفاة صديقه، أى منذ عشرة شهور، كان يشعر فى داخله بخجل شديد، لذا أعلن بكل وضوح، "لا يا ام حامد، مش حاقد ر أخذ الشاى". فصاحت وقد قرأت أفكاره، "ليه، هو انت جاي فى عزا والا إيه، لازم تاخذ الشاى". امتلأت عيناه بالدموع، "يا سلام يا ام حامد، مش ناسى أبدا الأيام الحلوة لما كنت آجى البيت ده مع أبو شحات، والكلام والنكت والشرب". خوفا من أن ينخرطا فى بكاء حقيقى، تقدم نحوهما شحات، ودفعهما للتوجه إلى الزريبة فى الحال، استرد فاتح مشاعره وعاد ليصبح ذلك التاجر الشاطر. بكل خبرة أخذ يتحسس العجل، يفتح فمه، يعد أسنانه، يضغط على عضلاته ويحاول أن يرفعه من الأرض. بعد هذا كله تمتم بأن العجل ضعيف، "دا هزلان خالص، أنا أشور عليكم. ماتبيعوش الشب ده دلوقتى، انتو مش بتدوله لبن كفاية والا إيه؟"

تسأل شحات، "ومين قال إن احنا عايزين نبيعه؟". هو بذلك يحاول أن يجارى فاتح فى أمور البيع والشراء.

"أنا افكرت كده، لما سمعت عن العجل ده، قلت فى نفسى، لازم يا واد ما يكونش فيه حد غيرك يشتريه. دا انا حتى لو أخذته من غير فلوس، ما اظننش انك تمنع يا شحات". قال شحات بصوت ساخر، "أنا باقول إن تمنه ما يقلش عن خمستاشر جنيه"، ثم رفع يديه علامة التضحية، ثم أضاف، "لكن إذا كان نفسك فى العجل ده، اتفضل".

"خمستاشر؟ لا بعدين. خليه الأول يسمن شوية، ويعدين اشوف".

صاحبت أم حامد فاتح حتى الباب. بعد سيل متواصل من التحيات المتبادلة، قالت، "بيتنا اتشرف بزيارتك يا فاتح". ما أن بعد الضيف قليلا عن مجال السمع، قال شحات، "خمستاشر جنيه مبلغ كويس يا امه، أنا كنت خايف لبعدين فاتح ينزل المبلغ للأرض"، زمجرت أم حامد، "خمستاشر بس يا واد، لا سبعتاشر. الشب ده نازل يعب فى اللبن عب"، ثم تخيلت أحزان فاتح، فتنازلت قليلا، "أنا حابيع له الشب بأى تمن يقول عليه، دا كان صاحب ابوك الروح بالروح". قال شحات، وهو مدرك طبع أمه التى تندفع فى عمل التضحيات الكبرى، "لا. أنا حاموت العجل ده قبل ما ابيعه بأى سعر زى ما بتقولى".

تنهدت، "زى ما تحب".

يبدو أن فاتح كان مهتما فعلا، لأنه حضر فى مساء نفس اليوم ومعه فاروق. كانت أم حامد قد سنكرت الباب اتقاء شر البرد القارس، كذلك فى وجه فاروق الذى كان يدرك عدم رضاها عن إغراقه فى الشرب. لذا ما أن فتحت الباب لهما، حتى قال فاروق قاصدا إغاضتها، "دى أول مرة أشوف باب البيت ده مقفول، الله يرحمك يا عبد الباسط".

بينما انهمكت أم حامد فى عمل الشاى، أخذ فاتح يتفاخر بمحصوله من الفول، لكنه اشتكى بأن الحاج عبد المطلب قد نظر محصوله، "الحاج فضل يقوللى، محصولك ده أعلى إنتاجية فى الجبهة دى كلها، تانى يوم بالضبط نزلت الأسعار الأرض، لكن الحمد لله على كل حال. اللى كرمنا بيه رينا، لهفة الحاج عبد المطلب بعينه اللى تغلق الحجر، نفسى أعرف، ليه الواحد ما يسييش غيره يعيش فى سلام؟".

وهى تقدم الشاى، أخذت أم حامد تداعب فاروق، "فاتح ما دخلش بيتنا إلا عشان يسلم على الشب". ضحك فاروق، "هو دايمًا مشغول يا أم حامد، لكن هو بيعزكم والله ويحب شحات. انتى ست ولا كل الستات، دا انتى أم الكرم كله". فاروق بأسلوبه اللين وصوته الأجش، يعرف تماما كيف يؤثر فى النساء.

بعد محاورات قليلة، اتفق على أن يتوجه فاتح إلى صبحى فى اللوكاندة ليسمح له بشراء العجل؛ لأنه هو يعتبر مالكا لنصفه. ذهب فعلا فاتح، لكنه عاد بعد وقت قصير قائلا إنه وجد صبحى جالسا مع الحاج على،

ثم أخبر أم حامد، "ولاد العم الاتنين قعدوا يتكلموا بخشم واحد، صبحى عايز يبيع الجاموسة مع ولدها. قال انه عايز مية وعشرين جنيه تمن الاتنين، وقال انه حيشترليك بدالهم جاموسة جديدة". صدمت أم حامد من هذه الأخبار، فقالت وهى ساخطة، "لا، ده كداب وغشاش، ده عايز يلطف الفلوس وبس، ده كل ما فى الأمر. أنا عارفه صبحى والحاج على كويس. مش حيكون فيها جاموسة جديدة ولا يحزنون". ظهر على وجهها الوسيم القلق، "أنا بقه مش حابيع الجاموسة. حنجيب منين اللبن والزبدة والجينة؟ وإزاي؟ إذا جات البلد بحالها، أنا مش حابيع. حاقتل أى بنى آدم يقرب على جاموستى. كلام صبحى والحاج على كلام كله شر، خليه ي قولوا اللى عايزين يقوله".

ما أن رأى مظاهر الحزن المرتسمة على وجهها، أعلن فاتح، "صبحى ده ابن كلب، أنا سمعت الحاج على بيقوله، إزاي تدى العيلة دى جاموسة؟ انت اتجننت والا إيه؟ . مع ذلك كله ما تزعلش. فى يوم السوق، أنا حأجى وأخذ العجل واشوف يرمى تمن كام. إذا صبحى اتعرضلى والله لأقتله! انتى لازمك تاكلى عيالك. أنا عمري ما اخاف من حد. ابن الكلب ده مش محتاج فلوس، عنده بالكوم. انتى اللى محتاجة يا اختى"

تدخل شحات فى الحديث، وقد أعماه الغضب، "إحنا مش حنعمل حاجة بخصوص الجاموسة وولدها دى. إحنا حنشتري واحدة غيرها.

بس خليهم بقى يدفعوا تمن العلف اللى أكلته، بعدين ياخدوا
الجاموسة والعجل

لكن أم حامد أسكتت الجميع، "بس. بس، اسكتوا! باقوك إيه
يا فاتح، أنا القرآن بتاعى محرم على أخذ حاجة حد تانى. ما أقدرش
اطالب بحق مش حقى. فرضنا إنى أخذت الجاموسة وما سألتش فيه.
بيتى حيتخرب طوالى. الضفر الصغير ليعيل من عيالى يساوى
ميت جاموسة، لكن انا حاطلب من صبحى تمن العلف فى العشر شهور
اللى عدوا".

بسرعة، أخذ شحات يحسب تكاليف العلف. إنها سبعة وثمانون
جنيها؛ بهذا المبلغ المحترم يمكن لهم أن يشتروا جاموسة جديدة.

اقترح فاروق، "أنت طبعا ممكن تكمل التمن بإنك تبيع كام قيراط
من أرضك". هو فى الواقع دائما ما يضع عينيه على الصفقات
الرخيصة. لكن شحات قاطعه سريعا، "لا. أى واحد يبيع أرضه، يبقى
مش راجل".

صاحت أم حامد، "ربنا مش حينسانا، هو اللى بيرزق الكل". لكن
أكثر ما كان يؤرقها فى هذا الموضوع هو الفضيحة الاجتماعية بين
أهالى القرية، "دلوقتى مش حاقدر أبدا أطلع بالجاموسة برة، خجلانه
خالص من نفسى وخايفه من كلام الناس حيقولوا طبعا: لازم شحات

يبيع الجاموسة، شوفوا ازاي ماشى متعنظ وفي جيبه ما فيش حتى
مليم أحمر".

فى اليوم التالى، انخرطت أم حامد فى حالة من الضياع والوجوم.
رفضت رفضا باتا أن تضع قدما خارج المنزل. إنها لا تحتمل أبدا
نظرات الجيران، هى تستطيع أن تخمن بكل دقة ما تتهامس به سعاد
والأخريات. تعذبت من كل لفظة من لفتات خيالها، هن يعرفن جيدا مقدار
عزة نفسها وأنفها المرفوع على فوق. الآن، هى تحت رحمتهن.

نسيت تماما أن إحساس أخيها أحمد يفوق إحساسها مئات
المرات. ما أن سمع بالقصة حتى جمع بسرعة المبلغ المطلوب وتوجه
سريعا إلى لوكاندة صبحى.

وسيم، مغرورا وبارد الأعصاب. هذا ما كان يراعيه أحمد عندما
يطل على العالم. جلابيبه دائما ما يتم تفصيلها من أفضل أنواع
الأقمشة، عمامته دائما بلا عيب يشينها، كاتينة ساعته من ذهب حقيقى.
هو يحتقر ارتداء الصندل العادى فى رجليه، لكنه دائما ما ينتعل الأحذية
القيمة والجوارب. لا يدخن سجائر كيلوياترا الشعبية، لكنه يختار
الأصناف الغالية التى لا تجدها إلا مع أهالى المدن. هو فى الحقيقة،
اقتصادي جدا فى تدبير منزله، ويرغم زوجته على مراعاة كل شىء فى
إدارة المنزل، ونادرا ما دعا أحدا لزيارته. العذاب الذى كابده فى أيام
طفولته وشبابه، والسنوات التى قضاها كرئيس للخبراء فى فندق فخم،

تركته فى حالة من الاحتقار للطبيعة البشرية، لكن تملكته رغبة جامعة فى أن يترك أثرا قويا فى أى مكان يقصده. بمظهره البراق الأنيق، شاربه المشذب جيدا، كتفه العريض وشعوره بأهمية شأنه، نجح تماما فى حياته. أحمد ليس من ذلك النوع من البشر الذين يتركون أهاليهم تتعرض لأى ذرة من الإهانة من أمثال الفاشلين المدعين أمثال صبحى.

فى الطريق، تقابل مع كامل، وهو عامل زراعى متزوج من الأخت الكبرى لشحات - هو دائما ما يسير بجلباب قديم ممزق قذر، يداه دائما ملوثة بطين الحقول، يبدو فى مظهره أكبر من أعوامه الأربعين. كان يعمل بأجر ضعيف فى أرض صبحى - الآن يبدو قلق جامع فى وجه كامل. أخبر أحمد أنه إذا وقف فى صف أم حامد بصفتها حماته، فإن صبحى سوف يطرده من العمل، فى تلك الحالة كيف يمكن له أن ينفق على زوجته وأبنائه الخمسة؟ استمع إليه أحمد وهو متأنف، فهو يعرف أن أم حامد هى التى ترعى أبناء كامل هذا، فهو دائما فى خشية من أن يطالب صبحى بمستحقاته. بالنسبة لأحمد، مثل تلك الشخصيات الضعيفة ليس لها أية أهمية على الإطلاق فى هذا العالم القاسى. أعلن أحمد، "أنا حاقق قصاص أى بنى آدم يدوس على طرف لاختى". بهذا الإعلان قطع على كامل سلسلة شكواه، ثم أضاف، "صبحى ده لا قريبى ولا حبيبى، أرجع وتعالى معايا". سأل كامل وهو يحاول أن يجاريه فى خطواته الواسعة، "أنت تقدر تدفع اللى عايزه صبحى؟".

توقف أحمد عن المسير، ورمى كامل بنظرة قاسية مما دعا هذا أن يتأخر خطوتين، "أنا ممكن أضرب بطن الأرض واطلع منها فلوس"، ثم أضاف والفخار يملأ أجنابه، "لكن أنا عندى الفلوس".

عندما وصلا اللوكاندة، أخذ أحمد يحملق فى المبنى مبدىا امتعاضه. من الخارج، الحيطان مقشرة، بها صفوف من النوافذ المدهونة بلون أحمر غبى. قباب تزين الشرفة العليا أعلى المدخل، تعطى انطبعا بأنها جزء من قصص ألف ليلة وليلة فى العصور الوسطى، بالرغم من أن الفندق لم يبن سوى منذ عشر سنوات فقط. عندما دخلا الصالة شبه المعتمة التى تستخدم كمطعم وغرفة استقبال، وجدا أمامهما ممرا طويلا يقود من الجانبين إلى غرف خالية تنتظر ضيوفها لن يحضروا أبدا، تعشش فيها العناكب ويكسوها القبار. أخذت عيناهما تستعرض بكل احتقار المفارش البلاستيكية التى وضعت على الموائد، والأرائك التى رصت على جانب بلون أزرق باهت، الحوائط لها نفس هذا اللون الكئيب. خيل لأحمد أنه إذا أشعل الفرد دسنة من اللمبات، فإن الغرفة لن تكون سوى مكان قذر كئيب. توجد أيضا أعمدة تسند الأسقف العالية. صبحى كان قد استأجر فنانا محليا ليزين هذه الأعمدة بمجموعة من الآلهة الفرعونية؛ لكن هذه الرسوم الضخمة، التى شملت شكلا بذيئا لإله الإحليل، أضافت للمنظر العام، جوا هابطا مشوشا.

فى الحال، ظهر صبحى وبطنه الضخمة المنتفخة تبرز من خلال جلبابه الأبيض الواسع. ما أن رأى أحمد حتى أخذ يربت على شاربه الكث الأسود، ثم حدجه بعين حمراء ضيقة كما لو كان يبحث عن خادم ليصب عليه جام غضبه. بغمغة غير واضحة، أشار لأحمد لى يتبعه إلى غرفته الخاصة فى الدور الأعلى.

تحدث أحمد بصوت جاف غليظ، مما جعل صبحى يجفل قليلا، "لا. ما اقدرش اتكلم عندك. بدون أى كلام أو حديث، خلىنا فى الموضوع اللى أنا جاي عشانه، عايز كام فى الجاموسة والعجل؟". أراح صبحى جسمه الضخم على مقعد، ثم قال بصوت واثق، "ميت جنبه وعليهم خمسة وعشرين، ودا فعلا مبلغ مناسب".

"عايزك تحدد اللى مفروض أدفعه وبس"

بعد التحديد، وقف أحمد وأخرج من جيبه رزمة من الأوراق النقدية، ثم عد المبلغ المطلوب ورماه فى حجر صبحى. بعدها أمر كامل، "عد الفلوس بدل منه"، ثم قال بصوت رزين لصبحى، "سلامو عليكم" واتجه نحو الباب بدون النطق بكلمة أخرى.

شعر صبحى بالمفاجأة، لذا قام وتبعه حتى الباب وهو قابض على النقود يصيح بصوت عال، "تعالى بس يا احمد، عايز اقوك كلمة واحدة بس، عشان خاطر المرحوم عبد الباسط!".

توقف أحمد قليلا عند الباب، ثم التفت، "طيب انت عايز منى إيه دلوقتي؟ من الأول قلت لك احنا مش حنزود فى الكلام"

"باين عليك زعلان خالص، طب ليه؟"

"على العكس يا صبحى، أنا فى منتهى السعادة. أختى بكده تكون دفعت تمن الجاموسة والعجل. يعنى هى حرة دلوقتي، حرة وبعيدة عنك. إذا كنت راجل بصحيح يا صبحى، المفروض ما كنتش تطالب بالحاجة اللي انت اديتها للناس بخاطرك، أختى دلوقتي تقدر تطلع برا بيتها وتورى وشها للعالم كله". ثم أشار بغضب مما يعنى أن الموضوع ليس فى حاجة لمزيد، وأضاف، "كفاية، كفاية، أحسن نبطل الكلام اللي لا حيودى ولا يجيب، سلامو عليكم"

ترك أحمد صبحى وهو يتهته. هو منظر يفرح كل مشاهد. حالا انتشرت القصة مع بعض المبالغات وإضافة بعض توابل الإثارة إليها، وعم السرور كل من استمع إليها.

فرحة أم حامد بسبب إنقاذها لم تدم طويلا. حضر أحمد إلى بيتها وأفرغ كل غضبه عليها وعلى شحات، "أنا مبسوط ومش مبسوط اننا حلينا المشكلة دى يا اختى، تقدرى دلوقتي تحتفظى بالجاموسة والعجل وتطلعى برة وانتى راقعة راسك قدام الخلق كلها. لكن انا مش مبسوط لإن شحات ده مش راجل أبدا. لسه عيل زى العياييل

الى اصغر منه، دا يببذر الفلوس ومش عايز يتحمل مسئولية ويتعبك دايمًا ويخليكى تبكى".

ما أن سمع اسمه يتردد، حتى حضر شحات إلى المنذرة الأمامية؛ بكل عنف طلب منه أحمد أن يجلس، ثم خاطبه بنفس الأسلوب القاسي، "أبوك مات من عشر شهور، مع ذلك ما غيرتش حاجة سواء فى البيت ده أو الأرض. عيلتك مش طالعة لفوق، لا دى هابطة لتحت" ثم التفت ناحية أم حامد، "شحات مش عايز يعمل حاجة مفيدة، أنا تعبت خلاص، وزعلان عشانه ومش عايز اشوف خلقتة. بس إيه العمل فيكى انتى يا اختى وعيالك الصغيرين؟ بيتك محتاج مصاريف كتير. عمل إيه شحات عشان يكسب فلوس؟".

فتحت أم حامد فمها لتتكلم، لكنه قاطعها، "وانتى كمان- دايمًا ترحبى وتضايفى أى حد يحط رجله فى دارك. مصاريفك كتيرة يا اختى، والزمن غير الزمن. ما عايش الحال زى ما كنتى وانتى لسه صغيرة. أيام زمان، إذا ما كانش فى البيت رغيف، ممكن تطلبية من الجيران من غير خشا. ممكن تدخل أى بيت وتاكل، لكن زمان الناس كانوا قليلين. إحنا زدنا فى العدد مرتين يا اختى، دلوقتى لازم كل واحد ياخذ باله من حالته وبس. أنا مش فى مقدرتى انى أخذ بالى من عيلتى وعيلتك كمان. بسبب ده كله، أنا حاطق من جنبى".

احتجت أم حامد، "الرب هو الرزاق"

"أيوه طبعاً، كل حاجة من عنده. لكن البنى آدم لازم ياخذ باله من مستقبله بنفسه. إحنا ما نعرفش إيه اللي يحصل بعد خمس سنين من دلوقتي، أو عشرة. حيكون وقتها الناس بالملايين. باتكلم غلط انا يا شحات؟ وحياة رحمة أبوك تقول الحق"

كان رأس شحات محنيا إلى الأرض، عيناه مغرورقتان. كلمات أحمد جعلته يدرك أكثر من أى وقت سابق بأنه غير قادر أن يملأ الفراغ الذى تركه والده.

ضغط أحمد على كلماته المنطوقة، وقد ضايقه مظهر الدموع التى بدت فى وجه شحات، "الواحد لازم يحب الشخص اللي يبيكيه، مش اللي يضحكه"، ثم التفت مرة أخرى تجاه أم حامد، "نفسى شحات يبقى راجل بصحيح، ما يكونش زى ابن الكلب صبحى، مش عايزه يقف قصادهم ويزعق ويقول: أنا حاضرك، أنا حاقتك ! وهو ما فيش فى جيبه قرش صاغ".

وقف شحات يجول فى الغرفة ممسكا بقطعة ملابس يهش بها الذباب، لذا رفع أحمد من درجة صوته، "انتوليه سمتوه شحات، هو فعلاً زى الشحاتين. الشحات ياخذ منك الفلوس وبعدين يبص عليك كأنه عايز يقولك أنا سيدك، لكن ازاي الديك يقدر يكاكى ويطنه فاضية؟"

خرج شحات إلى فسحة المنزل وضغط وجهه إلى الجدار الطينى، لم يستطع أن يضبط حزنه، قال فى نفسه، "أنا مش ابويا، وعمرى ما حاكون زيه. أنا هو انا، شحات. مش واخدين لباهم ان ابويا راح لحال سبيله ومش راجع تانى؟".

ما أن استطاع شحات أن يتمالك نفسه، حتى رجع إلى المنذرة. كان أحمد يصف ما حدث فى لوكاندة صبحى، "إذا كان صبحى نطق بكلمة واحدة غلط، والله لكنت خلصت عليه! وأخذ فيه خمسة وعشرين سنة سجن!"

ثم انتقد أم حامد لأنها لم تعط صبحى العجل فى الحال، "العرف بيقول إن أول ولدة تكون ليه، بعد كده كان ممكن تبيعى الولدة الثانية فى السوق وتقسموا بينكم تمنه، انتى عارفه كده والا لا؟".

قام أحمد ليفادر، احتجت أم حامد ومسكت فيه ليشرب الشاى، لكنه رفض وقال بصوت خشن، "يا اختى، البيت ده مبنى على الغلط والأبهة الفاضية. الواحد لازم يواجه الحقيقة، لكن انتى وشحات عايشين فى الأحلام. انتى بتصرفى كل اللى يجيلك، ولما يقع المحظور، تحتارى وما تعرفيش تتصرفى". ثم عندما وجد أن أم حامد بدأت فى البكاء، خفف قليلا من لهجته، "على أى حال، انتى اختى وأنا لازم أقف جنبك".

كان واجبا أن تحط أم حامد برجلها وتلامس الأرض بين الحين والآخر. بالرغم من دموعها التي انهالت مدرارا، علمت أن أحمد كان يتكلم بالحق، لكن بعد دقائق من خروجه، أخذت تكون في ذهنها صورة وردية لحياتهم بعدما تتغير وتتبدل. لم يخطر على ذهن أم حامد أو أحمد أن الناس نادرا ما تتغير طباعهم، وأنه ليس من المناسب أن يتوقعوا الكثير من شحات. لقد خلق هذا الشاب ليحقق الكثير بالمقارنة بأمثاله، بالرغم من أخطائه وهفواته. عليهم أن يتقبلوه كما هو، أو أن يفقدوه للأبد.

فى نفس اليوم التالى، توقفت الجاموسة عن إدراج اللبن، وأصبحت على هذا الحال لمدة ثلاثة أيام، هنا أخبرت أم حامد شحات، "لازم ندور على طريقة نغذى بيها البطش، ما فيش حاجة بتنزل من ضرع الجاموسة غير شوية سرسوب، وكمان طعمه حامض".

التجأت أم حامد للأخذ بنصيحة كل من تقابله. زوج ابنتها كامل أخذ يندب حظه كالمعتاد، "إيه اللي نقدر نعمله ؟ أنا تعبان وانتى تعبان. إحنا بنشحت من اللي خالقنا، لكن هو ساعات مش بيدى. ربنا حر يدى أو ما يديش. إحنا مخلوقات".

قال العزب بأن الجاموسة ربما أكلت كمية كبيرة من البرسيم الأخضر، وسوف يتحسن حالها بعد يوم أو اثنين.

بهية كانت متأكدة أن فاتح قد نظر الجاموسة وحسدها، "صحيح هو اخويا، لكن انتى عارفة قد إيه هو بيا ع بهيم شاطر، دايم تقولى لى بانك ست شاطرة وفهيمه، لكن انتى بصراحة ما تعرفيش حاجة. أقول كمان إن ضرر العقل لسه ما خضرش فى اسنانك. خليتى ليه فاتح يدخل الزريبة بتاعتك؟ ما حدش غريب أبدا يشوف الولدة، سواء كان إنسان أو حيوان حتى".

عابتها أم حامد، "يا سلام يا بهية، الأيام اللي فانت دى، أنا كنت غرقانة، ومش عارفه راسى من رجلى".

"أيوه فعلا. دا حتى وشك لسه أصفر. باقولك إيه يا خيتى، انتى تبعتى لفاتح دلوقتى بيجى، وبعدين انتى تشاغليه بالكلام، بيجى ولدك شحات أو عيل من عيالك الصغيرين يحبى وراه، وفاتح مش واخد باله، يقطع حته من جلابيته. بعدين نخليه يعرف إيه اللي حصل، قوم هو يزعل ويتعفرت. ما يهمكيش. بعدين تحرقى حته القماشه وقت صلاة المغرب".

"لا. لا، ما اقدرش اعمل حاجة زى كده"

"طاب باقولك إيه، انتى تبعتى لفاتح. وبجودته أو بغيرها، ارفعى جلابيته لفوق، وقوليله يشخ على الجاموسة، دى الطريقة الوحيدة يا ام حامد".

انزعجت أم حامد بشدة من هذا الاقتراح، "لا. لا يا بهية، إحنا لازم ناخذ فى الاعتبار نفسيته. ما عنديش غير انى أروح للشيخة داية فى الكوم".

"ليه بس تصرفى فلوس؟ بس لازم عليكى ما تخليش فاتح يبص على البطش تانى، إذا ما عملتيش كده، أنا بنفسى حاجيه واخليه ينفذ اللي قلتك عليه. انتى طبعا محتاجة للبن، مش كده؟ هو انتى غنية؟ عندك عشر فدادين؟"

"إذا فاتح شاف شحات وهو بيقطع حته من جلابيته، حيزعل خالص. انتى عارفة ان ولدى طبعه حامى. حيتخانقوا مع بعض. لا يا بهية. انا لازم أروح للشيخة"

"اعملى اللي انتى عايزاه. ربنا عالم قد إيه انتى محتاجة. أنا من الأول قلت انك ست عبيطة ومش عارفة حاجة". ضحكت أم حامد، "ربنا دايما بيدى أكثر من اللي بنعوزه".

فاتح أيضا علم أن الجاموسة توقفت عن إدرار اللبن، لذا حضر للمنزل. ما أن رآته أم حامد حتى سدت الباب بجسمها وأنفاسها مقطوعة، قالت، "الجاموسة دلوقتى آخر تمام، واللبن نزل خلاص". ألح فاتح، "بس أنا عايز اشوفها، خلينى أبص عليها عشان أقول لك السبب اللي خلاها تبطل اللبن"

"أوه.. أوه.. لا. بأقولك إيه يا خويا فاتح. المرة الجاية. رايحة دلوقتى لجارتى. ما فيش حد غيرى فى البيت"

طلبت منها الشريحة داية أن تحضر بعض شعرات من ذيل الجاموسة، ثم ربطت تلك الشعرات داخل حجاب مكتوب، وأوصت بأن يدفن الحجاب أسفل مكان الجاموسة فى الزريبة. ثم أضافت بأنه لا يجب أن يحلب أحد الجاموسة سوى فتاة عزراء، لذلك جعلت أم حامد ابنتها سماح تقوم بحلب الجاموسة، لكن لمدة يومين آخرين لم تحدث المعجزة. أخبرت أم حامد شحات، "واه، أدينى خسرت اتنين جنيه من قلة فايدة". فى فجر اليوم الثالث، أيقظها صباح سماح الفرح. لقد تدفق اللبن اللذيذ مرة أخرى.

بناءً على إلحاح فاتح، توجهت أم حامد لمقابلة قريبتها نعمات، التى ما أن رأتها حتى ألقت برأسها على صدر عمتها وهى باكية "من فضلك يا عمتى، عايزك تساعدينى" ثم بصوت كله توسل، "أنا باحب فاتح، قولى له يبجى يقابل ابويا. أبويا حيطق من جنبه. قال إذا أنا رجعت لفاتح هو حيقتلنى، أعمل إيه يا عمتى؟".

حاولت أم حامد أن تسرى عنها، "واه يا نعمات، ما تكسريش قلبي يا بتى. أنا حاحاول أساعدك. يمكن أبوكى يسمع كلامى، بطلى عياط يا حبيبتى".

كان الغضب مسيطرا عليها، لذا عندما رأت فاتح فى المرة التالية، صبت عليه جام غضبها، "انت عايز منى إيه؟ نعمات دى زى بنتى تمام، وانت طردتها من بيتك بعد أربع تيام جواز، وانت عارف كلام الناس. انت راجل بطل يا فاتح، وانا اللى كنت فاكرة انك دخلت بيتنا عشان تشوف البطش بس. انت مكار وزى التعبان يا فاتح. احتج فاتح ، "ولاد الهرمة سحرولى، كل مرة أبص على نعمات، أشوف جاموسة قدامى. أنا كنت مجنون. ونفسى ارجعها من تانى. والله العظيم أنا لازم ارجعها ولو بالضرب!"

" لا. لا، شغل العفونة ده ما ينفعش، كل حاجة لازم تتم بالعقل يا فاتح. أنا حافرك فى حاجة". أخيرا توصلت أم حامد للحل. هى ومعها فاتح سوف يفاجئان الحاج أحمد، والد نعمات ويدخلان منزله قبل الظهر، عندما يحين وقت عودته من الحقل، يتقدم فاتح وبسرعة يقبل رأس الحاج ويطلب منه السماح والعفو. بعدها، خيال أم حامد أوصلها إلى النهاية السعيدة، قالت لفاتح وكلها ثقة، "بعد كده، طبعاً عم احمد حيثكسف ويخليك تاخذ مراتك. دى أحسن حاجة نعملها".

لكن الموضوع لم يسر كما خططوا؛ عندما دخلا منزل والد نعمات، تقدم فاتح ليقبل رأسه، فقفز هذا بعيدا ودفع فاتح بيديه وأخذ يبطره بالشتائم، "انت أصلك ابن كلب! انت السيب اللى مخلينى مطاطى راسى وسط الناس!. أنا لازم اغير لون عمتى من أبيض لإسود! انت خليت

رقبتى قد السمسمة قدام العالم كله!". قبل أن تستطيع أم حامد إتمام الحديث، كان فاتح يمطر الحاج بوابل من شتائمه، بينما نعمات ترتعش وتقطع فى شعرها، ثم حضر الجيران وأمسكوا بفاتح وألقوا به فى الشارع، ثم التفت الرجل العجوز ناحية أم حامد وقال، "أنا ما أمنش على بنتى مع الراجل ده. دا ابن كلب، يرجعها لبيت ابوها بعد اربع تيام؟ المرة عندنا ما لهاش كلمة، إذا ما كنتش قادر احكم بيتى، يبقى أنا مش راجل. سمعت ان فاتح كان مبلط عندك الكام يوم اللى فاتوا دول يا ام حامد. شوفى بقه، قولى له إن الحاج أحمد حيخرب بيته حتى لو كان ده آخر حاجة أعملها فى حياتى! أنا حأخذ عنيه نفسها فى المحاكم! لما أخلص عليه حيكون ابن حظ لو قدر يمشى فى الشارع، لأنه حيكون وقتها فقران وعقله تايه".

بعد ذلك، لاحظ شحات أن أم حامد لم تعد تذكر اسم فاتح على لسانها. أحس بسرور بالغ عندما أخبرته بأنها تنوى أن تبيع العجل لزكريا المسيحى، قائلة إنه رجل غلبان وعنده تسعة من العيال.

أم حامد وفاروق

أحسّت أم حامد بوقع انتقاد أخيها أحمد لها، لذا قررت أن تكون أكثر حزمًا في تسيير أمور بيتها. عندما كادوا أن يفقدوا الجاموسة، اعتبر شحات بأن لها اليد العليا في حل هذا الموضوع؛ وبالفعل كان أخوها هو الذي أنقذهم من هذا المطلب. بمرور الأيام، قل اهتمام شحات بأن يكون هو البديل عن والده، وهذا زاد من قلق أم حامد. بقدم أيام الحصاد زادت مخاوفها واتهمت شحات في نفسها بأنه من النوع الكسلان المهمل لواجباته، وأن فاروق قد يحاول خداعهم لأنه شريكهم في الزراعة.

أحيانا كانت مخاوفها تلك توتر شحات فينفجر فيها صائحا، "قلت لك ألف مرة، بطلى كلام كثير! المفروض المرة تفضل ساكتة علطول ما نفرقهاش عن البطانية اللى بنتغطى بيها!"

حينئذ تتراجع أم حامد وهي مستاءة متألة وتفضل الصمت لفترة طويلة، لكن إلى حين. مع ذلك، ما أن تم حصد محصول العدس

وتجميعه فى جرن فاروق، أخذت تنبه شحات بأن يرعى المحصول بعين يقظة. يا ترى لماذا يقل محصولهم من يوم لآخر؟

شحات لا يثق كلية بفاروق. بعد ظهر أحد الأيام حضر ومعه حماره إلى جرن الدرس، فوجد بقرتين تاكلان من العدس الخاص به. لم يكن هناك أحد على مرمى البصر سوى عامل وحيد يعمل فوق النورج- هو آلة ثقيلة بها مقعد واحد وأسفله أحد عشر قرصا حديديا يجره بقرتين، لكى يتم فصل البذور عن الأعشاب التى تغلفها.

وجد شحات فاروق راقدًا على كنبه فى دروته بجوار شاب من أهل الكوم؛ بينما تصدح أم كلثوم بإحدى أغانيها من جهاز راديو ترانزستور، ورائحة الحشيش تملأ المكان. قفز الشاب من فوق الكنبه بمجرد دخول شحات، قال شحات غاضبا، "ليه تخلى رجالتك يطلقوا البقر على العدس بتاعى يا فاروق؟" ثم خرج بسرعة وذهب نحو حماره وامتطاه وبدأ فى التحرك. لكن الرجل الذى يعمل فوق النورج نادى عليه قائلا، "دى مش غلطة فاروق، أنا اللي طلقت البقرتين، دول أكلوا من كل الاكوام مش من عدسك انت بس"

"لا. انت كداب! واحد فيكم هو اللي ربط البقرتين جنب العدس بتاعى، انت أو فاروق! قاصدين صح إنهم ياكلوا منه". نادى فاروق على شحات وهو ما زال فى الدروة "تعالى يا شحات، تعالى بس"، لكن شحات لم ينصاع لندائه. فى المنزل أخبر أمه، "خايف اقولك انك على

حق. فاروق طلع حرامى بجد؛ لو كنت رجعت له، ربنا وحده هو العالم كان حيصره إيه. والله العظيم ما انا مشارك حد بعد كده فى زرعى. حاسل كل حاجة بنفسى". ردت أم حامد، "إذا انت زرت أرض سنباط لوحدك حتضطر تقعد فى الغيط لوحدك. وحتقعد هناك ليل نهار وتنام زى ما فاروق عامل، وحنكون هنا من غير راجل. أحسن شىء إننا ندور على واحد تانى فى الزرعة اللى جاية".

"لما شفت البقر بياكل فى عدسنا، حسيت إنهم بياكلوا فى جسمى تمام. دى على كل حال غلطتى يا امه. أنا كسلان".

فاروق أيضا لم يكن سعيدا، لذا حضر للبيت وأخبر أم حامد، "كل يوم أبعت عيل عشان ينده لشحات، لكن هو رافض ييجى، أعمل إيه انا بقة؟ حاديلكم أحسن نصيب فى محصول العدس. أنا عارف إن فيه ناس كتير بتلسن على، ولاد الكلب دول!"

بعدها كان شحات يذهب للجرن كل يوم ويظل هناك لساعات، يساعد فى إدارة النودج. فاروق هذا يشارك أيضا سبعة مزارعين آخرين فى محصولهم من العدس، القمح والفلو، ويتجمع فى جرنه أى محصول استعدادا لدرسه. فاروق من النادر أن يحضر لمنزله. بالرغم من العز الهابط عليه، إلا أنه ما زال يعيش فى ذاك المنزل الحقيقى، حيث توجد زريبة الحيوانات فى مقدمة الدار، وعائلته ما زالت تسير بعادات ومسابل أفقر الناس.

عندما يشاهد فاروق شحات وهو صامت، يسأله، "باقولك إيه يا شحات، انت خرسيت ليه الأيام دى، يكونش العفاريت رجعت تزورك من تانى؟". يجيب شحات، "لا. ما فيش عفاريت. أنا شايف إن كل الناس الأيام دى بقت عفاريت، فین الاقى الراجل اللی یخدم غیره من قلبه؟ لما اتنين يشتغلوا مع بعض، لازم يكونوا مأمنين لبعض ويخافوا على بعض". يجيب فاروق، "خلينا نبقي زى كده دايما، لكن باقولك إيه، ما فيش اتنين أبدا زى بعض، كل واحد تلاقيه ليه فكر شكل. إذا ما كانتش الدنيا كده، يبقى حتخرب وما حدش يسكن فيها".

لم يضغط فاروق على شحات بشأن الاثنى عشر جنيها المديون بها، وهى تلك التى رماها فى حجر بطة بدون تفكير. مع ذلك، فاروق أيضا كان غارقا فى الديون. اكتشف شحات ذلك عندما اشتكى والد فاروق يوما - وهو رجل طاعن فى السن، ليس له عمل سوى أن يجلس واضعا السيجارة فى فمه - بأن مفتش الزراعة حضر يوما ليطالب فاروق بتسديد ثلاثمائة جنيه مدينا بها للحكومة، عندما أبلغه الأب بذلك، شخط فيه وهو نصف مازح قائلا: "إذا ما زودتش الفلوس اللی بتصرفها على الكيماوى، حنخسر محصول القصب، بعدها طوالى أبعث العساكر يحطوا الحديد فى إيدك".

أمر طبيعى أن يثق شحات فى فاروق، إلى أن تتدخل بعض الأمور فيفسد هذا الاعتقاد. فى يوم من الأيام، حضر لدروة فاروق اثنان

من الأشقياء الذين اعتادوا شرب الخمر مع فاروق فى قهوة عبد الله، هما حسن وسليمان وبرفقتهما ثلاث زجاجة كونيكا. كان شحات يعرفهما جيدا، فهما مشهوران بأنهما يسبان الجميع، يعاكسان النساء، يسرقان من جيرانهما. قيل إنهما حرقا حقل أحدهم بسبب ضغينة سابقة، ويمكن بكل سهولة أن يشهدا زورا أمام البوليس إذا كان فى الأمر زجاجة خمر. شحات يعتقد اعتقادا جازما أنهما هما اللذان ضربا فاروق ذلك الضرب المبرح فى الخصر تلك الليلة، إلا أنه احتفظ بهذا الشك لنفسه. حسن هذا هو رجل طويل القامة، طويل الساقين، بعنق قصير كثيف يجعله يبدو كأنه أحذب، هو الأكثر شرا من زميله. شحات يحترمه لأنه قريب له من بعيد، فهو عم بطة. سمعته البطالة وبشرته الغامقة السمراء أعطته اسما مستعارا هو "العبد". الآن، تعتمد حسن هذا إغاضة شحات، "ليه مش عايز تحلق دقنك يا شحات؟ شكك شكل راجل عجوز. تعالى يا شيخ تعالى، لازم كده تكون حلو معانا ولطيف.. انت فى عز شبابك يا واد، وعضلات دراعك حتبز أهه من كمامك".

لم يستمر الكونيكا طويلا، فاروق الذى تورط وجهه، اقترح أن يذهبا جميعا إلى قهوة عبد الله ليحصلوا على المزيد. بصوت كثيف أخذ يلح على شحات، "أنت تيجى معانا يا شحات، هو انت حتعمل هنا إيه يعنى والعدى لسه طرى ما نشفش عشان ندرسه؟". انضم إليه حسن

وهو يضع ذراعاه الطويله حول رقبة شحات، "تعالى يا واد معانا، إحنا لازم ننبسط". تسأل سليمان وهو يبتسم فتظهر أسنانه الخربة، "إنت ليه اتغيرت كده يا شحات؟ زمان انت كنت بلاعة خمرة"، ثم أخرج من جيبه ورقة مزيتة، أخذ ينظر حوله، ثم فتح الورقة ليبدو بعض الأفيون بداخلها. بينما تجمع الآخرون حوله، صنع تذكرة أفيون وقدمها لشحات، "خد دى وانت حتتسى كل حاجة". عندما رفض شحات، حاول كل من حسن وسليمان أن يرغماه على قبولها، لكنه فلفص منهما وغادر الدروة تتبعه ضحكاتهما الخشنة. بكل غضب، راوده شك بأن فاروق هو الذى وضعهما فى سكتة. الكل يعلم أن حسن وسليمان هما بلطجية القرية وأسوأ السكارى وكل من يتبعهما سوف يكون ماله الخسران. هو لا يرغب أبدا فى مصاحبتهما، ولا سيما أن العدس ليس جاهزا بعد ليدرس.

والد بطة، الذى كان قد قضى وقتا طويلا فى القاهرة يسلى نفسه بالمقامرة، هو أخ غير شقيق لحسن، كانت هناك إشاعات أنه قد وافق أن يكتب كتاب بطة على أحد أبناء حسن هذا، وهو جندى شاب اسمه "على"، لكن فتنة، وهى أخت عبد الباسط الكبرى وجدة بطة فى نفس الوقت، رفضت ذلك، وقالت إن هذا لن يحدث سوى فوق جثتها. لذا قيل إن الأمور توقفت عند هذه النقطة. لكن العرف والتقاليد تقف بقوة إلى جانب حسن ووالد بطة، فالعادات تقرر أن تتزوج البنت من ابن عمها. العرف هو السائد ومن الأمور المقدسة سواء فى الزواج أو الثأر.

حسن هذا لم يكن فقيرا، هو يملك ثلاثة أفدنة، أما ابنه "على" فهو إنسان ممل، سائب الفك، هناك دلائل مؤكدة تجزم بأنه سوف يسير فى خطا أبيه من حيث الفساد والسكر والعريضة، مع العنف فى المعاملة. هذه العائلة كانت دائما مشهورة بفضائحها؛ واحد من أخوة حسن الصغار اكتشف أن زوجته ارتكبت الزنى، لذا ضاجعها ليلة كاملة، ثم جزر عنقها فى الفجر وخبأ مصاغها. بعد ذلك، ادعى أن هناك لصوصا هجموا عليها واغتصبوها وسرقوها ثم قتلوها، لكن الجيران الذين سمعوا صرخاتها، كانوا يعلمون الحقيقة. لكن عندما ثبتت عليها تهمة الزنى، فضل رجال البوليس أن يصدقوا ادعاءاته.

أم حامد تحتقر عائلة حسن، لذا رفضت هذه الأقاويل، قائلة إن فتنة، وهى سيدة قوية الشخصية مثلها، لن ترضى أبدا أن تزوج بطة لأحد من أفراد تلك العائلة المفضوحة. لكن فى واقع الأمر، ليس هناك رأى نافذ لفتنة أو سعاد والدة بطة، طالما أن الرجال قد اتفقوا على أمر ما. العقيدة الإسلامية تجعل من الضرورى الحصول على موافقة الفتاة على الزواج من شخص ما ، لكن هذا، مثل كثير من الأمور الدينية التى تتناقض مع عرف القرية أو سيطرة الذكور، كثيرا ما كانت تنحى جانبا.

أحمد، خال شحات، عندما علم أن هذا الأخير أصبح واعيا وعاقلا، سعد بذلك وعبر عن هذا عندما قابله يوما عند مكان رسو المعديّة. قال لشحات، "أيوه، خللى بالك كده من نفسك وخليك راجل". ثم ظهر الغضب

على وجهه عندما علم أنهم باعوا العجل، "أنا قلت لها ما تبيعش الشب. كان ممكن تخلوه عندكم وبيعه بعد كده بسعر أعلى فى السوق. دا الأسعار فى الطالع يا ناس، دا كان ممكن تشتروا بداله بقرة. يا شحات انت دلوقتى راجل البيت وكل شىء يعتمد عليك. انت المفروض تقرر كل شىء، مش امك"

"دى بس أختك"

"إحنا ما عندناش ستات تمشى رأيها على كلام الرجالة. رأى الستات كله غلط فى غلط. أى شىء يخص الزراعة أو البهايم، هو من اختصاص الرجالة. إذا حاولت أم حامد إنها تعارض فى كل حاجة، أنا حاسيبيها ومش حاسأل فيها. أنا نبهت عليها ما تبيعش البطش، لما انا أقول لا يبقى هى اللا ."

بالرغم من معارضة أحمد، صممت أم حامد أن تستبدل فاروق بطيار، الذى بالرغم من أنه كان قد طلق ابنتها الكبرى، إلا أن صلته بأم حامد ظلت قوية.

طيار هذا، مماثلاً للحاج عبد المطلب، رجل نشأ فى العالم، لذا هو لا يمتلك فقط أرضاً زراعية، لكن يدير دكاناً فى الكوم، ومشارك فى عدد كبير من طلبات الرى، أيضاً هو يساعد المفتش الزراعى فى تسيير أمور العديد من الملاك الصغار فى سنباط. لعنت أم حامد ذلك اليوم

الذى حضر فيه عبد الباسط سكرانا ليعلن، "إذا كانت بنتى انتهى أمرها مع طائر، أنا كمان عايز انتهى منه. من دلوقتى أنا حاشارك فاروق فى المزارعة!"

قررت أم حامد أن تذهب إلى المكان الذى يدرس فيه العدس لتضع الأمور فى نصابها مع فاروق. هى تشعر بالإثارة عندما تفكر فى هذا الموضوع. انتظرت بزوغ النهار بفارغ الصبر. بعد الظهر، وهى فى قمة انفعالها، ارتدت أفضل جلباب صوفى أسود لديها له أكمام طويلة شفافة، تزينت بحلق ذهبى فى وسطه حجر أخضر اللون، تلفعت بطرحة جديدة وفوق الجميع ملاية كريشة سوداء. امتطت حمار شحات الأبيض وسارت فى شوارع القرية. وجهها متورد، الملاية ترفرف حولها وتكاد أن تصل إلى الأرض. بمظهرها المتعالى هذا، الذى يعتبر طبيعة ثانية لها، بدت كأنها سيدة من الطبقة العليا.

كانت أم حامد قد طلبت من طيار وكذلك من حسن، وهو زوج ابنتها الجديد، أن ينتظراها عند مكان جرن الدرس، وعندما وصلت وجدتهما فى انتظارها، بينما فاروق وشحات ومعهما نصف دسنة من الرجال يعملون بجوار النورج. حيث أم حامد الرجال بالتحية المعتادة، ثم هبطت من على ظهر الحمار وخطت فوق جوالات العدس وجلست على الأرض تحت ظلال الدروة. لفترة استراحت من عناء المشوار وهى بكل تواضع تجذب بين الفينة والأخرى طرحتها على وجهها.

هذا المظهر المتواضع لم يخدع أحدا؛ فأم حامد لها حضور طاغ. الرجال بدون وعى تجمعوا حول الدروة وجلسوا على الجوالات وعلى الكنبه منتظرين أن تنطق. فاروق وقد خشى هذه المواجهة، وقف زنهارة وعلى وجهه مظهر كلب معاقب. النساء لا يحضرن بهذا الشكل، لا سيما إذا كانت هى أم حامد الفخورة المتشامخة.

ثم بدأت بصوت خفيض بالكاد يسمع من خلال طرحتها، يا فاروق، دا آخر موسم نزرع فيه معاك، ثم أشارت بكل احتقار لكومة شحات من العدس، "محصول العدس زى الزفت، كل جيرانا جالهم ضعف اللى جالنا. انت ما كنتش دوغرى معانا".

لم يسمع صوت، شحات وهو جالس على الكنبه مع الآخرين، وضع وجهه فى الأرض وليس هناك تعبير محدد على قسماته. سعل فاروق ليسلك زوره، "الحمد لله ، دا أحسن. أنا كنت عايز كده، ومن فضل ربنا إن الموضوع جه عن طريقكم مش منى. أنا ساعدتكم كتير يا ام حامد. إذا ما كنتش مرابط أنا هنا فى سنباط وواحد بالى من أرضكم كل يوم، ما كنتوش حصلتوا على حاجة خالص".

وجهت أم حامد نظرة غاضبة نحوه من خلال طرحتها، قالت، "الحاج أحمد، حصد تسع شوالات من الفدان بتاعه. شحات بيقول ان حفظنا حيكون كويس لو حصلنا على خمس أو ست شوالات. ليه كده يا فاروق؟ وانت عامللى كده زى العمدة، عايز تلهف كل حاجة

من غير ما تتعب نفسك. لكن الغلط مش عليك، دى غلطة ولدى. إذا كان راجل صحيح، ما كنتش سبت بيتى عشان أجيك هنا. ده الفكر اللى معذبني، انت اللى مخسر ولدى.

امتع وجه فاروق، لكنه لم ينطق بشيء. أضافت، "انت خربت أكثر مما بنيت فى عيلتى؛ لما كنا مشاركين طيار، كان بيوصل المحصول لغاية بيتنا، ما كانش لازما أروح أنا بنفسى للغيظ برجلى". هى الآن لها اليد الطولى. لذا قال فاروق، "إحنا بس ليه نتكلم فى المواضيع دى قدام الناس دى كلها؟". حدجته أم حامد ثم ابتسمت ابتسامة كلها سخرية، "دا أنسب وقت أتكلم فيه، ليه نخبى؟ كل الناس عارفاك يا فاروق وازاى انك راجل دحلاب". غمغم هو، "بس المفروض المواضيع دى تكون بيننا وبس".

تدخل طيار فى الحديث - هو رجل جسيم له مظهر مسيطر - قال إنه ناقش موضوع محصول العدس مع أم حامد والمفتش الزراعى. ولأن المحصول كان فقيرا، قال وهو يرمق فاروق بنظراته الثاقبة، إن المفتش قد وافق على أن يخفض الكوتة المطلوبة للحكومة بحيث تصبح جوالا ونصف فقط. أعان طيار أم حامد لكى تقف، ثم توجهها سويا خلف الدروة وعقدا مؤتمرا خاصا.

أخذ طيار يهدئ أم حامد، "ما تزعليش، وما تتكلميش كثير مع فاروق. أنا حاقف معاكى وأحل كل المشاكل".

”حتقدر ازای بس تزرع معانا يا طيار؟ انت ليك ستين شغلة
وشغلة، مشغول خالص”.

”أيوه انا مشغول فعلا، لكن انا أوعدك انى حالاى الوقت اللى اقدر
أخدمكم فيه”. مع حصوله على ثلث كل محصول فى مقابل وقت بسيط
يستغرقه، تشبث طيار بتلك الفرصة السانحة.

عندما عادا إلى الآخرين، أخبر طيار فاروق، ”دا الكلام الصح
لأنه هو المظبوط، كلام أمنا ده ما يزعلش حد لأنه فى منتهى الصراحة.
كل واحد ياخد نصيبه بالحق. إذا حببت تشاركها فى الزراعة، لازم
توافق على كل شروطها، إذا ما حببتش، يمكن لها إنها تزرع أرضها
انشالله شوك إن حبب”.

عمال فاروق الذين تركوا أعمالهم فى درس العدس وتجمعوا
كشهود، صفقوا ورحبوا بكلمات طيار، ثم ابتدأ الجميع يتكلم فى أن
واحد. صاح أحدهم، ”الست دى بتتكلم كلام رجالة! انت اللى غلطان يا
فاروق”، آخر قال، ”إذا كان شغلك مظبوط، ما كانتش جات لغاية هنا”.

تشجعت أم حامد بهذا الحديث، لذا ساءلت فاروق، ”ليه ما يكونش
محصولنا تسع شوالات زى الخلق كلها؟ طبعا لازم الفار يلعب فى عينا.
انت مش كويس يا فاروق، وكمان كسلان، عايز تكوش على كل حاجة من
غير ما تتعب. زمان لما ما كنتش مشاركنا، عمرى فى حياتى ما شفت

الغيط"، ثم لمعت عيناها - هي تزداد عظمة وروعة لا سيما عندما تغضب - "جوزى ميت، ده معناه إننا نسيب الأرض؟ كل يوم نازل تسحب منا فلوس. أنا فاهمة كويس، نص عدسنا راح بلاش. انت اللى سرقتة".

لقد زودتها حبتين، لذا راح لون وجه فاروق، وأخذ يتردد ما بين الأصفر والوردى. تعذر عليه أن يسيطر على نفسه، "ربنا وحده هو اللى بينى وبينك"، استمرت هي، "أنا نفسى اشتك كمان وكمان"، لا تستطيع أى قوة فى العالم أن توقفها الآن، "طيار أهه معانا، أنا حاسم اللى يشور بيه"، ثم التفت نحو طيار "أنا جاية بكرة أخذ كل العدس بتاعى. اللى حيقف فى طريقى، أنا حاعمل فيه اللى ما اتعملش!". قاطعها طيار، "لا، لا سيبى الحاجات دى لى أنا. مكانك مش هنا. انتى تقعدى فى بيتك معززة مكرومة".

التقطت أم حامد أنفاسها بقوة وهى تتنهد، ثم ساعدها طيار لتقوم، قسالت، "أنا راجعة بيتى". ثم فكرت فى تلقيم فاروق آخر شتيمة، لذا نظرت له باحتقار، "ما انت أصلك لىك بيوت كتير". كانت هذه هى أسوأ شتيمة توجه إليه، لأنها تعنى أنه يعمل كقواد وزان. نطق شحات بصوت يكاد أن يسمع، "سلامو عليكم"، ثم امتطى الحمار، بينما سارت أمه على قدميها بجواره كما جرت العادة. لكن كان واضحا تماما، من هو الرئيس؛ منذ الآن فصاعدا، هذا ما خمّنه الرجال، لا يحدث شيء يخص عائلتها بدون موافقتها.

شحات لم يدع أى كلمة تصدر من فمه حتى وصلا المنزل، هناك تكلم بكل هدوء ، "لعلكم، طيار وابويا عمرهم ما اهتموا بالأرض، كانوا يبذروا الأرض، يحطوا فيه وتتركها، وكان الله بالسر عليم. إذا طلع المحصول كويس أو وحش، ما يهتموش. أبويا كان دايما يقول: ده تدبير ربك. دلوقتى النيل بطل فيضان، الأرض بقت ضعيفة والمحصول بقى قليل. النيل ما بقاش يغذى الأرض زى سابق. انتى كنتى قاسية خالص مع فاروق انهارده يا امه". قالت هى ، "لا. أنا عايزة طيار يرجع لنا تانى". لقد شعرت بالإرهاق الآن، "دا بركة ويقدر يشغل الأنفاس بسهولة، هو والمفتش أصحاب، الكل بيحترمه ويخاف منه، فاروق ده بيعر بيتنا ويجرسنا". ثم اعترفت لشحات، "أنا عملت هليلة عشان بصراحة كنت عايزة أخلص من فاروق، ربما يكون العدس اللي لهفه قليل، لكن هو فضيحة بالنسبة لينا، أنا عايزة اخلص منه ومن عمايله".

ما حدث، جعل شحات يكن احتراماً وتقديراً لفاروق، فبالرغم من الشتائم التى انهالت عليه، فضل أن يظل صامتا بخصوص الاثنى عشر جنيها المدين بها هو، وأيضا لم يمس أمه بأى كلمة جارحة أمام الخلق. فاروق بالرغم من عربدته وإغراقه فى السكر، له طريقة خاصة فى حفظ كرامة الآخرين والبعد عن إيذاء مشاعرهم.

مبكرا فى صباح اليوم التالى، وهو يعمل على الشادوف ليروى حقل البرسيم، رأى فاروق آتيا سالكا طريق العربات،

عندما وصل بالقرب منه، خاطبه شحات، "ها إيه الأخبار، حلوه والا مش؟". ضحك فاروق، "لا حلوة. أنا جيت عشان نتحاسب يا شحات. عايز من امك اتناشر جنيه".

"بص يا فاروق، الفلوس دى بالذات بينى وبينك. أنا قلت لك انى حاردهاك بأى طريقة، ليه عايز تتكلم مع امى عشانها؟"

"امتى حتردها؟ عدت عليها تمان شهور. أمك قالت امبارح نتحاسب. خلاص، نتحاسب دلوقتى". انفجر طبع شحات الحامى، "مالك انت ومال امى. يحرق أهلك يا فاروق! انت أصلك عيل مش راجل! الفلوس دى كانت بينى وبينك ويس".

قاطعه فاروق، "بس، بس يا شحات. ما تزعلش قوى كده". لكن شحات التفت إلى عمله صامتا وأخذ يرش الماء حوله بعنف، لذا بعد فاروق لكى لا يبتل، "اهدى يا شحات، ما تبقاش عصبي، تحب تعفر سيجارة؟". عندما استمر شحات فى عمله رافضا تبادل الحديث، هز فاروق كتفيه وواصل سيره فى اتجاه المنزل.

حيته أم حامد ورأسها مرفوع لفوق، "طاب ليه ما جبتش العدس معاك؟". ثم لاحظت أن فاروق يعاملها بمنتهى الأدب، قال، "لازم تعرفى الأول ليه انا جيت اشوفك، مش ليه ما جبتش العدس. مش حيكون عندنا زكايب كفاية قبل بكرة. دلوقتى أنا حاقولك على كل حاجة عملتها.

أنا اتكلمت مع ابويا امبارح، غرضى اقولك انى حاحاسبك على كل حاجة".

أخرج من جيبه نوتة صغيرة. أم حامد، مشابهة فى ذلك كل القرويات، كانت جاهلة، لكنها تفهم الأرقام جيدا. لاحظت أيضا أنه يحتفظ بسجل لكل معاملاته مع الثمانية فلاحين الذين يشاركونهم فى الزراعة فى سنباط. وحالا استطاع أن يقنعها بأن شحات ما زال مدينا له، ثم اختتم حديثه، "ودلوقتى كمان، أنا عايز منكم الاتناشر جنيه بتاعة زمان".

أبدت أم حامد استغرابا، "بعد وفاة المرحوم جوزى، أنا فاكرا انى دفعت لك كل حاجة. كنت كل مرة أدى شحات الفلوس عشان يوصلها لك، سواء فلوس الحرث، الرى والتروكيما وكل كافة شىء".

"زى ما انتى شايفه، المبلغ متقيد هنا، هو لسه عليه اتناشر جنيه، أنا لسه قايل له انى حاقولك واتخايق معايا خناقة كبيرة، دلوقتى عدى على المبلغ ده ييجى تمان شهور".

لم تنطق أم حامد بشىء. كانت غارقة فى أفكارها. أفكار شخص اكتشف أن حساباته العديدة ثبت أن جميعها كانت خاطئة. بعد لحظات استأذنت وصعدت للغرفة العلوية حيث يتواجد صندوقها المقفل. ثم عادت بعد عدة دقائق ومعها اثنا عشر جنيها أعطتها لفاروق. ثم قالت بحزم،

"باقولك إيه، أوعى تنطق بكلمة واحدة قصاد شحات بخصوص الموضوع ده. دلوقتى قوللى، حتعمل إيه فى موضوع العدس؟".

اندهش فاروق، فهى لم تثر كما يجب عند اكتشافها عدم أمانة شحات. لم يفهم فاروق أنها عندما فكرت فى هذا الأمر، تسامحت فى نفسها مع شحات، فحبها له عظيم. فى الحقيقة أيضا، كانت هى تلوم نفسها لأنها لم تراع من قبل أن تعطيه مصروف جيب مناسب. هى تعلم جيدا أن كرامة شحات وعزة نفسه تمنعه من طلب ذلك.

وهى تشاهد فاروق فاغرا فاه، طلبت منه أن يبيع نصف نصيبها من العدس فى السوق، فهى الآن فى حاجة ماسة للنقود، فوافق. ثم استمرت فى الحديث، "فى المستقبل، أنا اللى حادفلك أى حاجة تخص الزراعة، مش حابعت الفلوس مع شحات. لازم الواحد يعرف راسه من رجله، ممكن انا اجيك أو انت تجينى".

شعر فاروق ببعض الخجل، "زى ما انتى عايزة. تعرفى يا ام حامد، عبد الباسط كان صاحب عمرى. ممكن تاخدى العدس كله إذا حبيتى".

تبسمت، "لا يا فاروق، ربنا حيدليك كل اللى تتمناه". إنها يتحدثان الآن مع بعضهما كأنهما صديقان قديمان.

تردد فاروق، كان متأثرا بقوة شخصيتها، لكنه قال وهو محرج، "بصراحة، دى غلطة عبد الباسط. هو عمره ما عود شحات إنه يتحمل

مسنولية. لما شحات هرب مصر عشان ما رضيتوش تجوزوه سنية، عبد الباسط سامحه علطول. شحات مش كسلان أبدا، دا ممكن يشتغل شغل نفرين فى الغيط، لكن هو بس مش قادر ينظم نفسه. كمان هو لسه شباب. أنا باستعجب، طاب لو انا مش واخد بالى منه، حيقدر ازاي ياخد باله من عيلته؟ نفسى شحات ده يكون أحسن فلاح فى بلدنا دى".

بعد الظهر، أتت أربع فتيات صغيرات من الكوم لكى يلتقطن حبات العدس المتناثرة على الأرض. عندما رأى شحات أمه قادمة نحوهن، توقع حدوث مشهد مأساوى كالسابق. أم حامد لم تخبره بشيء، الآن اندهش عندما وجدها فى مزاج طيب وهى تحبى فاروق بسخرية لاذعة، لكن بابتسامة جذابة، "واه يا فاروق! البنات الحلوة دول كلهم شغالين عندك؟ وبعدين يا ولدى، انت حتبوظ الدنيا كلها". تساءلت إحدى البنات برقة، "هو فيه إيه يا خالة، ليه ما جبتيش معاكى سماح تلتقط العدس معنا؟ دا لسه فيه كتير على الأرض".

زفرت أم حامد بغضب، "أى بنت من بناتى، إذا فكرت تيجى هنا، أنا كنت دبحتها دبح. ليه يا بنات جاين هنا؟ أنا عارفة أبو كل واحدة فيكم، وما فيش واحد فيهم فقير".

انفجرت الفتيات فى القهقهة، فتنهدت أم حامد من صميم قلبها قائلة، "خايفة لبعدين فاروق يقل عقله ويتجوزكم كلكم مرة واحدة". فاروق بكل عنف، شخط فى البنات وحذرهن من الضوضاء التى يتسبب فيها،

وأمرهن أن يصنعن الشاي لأم حامد. جلست الفتيات القرفصاء ليشعلن النار ويحضرن الشاي وأيضا ليتسمعن للحديث الذي سوف يدور بين فاروق وأم حامد. قال فاروق بلا خجل، "من غير القمامير دول، الجرن بتاعى ده مش حيسوى حاجة. ما فيش حد من رجالتى مستعد حتى يجيب كباية ميه، البنات دول هما اللي معيشينا". ثم قام هو وشحات وخلعا جلبابيهما وفرداهما على الأرض، ثم، وهما يرتديان فقط الكلسون الأبيض الواسع، حملا خمسة جوانات من العدس وأفرغاها فى كومة كبيرة.

عندما انتهى عمل الشاي، قدمت إحدى الفتيات الكوب الأول لأم حامد، إلا أن فاروق اختطف منها الكوب وأعطاهما لشحات، ثم ضرب الفتاة بكل قوته على كتفها وهو يلعنها، "يخرب بيتك! اوعى فى يوم تقدمى الشاي لمرة قبل الراجل!". دقت الفتاة رجلاها بغضب فى الأرض، قائلة، "يخرب بيت أبوك!" ثم انفجرت فى ضحك هستيرى، وكل الفتيات شاركنها فى الكركرة. فى ضوء الشمس الساطع، بدا وجه فاروق المنقور الداكن مخربا بالخلاعة والتهتك، لذا كان عجيبا فى نظر أم حامد انجذاب الفتيات نحوه.

عاجلا قام فاروق بعيار العدس فى مقطف، بينما وقفت أم حامد فوق رأسه تراقبه كالصقر، ثم اشتكت، "ليه بتهز شوالك وشوالنا لا؟ مش لازم تراعى ربنا يا فاروق لبعدين تروح النار؟"

"باقولك إيه يا ام حامد، أنا أهم شىء عندى هو العدل". بينما يعدل شحات من وضع الجوال، قال معلقا، "ليه، يمكن عايز تروح الحجاز؟". ضحكت أم حامد ضحكة سخرية، "أبدا. عمر ما فاروق حينولها.. طاب ازاي؟ نفسى افهم". فاروق شاركهما الضحك وهو يحرك قبضته فى الهواء، "ابعدى عنى بس شوية"، فازاحت يده بعيدا وقالت، "طيار عمره ما غشنى زى كده، عمره ما هز شواله وشوالى أنا لا".

احتج فاروق، "أنا أنصف واحد فى الناحية دى كلها. المحصول ده كان أحسن من اللى فى الجنب ده أو الجنب اللى هناك، لما الحكومة توزن نصيبها وتقول انه قليل، روى قولى ليهم إن فاروق هو اللى سرق عدسكم". لم تنتو أن يفوتها شىء، "استنى يا فاروق! الشوال ده لسه ما اتملاش على الآخر". قال فاروق، "اسكتى يا ام حامد، انتى أخذتى نصيبك خلاص. الشوال دا بتاعى أنا".

ضحك شحات، "لما تيجى امى الغيط، تلخبط كل حاجة".

أخذت أم حامد تعد الجوالات بصوت عال، "أنا حأخذ خمس شوالات، واخلى معاك سبعة عشان تبيعهم لينا".

ابتسم فاروق، "عايزة فلوس، ممكن اديكى خمسة جنيه من جيبى".

"لا، لا، إذا احتجت لفلوس ابقى آخذ من اخويا أحمد".

تعمد فاروق أغاظتها، "ليه بتعترفى قدام البنات انك بتاخدى فلوس من أخوكى؟"

شعرت بالإحراج، لذا غيرت الموضوع، "القصبة السنتة دى وحش خالص، وانت عارف كده"

"أيوه صحيح، التسع أيام اللى سافرت انا فيهم، انتى وشحات ما زقيتوش القصب كويس"

ثم وقف على قدميه كأنه يود أن يوضح الأمور، "والله العظيم يا أم حامد، وقدام الرجالة دى كلها، أنا حانده لواحد من رجالتى وتحلفيه إذا كنت انا بازقى القصب كفايته من الميه والا لا!"

نادى فاروق بصوت عال لرجل يعمل بعيدا، فأتى هذا مسرعا، "باقولك إيه يا محمود، قول الحق يا شيخ، إذا ما قلتش الحق ربنا ياخذ عيالك ويخرب بيتك. أنا كنت بازقى القصب كفايته من الميه والا لا؟"

قال الرجل، وهو بالكاد يرغب فى ترك عمله، "أيوه، انت بتزقيه آخر تمام"

قالت له أم حامد، "بس الرجالة، أحيانا بيرووا الزرع، وأحيانا لا. مش كده؟"

ابتسم الرجل، ثم أسرع لمكان عمله.

قال شحات، وهو لا يفقه هذا الود القلبي الحديث الذى نشأ بين والدته وبين فاروق، "ما تزعلش يا فاروق". ضحك فاروق، "أنا عمرى ما

ازعل، ازای بس عایزنی ازعل من مرات حبیبی عبد الباسط الله یرحمه،
دا ابوک کان صاحبی الروح بالروح. کل یوم کان یجی هنا وجیوبه
ملیانة بقزایز البراندی والکونیاک. عمره ما سأل فی موضوع الفلوس
أو الزرع، أنا اللى کنت بنفسی أجیب له المحصول لحد باب البیت".

ما أن تسلم شحات نصیبه من العدس، وذهب به محملا علی
حماره، إلا وقامت أم حامد بفرد قماشة کبيرة فی المنذرة الأمامية،
ثم فرغت کل الأجولة. بدأت بعد ذلك فی تجهیز ربطات سوف تقدمها
هدایا لأفراد العائلة وأصدقائها. هذه الریطة سوف تكون من نصیب
أخيها أحمد وزوجته، ثم اثنتان لابنتيها المتزوجتين، وواحدة لوالدة
"العزب" وأخرى لعبد الرحمن. ثم لا یجب أن تنسى شلتوت المسکین
وزوجته زینب فی القهوة. عندما برزت رأس سعاد فی باب الدار،
صاحت هذه، "حتاکلی العدس ده کله لوحدک یا ام حامد؟". حتی هذه
لا یمكن استبعادها من الهدایا. بعد ذلك هناك حبیبتها بهیة، وبالتاکید
لا یمكن أن تنسى الشیخة دایة.. وهكذا استمر الحال.

صباح الیوم التالی، عندما توجه شحات لیجلب بعض الحشائش
للبهائم، اکتشف أن العدس المتبقی لن یکفیهم للسته شهور التالیة، نصفه
قد اختفى. بسرعة صعد إلى الدور الأعلى وهز کتف أمه بعنف وصاح
فیها، "فین العدس؟". ما زال النعاس ممسکا بتلابیبها، فی ذهول
تساءلت، "عدس إیه؟ حصل إیه یا ولدی؟"

هنا اشتعل غضب شحات، "دلوقتي مين فينا اللي وحش ؟ أنا والا انتي ؟ دايما تقولى عنى انى كسلان وانى ما باخدمش الأرض كويس، وانى مش واخد بالى من حاجة خالص، إيه اللي عملتیه ده فى العدس؟ تكونيش انتي برنسياسة غنية؟ انتي إيه؟ انتي عبارة عن ست غلبانة وفقرانة وجعانة كمان!"

بخوف، هبت فيه، "يا فطيس! ما لكش دعوة!"، ثم صاحت بصوت أجش، "ازاى انت تزعق فى وشى كده؟ دا بيتى وأنا حرة اعمل اللي انا عايزاه. امشى بعيد عنى، يا ريت الكلاب تاكل قلبك! إيه اللي انت عملته للبيت ده؟ ودلوقتي عامللى شغلانة عشان شوية عدس اتصرفت انا فيهم؟"

" انتى اللي تغورى، انشالله الكلاب تاكلك انتى وأهلك كلهم!"

أصيبت أم حامد بصدمة كبرى. شحات لم يخاطبها من قبل بهذا الأسلوب، فهددت، "أنا قايمة رايحة لخالك أحمد يشوف شغله معاك ويعلمك ازاى تحترم امك!". هى فى الحقيقة تخشى بالأكثر لسان أخيها أحمد. "إذا هو جه هنا، أنا حاقطعه حتت! انتى اللي الغلط راكبك من ساسك لراسك، مش انا".

فى الطابق الأرضي، حاولت أم حامد أن تتحامى فى سماح، لكن هذه وقفت مع أخيها وتساءلت، "ليه يا امه بذرتى نص العدس بتاعنا؟"،

ثم أخذت تعدد أسماء كل من تسلم هديته فأصابته الدهشة أم حامد .
لقد نسيت أنهم بهذه الكثرة.

"ازاي يا بت حفصتي أساميهم كلهم؛ يا سلام يا سماح، أعمل إيه
بس يا بتي، كل واحد كان بيسألني المحصول كويس والا لا، كنت
اتكسف واديله شويه"

عندما حمل شحات العليقة لبهائمه، نادته أم حامد والقلق مسيطرا
عليها، "ما فيهاش حاجة يعنى لما نهدي شوية عدس للحبايب والقرايب،
لما الواحد يكون سخي كده، ربنا بيرزقه كمان وكمان. تعالى يا حبيبي
اشرب الشاي".

"لا. مش عايز زفت"

رفعت أم حامد يديها للسماء ودعت، "يا رب، من فضلك غير من
طبع ولدي شحات، وخليه يكون مهاود وساكتر".

أجزاء من المبراة

الحياة فى القرية محكومة بالمواسم الزراعية. وشحات، بالرغم من أنه زرع عدسا بسبب تحكيمات المفتش، فى الحال بدأ فى مساعدة العزب وعبد الرحمن وأبناء عم سالم وأيضا الحاج عبد المطلب فى حصد محصول القمح، وهو المحصول الشتوى الرئيسى. الحرارة المزعجة لصيف مصر العليا كانت على الأبواب. لذا فالحصاد كان يبدأ من الفجر حتى وقت الظهر فقط، لكن شحات كان راضيا عن نفسه، هكذا هو الحال معه دائما عندما يعمل بكل جهده فى الحقل.

عندما زادت الحرارة بمرور الأيام، بدا شكل السماء باهتا؛ الحقول الخضراء تحولت لتصبح غامقة الصفار. أصبحت القرية مغبرة أكثر من أى وقت مضى. الغبار استقر كأنما هو الطلع فوق ظهور الحصادين الفارقة فى العرق. عند الظهر، عندما يتوقف عمل اليوم، تتحلق فى الجو غلالة كثيفة من الغبار تغطى وجه السماء، وتتحول الشمس إلى اللون الأبيض الشاهق. كل صباح، يمكن أن تلاحظ الظهر المحنى لشحات وزملائه وهم يعملون فى حقل أو آخر، وهم يعملون فى السنابل

الناضجة، ممسكين أحيانا بمجموعة منها فى وقت واحد، محاولين بقدر الإمكان تفادى أشواكها، يتقدمون ببطء، ينتقلون من جانب لآخر، يقفون أو يقرفصون على أردافهم قليلا ليستريحوا قليلا. بكل ثبات وبطريقة آلية ينتقلون من نهاية حقل إلى بداية آخر، ينتظمون فى صف عرضى طويل، مناجلهم تلمع فى الشمس، ويصدر منها جميعا نفس الصوت جرراس.. جرراس.. جرررس. من لمعة مناجلهم، من ظهورهم المبتلة بالعرق وبالطريقة التى يجمعون بها السنابل، يمكن أن تتخيل درجة الحرارة الخانقة التى يتعرضون لها.

كل من شحات وعبد الرحمن هما الأسرع فى العمل، العزب كان بطيئا وثابتا فى مكانه، أبناء سالم يتعبون سريعا. ما أن تبدأ العضلات فى التعب والتوتر، تزيد درجة ميل الشباب لتبادل النكات والثرثرة؛ كثيرا ما يغنون تلك الأغنية الحزينة بالطريقة الصعيدية التى تشبه البكاء "يا لوبلى.. يا لوبلى".

فقط فى حقل الحاج عبد المطلب يبدو العمل كأنه لا يتقدم أبدا، ففيه عشرات من الحصادين الأكبر سنا، الأكسل وكذلك بلهاء القرية، هم جميعا يحصدون أقل القليل، بينما القمح الناضج ينشف بسرعة ويتناثر على الأرض. يعبر هؤلاء الحصادون الكسالى عن رأيهم بقولهم، "لماذا نتعب أنفسنا. الحاج فى منتهى البخل، لا يعطينا سوى خمسة وثلاثين قرشا، بينما الآخرين الذين يعملون فى الحقول الأخرى يحصلون على

خمسين". الحاج عبد المطلب بذاته يحضر أحيانا إلى الحقل وفوق رأسه مظلة بيضاء تقيه حر الشمس، ثم يقف بعيدا يشكوكم هو منشغل، كيف أن الحصادين هؤلاء مجموعة من الكسالى، التكلفة العالية للعمالة، السعر المنخفض للقمح وكذلك مقدار النقود التى ينفقها لزراعته. بهية ، التى تحضر الشاى للعاملين تؤنبهم، "انتو والله ناس بطالين، بتسيبوا سنابل كثيرة وراكم، شوفوا قد إيه اللى حصدتوه انهاردة، قليل خالص! أعمل إيه بس يا ربى؟ ما اقدرش اعمل كل حاجة بنفسى، جوه البيت وبراہ. أنا باشربكم شاى كثير، وفاكرين انتو إننا حنبيع القمح ده بشوية وشويات. مش واخدين بالكم من المصاريف ! البذور، الميه، العمال والتروكيما!"

بهية تقدمت برجاء لشحات أن يأتى ويساعدهم. أخبرها، "بصراحة الحاج بخيل خالص، عمره ما يهون عليه يدفع كويس عشان ياخذ عمال كويسين، بكده يخللى القمح كله يقع فى الأرض". ذهب شحات يوما ليحصد فى حقل الحاج، ثم خاطب الحصادين بصوت عال، "بصوا يا رجاله، الست بهية هى اللى بتجيب لنا الشاى، لكن كل يوم ترجع بيتها زعلانة. من فضلكم اشتغلوا أسرع من كده، والا حيضيع نص المحصول ده. لازم يا اخوانا نساعد سواء كان الحاج كويس أو وحش، كفاية إن مراته هى ست الستات". لكن العمال احتجوا وقال أحدهم، "ليه نتعب نفسينا ؟ إذا خسر الحاج المحصول، فده ذنبه لأنه ماسك خالص"

عندما توجه إلى منزله يوما وقت الظهر، متعبا، مرهقا، مبللا بالعرق والغبار، رأى صديقه "القط" يسير مسرعا فى الطريق المجاور للترعة. أسرع ليلحق به، لكن ما أن رآه القط قادمًا نحوه، أسرع فى خطوه. بالرغم من شدة حرارة الظهر، كان القط مرتديا جلبابا صوفيا أسود وجيوبه منتفخة. ظن شحات أن صديقه يتودد حاليا لعروس جديدة وذاهب ليقدم لها هداياه.

نادى عليه شحات، بعد أن لحق به ومشى خلفه بعدة خطوات، قال له قاصدا إغاضته، "وشك مغير يا قط، انت رايع جنازة والا إيه؟ عامل زى اليتيم اللى واكل أهله. ايوه، بس انت عمرك ما تقزح بالسرعة دى، يكونش عشان تلحق بالجنازة؟ لا أبدا. انت عامل زى الكلب اللى عايز يحصل كلبة فى عز الحر ده"، ضحك شحات على النكتة التى أطلقها.

بدون أن يقلل من خطواته أو ينظر خلفه، قال القط، "امشى بعيد عنى يا شحات. سيبنى لوحدى، إذا ماتت البلاد كلها، أنا ما باروحش جنازات، ما امشيش إلا فى المواضيع المهمة وبس"

"طاب ليه جيوبك مبقلة كده؟"

"ساعة سودة اللى شفت فيها وشك، شاييل معايا شيكولاته، سكر، شاي وكمان مشط وإسورة".

"أتلميت على الحاجات من فين يا قط؟"

"سرقتهن"

فى تلك اللحظة خرجت بهية من الحقل فرأت القط، لذا صاحت،
"على فين العزم يا قط وانت بجلبيتك السوداء الصوف دى فى عز الحر؟".

"رايح لحبيبة القلب"

أطلقت بهية ضحكة مرحة، "أيوه.. دا لايق عليك خالص"

أسرع القط وتجاوزها وهو يقول بصوت عال، "أى مصيبة يقع فيها
الراجل، يبقى وراها واحدة ست، لما الواحد يطلع فوق المره يبقى كل
شئ تمام، لكن غير كده، كلكم شر"

شهقت بهية شهقة عالية.

نظر القط خلفه، "أبقى استننى هنا يا بهية، يمكن ربنا يكتبها لك
وتكونى مراتى نمرة خمسة!"

لعنته بهية، "روح. الله يخرب بيتك!"

علق على ذلك، "إيه؟، بتقولى انك حتجبنى حتى لو اتخرب بيتى؟".

خشية أن تستمع للمزيد، أسرع بهية فى الاتجاه المعاكس.

كان كل من شحات والعزب يحصدان فى الصباح بعد ذلك بعدة
أيام، عندما شاهدوا القط عائدا سالكا نفس الطريق المجاور للترعة،

وعروسه الجديدة تركب حمارا بجواره. جرى الرجال تاركين الحقول، ثم تجمعوا فوق الكوبرى ليرحبوا به، وطالما أن الوقت لا يسمح بإحضار الطبالين والزمارين، أمسك كل واحد منهم بعصا وأخذ يطبل على علب الصفيح أو أى شىء آخر يجده. صاح شحات فوق تلك الضجة الهائلة، "عارفين ليه الحر زاد وغطى اليومين اللى فاتوا ؟ أنا عارف. أصل القط كان بيتمتع بشهر العسل فى السر!"، انفجر الضحك والضجيج وعبارات الترحيب، مما جعل كل من بهية وأم حامد تخرجان من منزل الحاج ليستطلعا الأمر. صاحت بعض النسوة، "مرحبابك فى بلدنا يا عروسة. مبروك"، ثم أسرعن يحيين العروس ويصافحنها. العروس هى أرملة من قرية الموريس، يقال إن سكانها من نسل جنود نابليون ومشهورون عموما بجمالهم. الأرملة لم تكن شابة، لكن كانت جذابة وسمينة إلى حد ما. أعطت كلا من أم حامد وبهية بعض الحلوى والكحك، فضحكت أم حامد وصاحت، "انشالله يا قط العروسة الجديدة تملا بيتك عيال!"

قال القط وهو غاضب وفى حالة هياج بسبب ذلك الاستقبال العاصف، "انتو بتضحكوا وتهيصوا جامد ليه كده قدام العريس الجديد؟".

أخبرته أم حامد، "أنا باضحك عشان انت راجل ولا كل الرجال. الكل قالوا مافيش عروسة حترضى بالقط، لكن أهه عملتها".

لأيام عدة، عندما يمر شحات والعزب على بيت القط ليلا يصيحون، "القط، القط"، وإذا أخطأ وفتح ضلفة نافذة ليطل وهو عليه علامات النوم

وشعره منكوش، يقولون له، "انت زعلان ومقهور ليه يا قط، هو الحال مش ماشى تمام مع العروسة والا إيه؟".

القرويون دائما ما يكونون فى حالة انشغال دائم بأموهم الخاصة، لذا لا يهتمون كثيرا بالأمور الخارجية، بالرغم من أن الكثيرين منهم كانوا يستمعون لخطب الرئيس فى قهوة شلتوت. منذ قيام ثورة ١٩٥٢، حتى أفقر الناس شعر بقليل من التحرر، لكن قبل ناصر، كان الحاكم معناه هو الطاغية المستبد، يهتم فقط بجباية الضرائب ويجبر الناس على دخول الجندية، وعادة ما كان أحد يهتم بالفلاحين من الناحية السياسية.

فى صباح أحد الأيام، على الطريق المجاور للترعة، قابل شحات مجموعة كبيرة من مسيحيى نجع باسيلي يسировون وقد ارتدوا ملابسهم السوداء، عيونهم حمراء من فرط البكاء. منذ الوهلة الأولى، ظن شحات أن هذا التجمع يختص بوفاة أحدهم، لكن شرحوا له بأنهم يشيعون الآن شابا اسمه رومانى إلى محطة السكة الحديد فى الأقصر، فهو مطلوب للتجنيد.

مترى العجوز، وهو الجد الأكبر لرومانى هذا، كان هو الذى يقود هذه الحملة الحزينة؛ بالكاد استطاع أن يخفى نشيجه عندما حيا شحات، ثم انهمرت الدموع الغزيرة من عيونه شبه العمياء. حتى رومانى نفسه، وهو شاب متين البنیان، دمه حامى، لا تعوزه الشجاعة والمقدرة عندما يتخاف مع أحد أفراد عائلته، هو الآن يشهق كما لو أن حكما بالإعدام قد صدر ضده.

قال متری بصوته الواهن الحاد، "هى أخبار الديش إيه دلوقتى يا شحات، فيه حرب الأيام دى والا لا ؟ رومانى ولدى حيموت فى الديش؟ إيه الأخبار، قول الحق يا شحات".

أجاب هذا، "أنا حاعرف منين؟ أنا ما اعرفش أقرا كويس، خليها على الله يا مقدس"

استمر الرجل فى نشيجه، "حيرجع ولدنا ازاي؟ إذا ما خسرش عينه، حنتقطع إيداه أو رجله. رومانى إذا دخل الديش، يبقى خلاص، راح، انتهى".

كان شحات يسمع أنه فى الأيام الغابرة، شباب القرية كانوا يلجأون إلى قطع إصبع من أصابعهم أو يفقأون عينا لكى يرفض تجنيدهم. أو أن يختبئوا فى الصحارى إذا عدموا الوسيلة للهرب واضطروا لدخول الجيش ، يتلقى أهلهم التعازى رسميا كأن ابنهم قد مات فعلا. فى الأيام الغابرة، كان هجران القرية معناه الموت المؤكد.

لكن الوقت تغير، الآن يعود أصدقاء شحات من الجيش متعلمين ومدركين لكل ما يحدث فى العالم الخارجى. حاول شحات مرتين أن يتجنّد، لكن طلبه كان يرفض بسبب صغر سنه. لكن الآن هو يرفض لأنه الابن الأكبر والعائل لأرملة بأولاد.

نصح رومانى قائلا، "ما تخافش يا وله، الكشف الأولانى ما ياخدش أكثر من ساعتين ثلاثة، بعدين يرجعوك بيتك. دول بس حيقلعوك هدمك

ويفحصوك، إذا كنت لايق، المرة الثانية حتبقى عسكري جيش، وحتتبسط خالص، حيدولك زى ويأكلوك وكل حاجة"، ولكى يرفع من معنويات الشاب أضاف، "خد معاك باكتة سجائر، دا كل اللي يعوزه العساكر، حيخلوك تفحص الأول بعدها ترجع بيتكم بسرعة".

لرومانى، كان هذا الحديث كأنما هو وصف لحفلة إعدام، قال لشحات، "ادعى لربنا يا شحات، ما سيبك منى أنا"، ثم أخذ ينهقه، واستمرت مسيرة الجنازة.

من طرف الحقل، أخذت أم حامد تزعق، "شحات، يا شحات"، عندما حضر إليها قالت إن الحاج على قد تلفن لصبحى من القاهرة طالبا منه أن يحضر إلى القاهرة ومعه شهادة وفاة عبد الباسط المجند القديم لكى يطالبوا بتقرير معاش لأرملته وأولادها. غادر شحات مكان عمله واستدعى خاله أحمد ليحضر مؤتمرا عائليا. لقد علموا أن الحاج قد أخبر صبحى بضرورة قيامه بإحضار الشهادة بنفسه، وأنه ليس هناك لزوم لحضور شحات أو أم حامد. فى المؤتمر قررت أم حامد ومعها أحمد بأن الوحيد الذى يمكن أن يؤتمن على الوثيقة لن يكون سوى شحات نفسه.

دبر أحمد بعض الجنيهاات من أجل سفر شحات بالقطار، وأعطاه أيضا حذاء وشرابا من مقتنياته. سافر شحات بالدرجة الثالثة فى قطار الليل الذى كان ممتلئا بالجنود، لذا اضطر أن يقف طوال فترة السفر.

أخيرا وصل فى الفجر إلى محطة باب الحديد، ثم اخترق ميدان رمسيس وسط ازدحام خانق، وبالكاد ألقى نظرة عابرة على التمثال الجرانيتى للفرعون القديم رمسيس الثانى. ما أن خطا وسط الحوارى المتشعبة لباب الشعرية، أكثر مناطق القاهرة كثافة سكانية، حتى وجد نفسه وسط عدد كبير ممن يرتدون الجلابيب والعمم، لذا أحس فى هذا المكان كأنه فى بلده. إذا كانت قريته تتمتع بميزة لا تختص بزمن محدد، بمعابدها الفرعونية والصحراء الشاسعة التى تحيط بها من كل جانب، فإن باب الشعرية يعيش فى جو القرون الوسطى.

أسرع شحات مخلفا وراءه العمارات، المساجد، القصور المملوكية، يشاهد لحوم ذبائح الجاموس المخططة بالألوان الحمراء، معلقة فى خطافات فى الهواء الطلق أمام محلات بيع اللحوم، وكذلك أرجل الجمال المجهزة لمن يرغب فى شرائها. يرى الحمامات الشعبية، والمقاهى التى تقدم القهوة التركية والشاى والقرفة والينسون. وهو يسير، مرت بجواره عربة يجرها حمار، ثم طرطشت عليه عجلات هذه العربة بعضا من المياه الطينية ولوثت جلبابه، واحد من المارة بجواره أخذ يزعق، "يا عريجى يا ابن الوسخة!". ثم اقترب منه نوبى، وجهه أسود لامع وهمس فى أذنه، "تشتري أفيون؟". بعدها اخترقت طبلة أذنه نداء يباع يقول "النعناع!".

فى كل مكان، هناك من يخترق طريقه متعجلا، يدفع الآخرين بلا اهتمام، يصرخ بصوت أجش ونفاذ صبر، ضاحكا مثيرا للضحيج.

أخيرا شعر شحات بالارتياح عندما وصل إلى قهوة واسعة غرباء معلق على واجهتها يافطة كالحلة نادى أصدقاء القرنة . هو مكان سيئ الإضاءة، كهفى الشكل، ملئ برجال يرتدون ملابس القرية، يلعبون الكوتشينة، الدومينو، الطاولة أو جالسين يتسامرون، والبعض الآخر يدخل الشيشة. الجرسونات يزرعون المكان حاملين الصوانى عليها أكواب الشاي والقهوة. كل الرجال الذين نزحوا من القرنة أو بيراط تجدهم هنا . شحات الذى لم يتمش من قبل بجوار النيل حيث تقع الفنادق الفاخرة والمباني الحكومية الضخمة ولم يزر المتحف المصرى أو الأهرام، نادرا ما كان يترك مكان القهوة عندما يكون فى القاهرة.

تعرف عليه أحد الجرسونات وقال له إن الحاج على ينام فى لوكاندة قصر مارينا، الذى برغم أبهة اسمها، ليست سوى بنسيون فقير يلجأ إليه القادمون من الريف. وهو داخل القهوة، وجد شحات مائدة متطرفة، فطلب أن يشرب شايا، ثم استغرق فى نوم عميق، لم يصح منه إلا عندما ربت على كتفه الحاج على ليستيقظ. أخذ الحاج يعنفه، "ليه ما جتش قبل كده ؟ أنا بعت تلغراف وكلمت صبحى بالتليفون".

حاول شحات أن يستخدم نكاهه الفطرى، لذا قال، "أنت ليه قلت ان صبحى هو اللي ييجى بدل منى؟"، أجاب ذاك، "لا، لا، أنا ما قلتش كده، أنا طبعا عارف انك مشغول فى الأرض، قلت فى بالى، إذا بعثوا الشهادة مع صبحى حيكون أحسن. دلوقتى ادينى الشهادة"

لكن شحات رفض أن يسلمها له. فى اليوم التالى، كان بجوار الحاج على وهما يزوران مكتبا حكوميا. يبدو أن الموظف كان على علاقة طيبة مع الحاج على، وكان هناك تبادل متعدد للسجائر منه وإليه، وكلاهما يولع السيجارة للآخر. أخيرا قيل لشحات أن يعود بعد شهر ومعه بعض الأوراق التى سوف يصل بها الحاج على ويجب أن تكون ممهورة بتوقيع قاض بالأقصر؛ حينذاك سوف يستحق لام حامد مبلغ متجمد يزيد عن ثلاثمائة جنيه. كل من سماح ونوبى وأحمد سوف يتقاضى كل واحد منهم جنيهين كل شهر، طالما أن أحدهم لم يتجاوز الواحدة والعشرين من العمر.

ما أن انقضى هذا الموضوع، حتى كان الحاج فى أوج روحه العالية، لذا اصطحب شحات إلى مطعم جيد يقدم الكباب والبيرة. بعد شرب عدد من الزجاجات، أصبح الحاج سكرانا، فقال لشحات، "خلينا نقل موضوع المعاش ده يا ابن عمى، أنا تعبت من الكلام فيه للرايح والجائى. دلوقتى اوعى لما ترجع البلد تتكلم عنه كمان. انت عارف طبعا قد إيه صبحى راجل بطل وكل مشاكلى مع امك سببها ابن اخويا ده. دا حتى طلب منى ما اساعدكش لا انت ولا أم حامد. دا بيعوم فى الفلوس عوم، مع كده بيعسدكم على إيه؟ ما اعرفش. دايمًا يقول انك انت وامك ماشيين فى البلد ومناخيركم فى السما فاكرين نفسكم أحسن منه. على أى حال، سيينا منه. انت يا شحات ممكن تعتمد على فى كل أموركم".

ما أن سمعت أم حامد عن موضوع المعاش، حتى أخذت تفكر كيف يمكن لها أن تحقق حلم حياتها وهو الذهاب إلى مكة المكرمة. هي أو شحات لم يخطر ببالهم اللحظة واحدة أن يستخدموا تلك النقود في تسديد ديونهم.

شعر أخوها أحمد بغضب عات عندما سمع أنها قبلت مساعدة الحاج على، ما أن قابل شحات حتى بادره، "انت ليه بتتكلم مع الحاج على؟ دا مكار وتعلب. مالکش دعوة خالص بالراجل ده. ما اتعلمتش انت ولا امك من الدروس اللى فاتت؟". حاول شحات أن يستخدم المنطق معه، "أنا ما اقدرش اعامل الحاج "على" وحش يا خال. دا ابن عم ابويا. لكن بعد ما ناخذ المعاش، كل واحد حيروح لحال سبيله. ما تزعلش قوى كده، إذا الواحد كان عايز أموره تنقضى، لازم يبقى حكيم وصابر".

ثار أحمد لأن شحات يحاول أن يلقي على مسامعه بالدروس، لذا رفض أن يضافحه مودعا قائلًا، "طيب يا خويا، روح اعمل ما بدالك". تملك شحات غضب مماثل لذا قال، "وانا كمان مش حاخطي بيتك دا تانى!". حذره أحمد، "إذا انت عملت أى حاجة غلط فى امك، أنا حاقطعك حتت وما حدش حيحس بيك".

معاهدة السلام التى وقعت مع الحاج على، ثبت أنها قصيرة الأجل. فتنة، أخت عبد الباسط الكبرى العجوز، شبه العمياء، أرسلت قولاً لشحات تخبره فيه أن الحاج على حاول أن يدفعها لتتقدم بطلب ليكون

لها نصيب من معاش عبد الباسط، لكن هى رفضت بإباء وشمم. هى وأم حامد لم يكونا على وفاق لمدة ثلاثين عاما، لكن مرة، عندما سمعت أم حامد أن فتنة تعالج عينيها عند طبيب فى الأقصر، قامت فوراً ببيع غنمة ودفعت عنها تكاليف العلاج.

فتنة هذه لم تكن فقيرة، زوجها رجل عجوز معاق وملازم للفراش، لكنهم ما زالوا يملكون ثلاثة أفدنة بجوار الكوبرى، ويقوم العزب بزراعتها. عندما شعرت بالإحراج من عرض الحاج على، سعت لأن تتوافق مع أم حامد قبلما تموت، لذا طلبت من شحات أن يأتى لمنزلها يوما ليتعشى معهم، علما بأنه لم يزرهم منذ أيام أن كان يغازل بطة.

لأن مسكن الحاج على يقع قريبا من مسكن فتنة على المنحدرات الصخرية الصحراوية بجوار قرنة مرعى، توقف شحات هناك وهو فى طريقه إلى منزل فتنة.

حيا الحاج شحات بأسلوبه المتدفق، وشعر باهتمام بالغ عندما علم أن شحات سوف يتعشى الليلة عند فتنة، قال إنه يتمنى أن يلحق بهم، لكن للأسف عليه أن يقوم بزيارة صديقه مفتش البوليس. بينما يتحدث، سمعا نفير سيارة متعجلا فى عرض الطريق، متعجلا فى الذهاب، جمع الحاج الأوراق التى وعد أن يحضرها من القاهرة بنوع من التوتر الشديد وسلمها لشحات مخاطبا إياه، "خذ الورقات دول، خللى امك تملاهم وتبصم عليهم وتوديعهم للقاضى عشان يعتمدهم، بعدين أنا

حاحدهم معايا مصر لما اسافر تانى". قال شحات، "لا أنا حاوديههم بنفسى"، رد عليه الحاج على بسخرية، "أيوه. انت اللى توديههم صح، ما انت تعرف تعمل كل حاجة".

تمتع شحات بصحبة عمته فتنه. وضعت بطة العشاء فى غرفة علوية وهو مكون من فراخ محمرة وأرز. كما هى العادة بالنسبة للضيوف من الرجال، لم تاكل عمته معه، لكنها جلست معه وأخذت تتذكر الأيام الجميلة عندما كان جده ما زال على قيد الحياة والبيت الكبير يعج بالناس. الآن، باستثناء بطة والزوج المريض، الغرف العديدة خالية تماما وساكنة وكئيبة.

قالت فتنه، "انت الخالق الناطق جـدك يا شحات، انت تعرف ازاي تتحدث مع كل واحد بلونه، ودايما تنكت، ربنا يحرسك من كل عين ردية".

سمعت جلبة وأصوات فى الدور الأرضى. هناك شخص ما يتحدث بصوت خفيض فظ، لذا نزلت العمه لترى ما هو الموضوع. سمعها شحات بعد ذلك وهى تزق بصوت عال، أيضا سمع صوت بطة حادا ومنزعجا. وهو يصغى بانتباه لتلك الأصوات وهى ترتفع وتنخفض فى غضب واستثارة، فتح شحات الباب ليتمكن من الاستماع جيدا للكلمات. سمع أحدهم يصيح، "انتى يا فتنه سبب كل المشاكل، انتى اللى شجعتيها على أمور الخلاعة دى!"

زحف شحات نحو الفسحة التى أمام السلم ونظر إلى الأسفل ليتحقق من شكل هذا الذى يتبجح فى عمته. الصالة أسفل إضاعتها خافتة، بالكاد استطاع أن يميز شكل المتكلم. هو رجل طويل القامة، صدره مبسط، نحيف، ذراعا طويلتان، ظهره محن قليلا. إنه حسن، العبد، من الكوم. وقف أمام الباب وهو مفرط فى السكر يصيح فى وجه فتنة، "كل يوم تلبس هدوم محرقة عشان تجن العيال! الفاجرة! أنا لازم أخذها بيتى الليلة، دى مكتوب كتابها على ولدى، لازم تيجى معايا وإلا حيسيح دم! دخلة بطة على ولدى الليلة!". إذن كل الإشاعات التى سمعها شحات صحيحة. رفع حسن يده الطويلة ليضرب بها فتنة وهو يقول، "انتى يا عقربة يا عجوزة اللى مرمغتى راسى فى الطين، أنا عارف انتى بتقولى إيه للناس عنى! أعمالك دى حتخلص على ناس كثير!"

فتنة وهى ترتعش وممسكة بتلابيب بطة، بصوت مرعب، "مش ممكن تاخذ بطة، يا سكران يا فلاتى، انت تاخذها ليه؟ وبأى حق؟ ابنك معاشر الزوانى وبناتك بيضربوا بطة كل ما يشوفوها جنب البير ويبشتموها شتايم وسخة، ما تقدرش تاخذها".

بطة أيضا وهى تصرخ بصوت هستيرى، "بناتك بيضربونى! أنا حتى مش بالكلمهم، أروح بيتك، أبدا، أبدا".

كان مشهدا مرعبا، رجع شحات للغرفة العلوية مسرعا وأمسك أول شىء تعثر عليه يده، إنها زجاجة ماء، ثم عاد إلى موقعه الأول.

لاحظ أن حسن ممسك بذراعى بطة يحاول جذبها للخارج، بينما تجذبها فتنة بجنون إلى الداخل، حسن أخذ يصرخ فى وجه الفتاة، " اسكتى يا بت، والله لأقطعك حتت، ولا الجن الازرق حيعرف طريقك لما اخلص عليكى! أنا لازم أخذك بيتى! الليلة! ما فيش عندنا بنات تقول أيوه أو لا!".

استمرت فتنة فى ارتعاشها وهى ممسكة بقوة بملابس بطة، ثم ظهر شخص آخر من بين الظلال، لم يكن سوى والد بطة، وزعق بصوت يعلو صراخ المرأتين، "أيوه، انت بتقول الحق يا خويا، الستات ما لهمش كلمة عندينا، تقدر تاخدها. بس اسكتى يا حماتى. ما تتكلميش، عايزين ننهى الموضوع ده!".

زادت صرخات فتنة، "حسن، انت وعيلتك ابعدوا عنا خالص، مش حيكون فيه جواز بولدك البايط، بطة دى بنتى أنا، إذا أى واحد حاول ياخدها بالغصب، أنا حاقف قصاده، انشالله اموت، الرجاله السكرانين اللى زيك مش رجاله، الحريم أحسن من ستين زيك".

سمع شحات أصوات أخرى، لذا أطل من الشباك، فوجد أن هناك مجموعة من الناس قد تجمعت، البعض ممسك بمشاعل فى يديه، وآخرون مسلحون بالشوم والبلط والفتوس. كانت هناك أيضا بعض النسوة يصرخن ويكيبن. الجميع كان يتصرف بشكل هستيرى.

شخص آخر حاول دخول المنزل، إنه سليمان، الذى يتبع حسن فى كل مكان، هذا أيضا ابتدأ فى شتم فتنة، "أبوكى ابن كلب، يا خرفانة يا مكرمشة، مش عارف ليه ربنا مش عايز ياخذك، الكويسين بييموتوا والزباله عايشة".

أفلتت بطة من قبضة حسن واختبأت خلف ظهر جدتها وهى تنهج وتنشج. من مكان ما، أمسكت فتنة بسكين طويل ورفعته إلى أعلى كما لو أنها تود أن تضرب به أحدا، هذا أدى إلى تراجع الرجال إلى الخلف قليلا.

ارتفع صوت فتنة فوق صوت الرجال، صوت ثاقب غريب، "أنا عجوزة وعميا كمان! لكن إذا ما سبتوش بيتى اللحظة دى، حاقتل أى واحد فيكم واقعد ابكى طول الليل!"

هنا هبط شحات السلالم مسرعا ممسكا بالزجاجة فى يده، اعترضه والد بطة وأمسك بذراعه، "لا. لا يا شحات، ما لكش دعوة بالموضوع ده!"، فزقق فيه شحات، وهو يزيحه جانبا، "أنا مش حاعمل حاجة، إبعد عنى انت بس".

بطة وشعرها منسدل على وجهها، وهى تنتحب وتصدر منها دفعات من الصرخات الهستيرية، اندفعت نحو الباب لتسده، فصفعها شحات على وجهها بكل قوته قائلا، "ادخلى جوه"، ثم أمسك بيدها وجرها جرا،

فسقطت منهارة فى ركن، تنهته وتغطى وجهها بيديها . أمسك والد بطة يد شحات للمرة الثانية، "يا شحات، من فضلك ما لكش دعوة بالموضوع ده"، فشتمه شحات، "انت أصلك ابن كلب، وما انتاش فاهم حاجة. أنا اللي عارف كويس حسن وسليمان، إذا جم ناحيتى، حاكسر القزازة دى فوق روسهم هما الاتنين".

توقف شحات قليلا أمام الباب المفتوح، ووجد حسن وسليمان ومعهما آخرون يسيرون بعد المنحدر متجهين إلى الكوم وهم يزعقون ويشتمون بأصوات خشنة سكرانة. لكن كانت هناك جموع أخرى ما زالت متجمعة فى المكان. من هيئة وشكل هؤلاء، أدرك شحات أنهم فى حالة غريبة من الاستثارة، يبدو عليهم أنهم يستعدون لقتل شخص ما، حيث أمسكوا بعصيتهم مشرعة فى الهواء على استعداد أن تخط وتكسر، وأخذوا يتصايحون بأصوات مرتعدة، أحدهم قال، "انت عارف نفسك يا شحات"، وآخر قال، "إذا عصلج، نرمى جنته فى المقبرة القديمة".

زعق فيهم شحات، "كلاب، كلكم كلاب". لكن الخوف كان يتلبسه، ولم يعارض عندما دفعه والد بطة دفعا ليسرع بالخروج والتوجه لمنزله.

ما أن ابتعد عن مجال نور المشاعل التى أمسك بها البعض، أصبح المكان أمامه غارقا فى ظلام دامس، وبالكاد استطاع أن يتلمس طريقه وهو يسير فوق المنحدر الصخرى. ثم شاهد شحات أحدهم وهو يقترب

نحوه، وأمكن له أن يتعرف عليه من طوله المتوسط وعمامته البيضاء ووجهه الداكن كأنما هو قطعة من الليل ذاته. للحظات، ظن شحات أن هذا الرجل هو حسن وقد رجع، لكن سمع صوتاً مألوفاً يقول، "سلامو عليكم". لم يكن هذا سوى الحاج على، ثم صدرت منه صيحة فجائية عندما أدرك أن هذا ليس سوى شحات، فصافحه بقوة غريبة بينما يلتقط أنفاسه بصعوبة، ثم تلجلج وهو يقول، "مين ده اللي يقدر يشتم شحات؟ إيه اللي انا سامعه ده؟ إيه اللي حصل عند بيت فتنة؟". لكن شحات لم ينطق بكلمة بل تابع مسيرته نحو منزله، ثم التفت وشاهد الحاج وهو يكاد يصل إلى مشارف بيت فتنة، فرجع متسللاً في الظلال وانتظر متسماً. في الحال سمع صوت الحاج على الغاضب يقول، "كلكم جبانات، انتوشوية كلاب، ازاي خليتوا شحات يفلت منكم؟ دا انتوا أكثر من عشرين نفر! ازاي تسيبوه يفلت من إيدكم من غير ما تعوروه حتى؟ لو كنتموا عملتموا أي حاجة، انتوا عارفين اني كنت اقدر اقف معاكم".

بينما يسير شحات متجهاً نحو منزله، أخذ يعيد التفكير في موقف الحاج على هذا، ربما يكون قد ذهب بعد مغادرته مكتب مفتش البوليس إلى حسن وسليمان وأخطرهما بتواجده عند فتنة. هو بالتأكيد وراء كل ما حصل، وإلا ما الذي يفسر أن يحضر حسن في نفس الوقت الذي يكون هو فيه يتعشى في الغرفة العلوية مع فتنة، ثم يحاول أن يسحب بطة إلى الخارج؟ إنه يعلم الآن أن الحاج على قادر على فعل أي شر.

فى صباح اليوم التالى، حضرت بطة لتزور أمها سعاد، من النافذة العليا لمنزله شاهدها شحات وهى قادمة تدخل الحارة. كانت ترتدى فستانها الأحمر وفوق رأسها طرحة شفافة. ما أن اقتربت، حتى لاحظ أن أردافها تتحرك بتأرجح لطيف ووجهها صبور جميل. كان يرتسم على وجهها ابتسامة سعادة وانتصار. ابتعد شحات فى الظلال حتى لا ترفع رأسها وتراه.

لم يعد مرة أخرى لبيت عمته، ولم يسع لطلب مساعدة أخرى من الحاج على بخصوص المعاش. ذلك اليوم، أخذ حسن يجول فى أنحاء القرية يسب ويلعن فى بطة بأقذع الشتائم، قال، "البت دى عمرها ما حتدخل بيتى!". ثم عمل اجراءات فسخ كتب الكتاب. مع الوقت اتضح أن بطة فى حالة حب وهيام منذ زمن بعيد مع شخص يدعى عبد الستار. هو قريب لسنية ومن قبيلة السقائين المكروهة. يقال إن هذا الجمسى الشاب، عندما سمع مقولات حسن، ذهب إلى فتنة وأعلن، "أنا مستعد أتجوز بطة، أنا باحبها وهى بتحبنى. أنا حاوفر القلوس واجهز الورق وكل حاجة". فتنة أعطت موافقتها فورا.

عندما سمع حسن بهذه الأخبار، صاح قائلا، "شىء عجيب، والله العظيم المفروض البت دى تنطرد من بلدنا دى كلها!". ابنه على كان بعيدا فى الجيش، لكن كانت هناك مخاوف من أن تحدث بعض المجازر بين الجمسية وعائلة حسن إذا عاد. المتعاطفون فى القرية

وكانوا يناصرون بطة، انقلبوا عليها عندما علموا أنها سوف تتزوج
جسميا. قالت أم حامد، "بطة دى بنت وحشة، وحتجرس العيلة كلها".

الخال أحمد، عندما علم أن شحات قد ناصب الحاج على العداء
مرة أخرى، امتلأ قلبه بالسرور. وكان قد سمع إشاعات أن شحات وهذا الرجل
قد تبادلا الضرب بالشوم. لكنه أصيب بخيبة أمل عندما سمع من شحات
حقيقة القصة، وأعلن، "يا سلام، كلام الناس دايمًا يقلب كل حاجة".

فى وقت متأخر من الليل، سمع طرق على الباب. أيقظت أم حامد
نفسها واندفعت لتفتح شراعة نافذتها العلوية عن آخرها، وأخذت تلهث
وهو تقول، "إيه الزيارة الغريبة دى؟". كان الوقت هو منتصف الليل تقريبا.
فى الأسفل وقف ابنا الحاج عبد المطلب أحمد ومحمود. فى الحال ظنت
أن اللصوص قد عادوا مرة أخرى، لذا صاحت، "إيه اللى حصل يا ولاد،
الحاجة بهية بخير؟". بدا على الصبيين أمارات التردد والخجل، ثم دفع
الولد الأكبر أخاه ليتقدم قائلا، "اتكلم!". محمود الصغير، وهو بالكاد
يبلغ عمره عشر سنوات، نادى بصوت عال حاد، "عايزين ناخذ الغنمة
بتاعتنا. بكرة حناخدها السوق نبيعهها". صاحت أم حامد وهى مغتاظة،
"واه". كانت هى والست بهية متشاركين فى ملكية شاتين تحتفظ هى
بهما فى زريبتها، "إيه معننه إنكم تيجوا الساعة دى؟ مين اللى قال لكم
تيجوا؟ هى امكم جعانة قوى وعايضة تاكل نصيبها الساعة دى؟ إذا كانت
بهية عايضة تبيع، يبقى نروح سوا السوق. دلوقتى على بيتكم انت وهى.

أنا ممكن اقتلكم كمان، ما فيش خشا ولا دين، تصحوا الناس فى عز الليل!، ثم أغلقت شراعتها بعنف وذهبت لتستأنف نومها.

حضرت إليها بهية فى الصباح الباكر، محرجة ومضطربة،
”يا خيتى، عيالى دول قللات الأدب. الحاج لما عرف بالموضوع، ضربهم
بالجزمة، وما استريحش إلا لما شافنى جاية لك. وحياة النبى اللى ربنا
يوعدك بزيارته، ما تزعلنى منى“.

”لا. لا طبعا يا اختى، دا انا لما جانى عيالك فى نص الليل، خفت
لبعدين يكون حصلك انتى حاجة وحشة لا سمح الله. بس ليه هما جم
فى الوقت ده يا اختى؟“ ضحكت بهية من قلبها، ”صدقينى يا خيتى،
إذا انا ما كسرتش دماغاتهم لما ارجع، لاعمى وما اقدرش اروح بيتى“.

أرسلت أم حامد سماح لتصنع الشاى، بينما جلستا سويا على
حصيرة، ثم تنهدت أم حامد من قلبها، ”أنا تعبانة خالص يا بهية“،
وأضافت بصوت مرهق، ”من يوم ما جوزى مات، كل يوم مشاكل
مشاكل، وانتى قاعدة فى بيتك متستتة ولا دريانه اللى انا فيه. كل يوم
ولاد عم جوزى دول، الحاج على وصبحى يتكلموا بصوت عالى فى
اللوكاندة، دول بيشتمونى يوماتى أنا وحبيبى شحات، وفاروق هامل
الأرض، واخويا أحمد أبو سيد دايمًا غضبان منى. لما ولادك جم الليلة
اللى فاتت، حضروا عشان تكمل المصايب اللى نازلة ترف فوق دماغى“.

تلاّأت الدموع فى عيني أم حامد وبدأت تشهق، "أعمل ايه بس يا اختى؟" ثم أخذت تنهته، "أنا من لحم ودم، مش حديد". بدأت تبكى الآن وهبطت الدموع بغزارة لتملأ صفحة وجهها، بهية أيضا بدأت فى البكاء - أخذت أم حامد فى صدرها وأخذت ييكيان سويا بحرقه. لم ييكييا بسبب الحزن، لكن بسبب سنوات طويلة من الخبرات المؤلة المشتركة، وبحثهن الدائب عن شىء سحرى، اسمه السعادة.

سألت بهية بصيغة اتهام وهى تجفف دموعها وتخلى أنفها بصوت مسموع، "شحات يا اختى هو سبب كل تعبك". احتجت أم حامد وهى تجفف وجهها الغارق فى الدموع بمنديل كبير، "لا، لا، دا لسه شاب صغير وما يقدرش يعوض ابوه" ثم ابتسمت ابتسامة واهنة، "أنا عارفة إن دمه حامى، لكن عمره ما اتخانق بجد مع امه". فى الحال برق فى ذهنها خناقة شحات معها بسبب العدس، لكنها طردت تلك الذكرى، "أنا عمرى ما اخاف من طبعه، لكن كل الناس هنا بيحبوه، وما ياخدوش بالهم من كده. هو الخالق الناطق ابوه، يزعل بسرعة، لكنه يرجع فى الحال". أمسكت بهية لسانها، فمن رأيها أن أم حامد مشابهة فى ذلك المرحوم، دائما ما يسرعان فى غفران أعمال شحات بسهولة منقطعة النظير. لكنها اعترفت فى نفسها أن الجميع فعلا يحبونه؛ بدونه تصبح القرية مكانا كئيبا.

استمرت أم حامد فى القول، وصوتها محشرج بسبب البكاء،
”أنا خائفة من شىء واحد بس، إذا شحات اتجوز أى بنت، جمسية زى سنية
أو لعبية زى بطة، وما كانتش كويسة معاه، كده أنا حاخسر كل حاجة”.

”ليه يا خيتى، ربنا يخليك نوبى وأحمد”

”أنا عارفة”

”شحات مش حيورث غير خمس الأرض”. كانت بهية تشير
إلى القوانين الإسلامية. فكل ولد من الذكور له نصيب متساو، أما البنت
فلها نصف نصيب الولد، وتحصل أم حامد على ثمن الإجمالى.

لم يكن هذا ما تقصده أم حامد، أخذت تتكلم بصوت خفيض،
إنها تتمتع بقدر كبير من الأمانة، كانت تود أن تخبر بهية أنه منذ وفاة
عبد الباسط، كل حياتها الآن متعلقة فى رقبة شحات. هى تحب كل
أولادها، لكن شحات له منزلة خاصة. بالتدريج، اعترفت لبهية أن أعظم
مخاوفها هو أن يجد شحات الضغوط عليه قوية فيهجرها. ألا يختلط
بدمائه دم البدوى خليفة الكبير؟ ثم أخبرت بهية، وهى تختار العبارات
المناسبة، أن حاجتها لشحات ليست اقتصادية فقط. فوجوده هو أمر
حيوى لها، بيتها، عائلتها وحياتها التى سوف تصبح مظلمة وكئيبة
وبلا معنى إذا اختفى هو. هى تود أن تراه متزوجا، فى الحقيقة كانت
تتلف لتحقيق ذلك، قالت إنها تخطط لأن تبني غرفة أو اثنتين فى منزلها

لشحات وعروسه ليظل بجانبها طوال عمرها . أليست العادة والتقاليد
تقرر أن يظل الابن الأكبر فى بيت العائلة، ويكون عليه أن يجهز العش
لمعيشة جيل جديد؟

قامت بهية مندفعة وقبلت قمة طرحة أم حامد، "أنا عارفة أن كل
اللى بينا خير"، ثم استأنفت بصوتها العالى المنبسط "باقولك إيه، إحنا
الاتنين عارفين قد إيه تربية العيال صعبة، لكن ده نصيينا يا خيتى".

"أيوه، هما مش دايمًا بيحترموا أمهاتهم زى الواجب". فجأة
ارتسمت ابتسامة على وجه أم حامد وأشرق وجهها . على المرء أن يتلمس
القوة الكامنة فى ابتسامتها السعيدة المشرقة، ليدرك كم هى إنسانة
جميلة ومقبلة على الحياة. ثم انطلقت ضاحكة؛ هذا جعلها تبدو بسيطة
ومتساهلة.

وقت أن غرقت سنباط كلها بالدماء

كان شحات دائما ما يخشى موعد حصاد محصول القصب، لأنه يجب أن يحمل على عربات السكك الحديدية، وهي دائما غير كافية. ولأن بقاء محصول أحدهم تحت نيران القிظ لعدة أيام، هذا يؤدي إلى فقدان نصف وزنه، لذا كانت تحدث معارك كبرى، تصل أحيانا لمرحلة القتل.

قصب السكر بدأت زراعته مع نهاية فيضان النيل وإعادة توزيع ملكية الأراضي الزراعية في سنباط. كل فلاح خصصت له أرض عليه أن يستبقى فداناً من الفدانين لكي يزرعها قصباً. هذا المحصول الجيد مادياً، يستغرق اكتمال نضجه عاماً كاملاً، ويتم حصده خلال الفترة ما بين شهر فبراير حتى مايو. هو منح الفلاحين ثلاثة أضعاف دخلهم المعتاد. قدرة أم حامد على استخدام حصاد محصولها من القصب كضمان، مكنتها من اقتراض مبلغ كبير من الحكومة وهو ثلاثمائة جنيه لتصرفها في واجب الاحتفال بذكرى وفاة المرحوم زوجها.

الحكومة كانت قد افتتحت مصنعا لتكرير السكر فى مدينة أرمنت المطلة على النيل، وهى تبعد عشرة أميال جنوبا، وتمتد خطوط السكك الحديدية التابعة للمصنع خلال حقول القصب على هيئة خطين يمران على سنباط. خلال الحصاد، كان يخصص لكل فلاح عربتان. وعلى المفتش الزراعى أن يحدد موعد قيام الفلاح بقطع محصوله من القصب، ومتى يجلبه محملا فوق ظهور الجمال إلى أقرب مكان مخصص للتحميل بقرب الخط، ومتى يحمله على العربات. ولأن العمل فى المصنع لم يكن بالكفاءة المطلوبة، وحضور وإياب القطارات كان يحدث فيه تأخيرات متكررة، ولأن المفتش ومساعديه أمثال طيار لم يكونوا مخلصين تماما، فهم يراعون البعض على حساب الآخرين، مع انتشار الرشوة، لذا كانت تحدث تلك المعارك.

شحات يشعر بسعادة بالغة عندما يعمل فى النصف فدان المتبقى من ورث أبيه، والذى يقع ما بين منزله والترعة، هنا تستقر زراعته التى تتكون من البرسيم والبصل، أما الجنية الملحقة بالأرض وهى مسورة، فبها مجموعة من النخيل وتكعيبة عنب، هذه الأرض كان يرويها بالشادوف، وهو أسلوب للرى يعود إلى أيام الفراعنة. لكن فى سنباط، ومع استخدام الوسائل الحديثة، كان الموقف كله يدعو للإحباط، فكله عبارة عن تأخيرات وتعقيدات.

هذه السنة، كان محصول القصب سيئا. بقدوم شهر أبريل، تراصت أكوام القصب بجوار خط السكك الحديدية فى انتظار التحميل.

أحيانا كانت تنتظر فى مكانها لأيام عدة، لذلك نرى فاروق وهو يشتكى لشحات، "من بدايتها مش بإينلها خير، قصب الناس أهه مرمى تحت الشمس عشان ينشف، وسعر قصبهم حينزل الأرض، يمكن ياخدوا نص المفروض ياخدوه. ولاد الكلب بتوع المصنع، عمرهم ما بيعتوا العربيات فى ميعادها"

تم إخطار شحات أن فداته من القصب سوف يكون ضمن آخر دفعة يتم حصدها وترحيلها. وأن مصنع أرمنت سوف يقفل أبوابه يوم ١٠ مايو.

شحات ومن يملكون حقولا للقصب فى صف عن يمينه ويساره، قيل لهم أن يبدأوا فى قطع قصبهم ابتداء من ٢ مايو. عندما حل هذا اليوم، أكد عليه طيار بقوله، "أنا لازم أخدمك فى موضوع عربيات الشحن يا شحات، دا واجب على، بعد ثلاث أو اربع أيام، حابعت لك عربية. دلوقتى بطل كسل واشتغل بجد وما تخافش. اتكل على الله وعلى"، ثم لس طيار صدره، علامة أنه من الممكن الاعتماد عليه.

الحصاد ذاته حدث بسرعة مدهشة. كامل زوج أخت شحات وافق على أن يساعده، بالرغم من أنه كان يخشى غضب صبحى إذا علم بذلك، وأيضا استأجر شحات عاملين آخرين من الكوم.

القصب يتم خلعه بواسطة خلخلته أولا بالفاس، ثم ينزع منه الورق الأخضر ويكوم. وكانت قد استقرت عادة جديدة برزت خلال السنوات

السابقة القليلة، هى أن أى رجل يأتى ليساهم فى قطع القصب، يمكن له أن يحمل لمنزله أى قدر من العلف يستطيع حماره أن يحمله كنوع من الأجر. نتيجة لذلك، شحات وكامل، وقد أرهقا من العمل، وكثيرا ما كانا يفردان ظهريهما لتستريح عظامهما المتوجعه، كانا بين الحين والآخر يقفان ويناديان على كل من يمر بهما قائلين، "أى واحد عايز علف لبهايمه ييجى يقطع القصب معنا، يا رجالة، يا نسوان تعالوا..."

وجه كامل، بالرغم من أنه لم يتعد الأربعين من العمر، كان مخططا ومدمنا كأنما هو وجه رجل عجوز ودائما ما تجده سائرا فى الطريق بجلبابه القديم الممزق، وكذلك يداه الضخمتان، نادرا ما تكون نظيفتين. هو إنسان هادئ ومسالم فى القرية، لكن تبدو عليه حيوية فائقة وهو يعمل فى الحقل، ودائما ما يزعم، "يا رب، ساعد الغلابة اللى زى" أو "باين عليه يوم اسود، يا رب، فوت علينا نسمة هوا أو جيش من العمال من سماك!". شحات معتاد على رفع عقيرته بالغناء وهو يعمل. عندما عاتبه كامل قائلا إنه واجب عليه أن ينشد التواشيح الدينية وليس أغانى الحب والمسخرة، قال هذا، "ساعدنا يا الله، إحنا مسلمين، والنبي ما تزعل منا!"

مثل تلك الغابة من الضوضاء والغناء، المصاحب لها مجموعة من اللعنات، النكات الفجة، القهقهة، جذبت إليها عديدا من العمال. كامل كان يحيى كل وافد جديد بقوله، "آه، أهو صدنا سمكة جديدة ووقعناها

فى الشبكة! تعالى وخذ نصيبك من العلف يا جارى، وقعت من السما
والا الهوى جابك؟

"أدى رجاله تانيين جابين"

"عنك ولا عين الصقر يا شحات"

"واه، صلى على النبى. فى بيتنا الجاموسة رقدت أيام عيانة بسبب العين،
دلوقتى عايزنى أرقد عيان، بكده لا حنلاقى حد لا فى البيت ولا الغيط!"

صوت كامل يسمع أحيانا وهو مطمور داخل القصب يزعق،
"باقولكم إيه يا رجاله، ما تسافروا بحرى جيهة مصر أحسن. المكان ده
ما فيهموش فايده. يا سلام يا ابويا، نفسى ما كنتش اتجوزت أمى
وخلفتى. شايفين حالى دلوقتى ازاي؟ تعالوا وابكوا على حالى".

مثل هذه التخارييف كانت كفيلة بانقضاء الوقت سريعا، وجذبت لهم
عديدا من العمال، لذا ما أن حل منتصف فترة الظهر، حتى كان نصف
المحصول قد قطع. سليمان الذى كان غيطه مجاورا لحقل شحات، لاحظ
أن العمال الذين يعملون فى أرضه كانوا متأخرين بشكل بالغ. لذا
حضر مسرعا نحو شحات قائلا، "يا ولاد الكلب، خلصتوا ازاي قطع
بدرى؟ ليه يا شحات انت وكامل كل ما يعدى عليكم واحد تقولوله تعالى
حش علف على كيفك؟ المفروض كل ما يعدى عليكم أى واحد من دلوقتى،
تقولوله ييجى يساعدنى انا".

مثل هذا القول، كان يقابل بالضحك والقهقهة، لكن عندما حضر ولد صغير لينضم على مجموعة العمل فى حقل شحات، احتجزه سليمان وأمسك بكففيه، "تعالى ياد، انشالله تاكل ابوك. انت تيجى تشتغل عندى مش هنا!". فأنقلت الولد من قبضته واتجه سريعا نحو شحات. ضحك هذا ونادى على جاره، "شفت يا سليمان، الواد حاسس بالأمان عندى، مش عندك!" انضم إليه كامل، "باقولك إيه يا سليمان، كلنا فقرا وتعبانين، واسناننا بتقع لوحديها من الفقر الذكر!". صاح سليمان غاضبا، "خللى بالك ياد. شحات ده بتاع عيال!"، أغرق الجميع فى الضحك، بينما علق شحات، "أحسن من اللى بيعاشر الحمير!". صب سليمان عليهم عدة شتائم منتقاة، ثم عاد لحقله.

فى اليوم التالى، هبت ريح شمالية لطفت من الجو قليلا، ويعدد أكبر من المتطوعين، انتهوا من قطع كل قصب شحات مع وقت الغروب، بينما البائس سليمان، لم ينته سوى من قطع نصف محصوله، لذا أخذ يطرهم بشتائمه، "يا ولاد الكلب! ليه رحتموا لشحات وما جيتوش عندى؟"

صاح شحات بعدما انتهى من تكويم آخر دفعة من القصب، "الحمد لله، لو الجو ما كانش اتعدل انهاردة، كنت ضريت أى حد، وبدل من إننا ننسب اننا خلصنا شغل، كنا حننتهى بجنازة!"

ضحك الحصادون، قال أحدهم، "أنت صعب خالص يا شحات، عامل زى النار اللي تاكل كل حاجة فى سكتها!"

صاح شحات، "تعالوا يا رجاله، خلينا نخلص بسرعة، وكل واحد يروح بيته، عارفين يا اخوانا، أنا لما أرجع البيت، كائن رايح السجن". فى الحقيقة، لا يحس شحات بكيانه وشخصيته إلا عندما يعمل فى الحصاد. فى اليوم التالى، انقضت النسمة الباردة، وأصبح الجو نارا لا تحتمل. لذا عندما انتهى هو وكامل وسائقو الجملين من التحميل للاتجاه نحو المكان المخصص للتشوين بقرب خط السكة الحديد، شعر شحات بإرهاق شديد.

حضر طيار فى المغرب ليخبر شحات أنه بإمكانه أن يحجز له عربة فى صباح الغد عند ساحة التحميل التى تقع على بعد كيلومتر جنوبا، وسوف يحضر أحدهم ليجر له العربة حتى تصل إلى مكان تشوين قصبه.

ما أن رأت شحات وهو مهود ومنهك، أحست أم حامد بالهم يركبها؛ خشيت حدوث شىء ما قد يعطل تحميل القصب لفترة.

مثل كل المسلمين، كانت أم حامد تحتفل بأعياد الربيع طبقا للتقاليد القبطية القديمة. ففى الأسبوع الذى يسبق عيد القيامة، يؤكل فى اليوم الأول البصل، فى اليوم الثانى الخيار، بعد ذلك بيوم يطبخ العدس وتنتثر حباته على جدران المنزل، حيث يقال إن هذا يطرد الذباب،

ثم فى اليوم التالى لعيد القيامة، يقدم البيض الملون باللون الأحمر والأزرق والأصفر، ويركبون الفلوكة للتنزه فى النيل. بعد هذا اليوم بيوم يبدأ فصل الصيف. .

ذهب فاروق مع شحات إلى شونة السكة الحديد فى الفجر، ووجدا هناك عربتهما، ما أن بدأ فى التفكير فى دفعها لتصل إلى مكان قصبهما، سمعا صوتا يقول، "خدوا كمان العربية دى!". لم يكن هذا غير صوت لمعى، مالك الأراضى الغنى، وهو دائما ما يكون متبوعا بعدد كبير من أتباعه.

ما أن أزاهما الأتباع جانبا، مدعين أن هذه العربية تخص لمعى، حتى صرخ فيهم فاروق، "أزاي تسحبوا العربية دى يا ولاد الكلب، دى عربية شحات!".

شحات يعلم أن لمعى لا يحب أن يتدخل البوليس أو حتى صفار الموظفين فى أموره، وذلك بعد تأميم بعض من أرضه، لذا انفجر بكل طاقة الغضب، "كلكم ولاد كلب، أنا شربت المرحشان تتخصص العربية دى لى! دلوقتى كل كلب عايز يلطشها، دا انا لازم لى عربيتين مش واحدة يا كفرة".

تقدم شحات ودفع أحد العمال بعنف جانبا، ثم ضرب آخر على جانب رأسه مبعدا إياه من العربية، كل هذا فعله لى يبين للمعى أنه

مستعد أن يناضل ويقاقل حتى آخر نفس، "والله لاقتل أى واحد فيكم يلمس العربية دى، ما فيش حكومة هنا، ما فيش قانون! أنا لازم أدافع عن حقوقى بدراعى، وإنشالله أخذ فيكم خمسة وعشرين سنة سجن إذا قتلت واحد فيكم، لكن بعد كده راسى حتكون مرفوعة لفوق!".

لمعى، الذى لم يكن فى الحقيقة رجلا سيئا، ولا يهدف سوى إلى إتمام أعماله، التفت غاضبا نحو عماله، "أنا قلت لكم يا بهائم تاخدوا عربية شحات؟ طبعا لا"، بينما تحرك عماله للخلف بارتباك، قدم لمعى لفاروق وشحات علبة سجائره، ليثبت لهما أن اختبار الشد والجذب هذا لم يترك فى نفسه أى أثر. بالرغم من أنه قيل بأن أرباحه فى موسم جنى محصول القصب قد تجاوزت عشرة آلاف جنيه، إلا أن لمعى هذا كان إنسانا بسيطا ومجتهدا، يعمل فى حقوله كئى فلاح آخر.

لم يحاول كل من فاروق وشحات تضییع أى وقت آخر، لذا أسرعوا بدفع العربية حتى لا يظهر آخر ويطالب بها. لكن فاروق، وقد أنهكه الانهماك فى الشرب واغتراف الملذات مع عدم تعوده على بذل المجهود العضلى، بدأ فوراً يفرز عرقاً غزيراً وينهج، ثم سرعان ما طلب أن يستريح. لذا شتمه شحات، "الله يلعنك!"، وأخذ يدفع العربية بكل جهد مستطاع. رد عليه فاروق فوراً، "الله يلعن أبوك!" ثم أخذ يلهث ويجاهد فى التقاط أنفاسه، "أنا يظهر اتمزقت، وانت السبب!".

أخذا يجاهدان فى دفع العربية بكل ما أوتيا من طاقة وهما يتبادلان الشتائم، وكانت العربية تتقدم ببطء شديد على القضبان. فى هذا الصباح المشرق، كان لهما، أنينهما وأنفاسهما المتقطعة، لا يقطعها سوى الشتائم المتبادلة.

"انت ابن كلب يا شحات"

"اسكت يا حمار"

"بقه أنا حمار، انشالله العربية دى تدهسك وتفصصك حتت"

"امشى، تحرق نار جهنم يا فاروق"

"أبوك يتحرق الأول"

"خنزير"

"يهودى"

ضحك شحات وتوقف ليلتقط أنفاسه، "أنا يهودى؟ على كل حال، ربنا بيحب اليهود، عشان كده ادالهم كل حاجة".

بهذا الأسلوب المبتكر، تدفق الأدرينالين فى عروقهم بسبب الغضب، ومضى الوقت سريعا، إلى أن وجدا كومة قصب شحات أمام عيونهما. عندما أدركا أن هناك مسافة قصيرة حتى يصلا، طلب شحات أن يستريحا. فاروق، وهو بالكاد يستطيع أن ينتصب واقفا، لم يشأ تفويت

تلك الفرصة، "أحنا عايزين نوصل يا كسلان يا كلب. انت وسخ وابوك وسخ كمان!"

أخيرا وصلا إلى مكان تشوين القصب، وتركوا العربية لتنزلق بمفردها إلى أن تقف. تعثر فاروق في خطوه، وبدا كما لو كان أحد الناجين من حادثة قطار، وانهار دفعة واحدة فوق كومة من القصب، ثم مسح وجهه بخرقة وأخذ يتنفس بقوة شهيقا وزفيرا مثلها على النقاط الهواء. ثم بدأ مرة أخرى فى لعن شحات ، "يخرب بيتك! يخرب بيت اللي مجاورينك! انشالله كل البيوت اللي فى ناحيتكم تقع وتروح فى ستين داهية. كان يوم اسود اللي شفتكم فيه يا شحات! يا ابن الكلب يا وسخ! بنى آدم كسلان ما ينفعش ببصلة. أنا مش جاي عشان أزق عربيات، ما انت عارف إن رجلى تعبانة. يا ضلالى، عايز كل حاجة تنقضى ليك بالساهل، انشالله بيتكم يتهد فى بحر طين وانت تكون جواه!"

شحات، وقد انفجرت طباعه الحادة، تربع فى الطريق وأخذ ينثر الرمال بيديه أمام فاروق، كالعادة العربية التى تعنى شديد احتقاره، ثم زعق، "خد التراب ده حطه فوق رأسك وراس ابوك".

قفز فاروق واقفا وأمسك بعود قصب ورفع ليضرب به شحات، "إنت تقدر تشتم ابويا؟". عندما تطلع شحات لفاروق، ولاحظ الالماء المتصاعدة بحيث أصبح لون وجهه ورديا، وقد انتصبت عروق رقبته، انفجر شحات ضاحكا، ثم استغرق فى سعال مستمر حتى كاد أن

يختنق. فاروق أيضا انطلق فى الضحك المستمر، إلى أن استطاع شحات أخيرا أن ينطق، "أعمل ايه يعنى يا فاروق، وانا شايفك بتحترم ابوك قوى!". عندما سيطر شحات على نفسه، قام منتفضا وقبل عمامة فاروق، ثم استمر كلاهما فى تحميل القصب.

لم يمض زمن طويل، حتى حضر بعض من رجال فاروق، وقد شاهدوهما وهما فى ساحة الدرس، لذا أسرعوا لكى يساعدهما. بسرعة فائقة امتلأت العربية، لكن نصف كمية القصب ما زالت على الأرض. هنا تحقق لشحات أنهما فى حاجة لعربة أخرى.

مع ذلك، ونصف محصول القصب جاهز الآن للذهاب للمصنع فى أرمنت، شعر شحات بالانبساط والرضا أكثر من أى وقت مضى منذ بدأ قطع القصب، لذا وهو فى طريقه للمنزل، أخذ يجهد نفسه فى تأليف كلمات جديدة تحل بدلا من كلمات أغنية معروفة:

ليه ليه ليه ليه ليه ؟

عندك فلوس مراتك تحترمك،

وتقول انت قلبى ودقاته،

ونور عيني.

أيامى من غيرك، يضيع عقلى،

لكن وجيوبك فاضية،
ريحة عرقك تنذى عيني،
ليه ليه ليه ليه ليه ؟
أنا حادخن حشيش وأفيون،
واكون جامد زى التور،
واذا اتبسطلت البت،
كلامها يبقى غسل
وإن ما اتبسطلتش،
تشوى جسمك فى الفرن
أيوه، حادخن حشيش وأفيون،
وأكون جامد زى التور
ليه ليه ليه ليه ليه ؟

وهو يسير فى الطريق المجاور للترعة ويتمخطر فى مشيته، شعر
بدفق هائل من الفرح والسعادة، مثل ما يحدث مع جميعنا فى وقت
لا نتوقعه. كان يسير حافيا، غير حليق، مرتديا جلبابه الأسود الكالچ،
ويلتف حول رأسه شاله الأغبر، ووجهه ملئ بغبار القصب. فجأة شعر

بشوكة اخترقت جلد قدمه، فجلس على صخرة وأزالها باستخدام شوكة أخرى، ثم شاهد سحلية تحاول الاختباء، فالتقى عليها حجرا وسار في طريقه وهو يدندن:

ليه ليه ليه ليه ليه ؟

ثم رأى على البعد صديقه العزب وهو يسير أماما، فأسرع قفزا ليسير بجانبه، ثم تحسس جيوب الصديق فوجد أن بداخلها علبة سجائر، لذا أخذ يصارعه حتى يحصل عليها، صاح العزب، "وقف يا شحات، حاقتك والله!"

"يا عرص، ادينى سيجارة"

"ما عنديش، مش بادخن"

"واه، الله أكبر عليك"

"انت حمار، خد، بس ليك واحدة ما فيش غيرها"

أخذ شحات سيجارتين، وضع إحداهما خلف أذنه وأشعل الأخرى.

"انت حرامى، وربنا مش حيسيك"

فى الحال، بدأ الصديقان فى حديث متصل مع بعضهما. أخبره العزب أنه قابل الحاج عبد المطلب فى الطريق، وبدلا من أن يلقى هذا بالتحية المعتادة، بادره بالقول، "فين لفلوس اللى عليك، حسابك تقل

فى الدكان"، وأخذ الشابان يتضحكان. لا يكتمل اليوم بدون قصة تروى عن الحاج عبد المطلب. حكى العزب أفضا قصة تختص بالرجال العاملين فى حقول لمعى، فبينما كانوا يحرقون أعقاب القصب، طالت النار حقل جار له وقصبه لم يقطع بعد، واحترق حقله بالفعل وخسر الرجل ماله، لكن العزب علم أن لمعى غضب بشدة من عماله وأصر أن يدفع قيمة الخسارة. ثم حدثه شحات عما حدث صباح اليوم مع لمعى عند مكان التحميل.

لم ينعم شحات بالنوم الهادئ هذه الليلة، فقد كان يشغله موضوع تدبير عربة أخرى لتحمل بقية قصبه. ثم حضر إليه فاروق فجرا ورائحته نفاذة من الخمر المعتق الذى قربهه وكذلك الحشيش الذى دخنه طوال الليل. وجد فاروق أن شحات مستعد للذهاب. وهما يركبان ظهرى حمارين، خشى فاروق من أن يضطرا إلى دخول معركة متجددة للحصول على عربة، لذا قال لزميله، "الناس دى بتخاف من أى واحد جرى ودمه حامى. إذا حصلت عيطة زى انهاردة، انت اللى عليك الكلام". أجاب شحات، "لا. لا يا فاروق. الناس كلها بتخاف منك، بيقولوا انك مجنون وممكن تعمل أى حاجة، انت اللى تتكلم". انفجر فيه فاروق، "والله العظيم، لأكسر الشومة دى على راسك. أهه ما فيش حد معانا، الناس كلها غرقانة فى النوم، ما فيش غيرى وغيرك وربنا فوق. ممكن اخبط دماغك وما حدش يدري. انت اللى تتكلم".

بالرغم من أن الوقت كان مبكرا للغاية، إلا أنهما لاحظا تجمع أكثر من عشرين رجلا فى ساحة الشحن وطيار فى وسطهم. لاحظ شحات أن قطار المصنع الواقف لم يكن متصلا به سوى ثلاث عربات.

عندما حياهم طيار، قال فاروق، "صباح اسود انشالله، عايزين نكمل شحن الباقي". ضحك طيار بمنتهى الود قائلا، "أنا فاهم كويس يا فاروق اللعبة اللى بتلعبها، أنا بقه ممكن أبص على الطيور اللى طيارة فى السما واقولك مين فيهم الذكر ومين النتاية. مافيش انهاردة غير ثلاث عربيات، وفيه ستاشر واحد عايزينهم، أعمل أنا إيه دلوقتى ؟ ما تحاولش تخوفنى يا فاروق بحركاتك!".

رأى شحات إحدى النسوة وسط المجتمعين؛ تعرف عليها فورا، فهى الست "بسيطة"، أرملة من الكوم، هجرها أبناؤها وهجوا إلى القاهرة وتعيش الآن بمفردها. أراد طيار أن يعطيها عربية، أما العربتان الأخيرتان فقد خصصهما لرجلين لم يشحنا أى قصب لهما من قبل؛ لكن باقى الرجال تجمعوا حول طيار صائحين غاضبين يقول أحدهم، "عايز أخلص تحميل" وآخر قال، "القصب نشف من الشمس" وثالث، "يا ربى.. بيتى اتخرب والحمد لله".

أصاب "بسيطة" نوع من الهستيريا، لذا ألقت بنفسها على الأرض، وحضنت أحد عجالات العربية وأخذت ترتعش وتنتحب وهى تقول، "أى واحد عايز ياخذ منى العربية دى، حاعمل أى حاجة، حاقتله! العربية

دى بتاعتى". حاول فاروق أن يطبق نفس التكتيك، فأخذ يزق فى وجه طيار كالمجنون "ابوك ابن كلب يا طيار. أنا عارفك كويس، عايز رشوة"، لكن هذه الجهود باءت بالفشل. أخيرا ارتضى الرجال أن يسحبوا قرعة، وحدث هذا بالفعل، ولم ينجح شحات. اثنان ممن فشلوا، أصبحا فى حالة هياج بالغ لدرجة أنهما تشابكا مع بعضهما، وأحدهما ضرب الآخر بالشومة على رأسه. بينما طيار والآخرين يرفعون المصاب لينقلوه إلى الكوم، أفاق الرجل وأخذ فى شتمهم جميعا بينما رأسه تنفث الدم بغزارة، ثم أغمى عليه مرة أخرى.

بينما هما عائدان إلى بيوتهما، قال شحات لفاروق، "كثير من الناس حتتكسر رقابيهم عشان القصب الزفت ده، هما ليه ما يجهزوش عربيات أكثر؟".

طمأنه فاروق، "ما تاخدش فى بالك يا شحات، بعد يوم أو يومين حيكونوا عايزين يقفلوا المصنع، وحتيجى كل العربيات اللى احنا عايزينها".

رجع شحات إلى منزله فى مزاج سيئ. عندما اشتكت له أم حامد بسبب شأن منزلى تافه، التفت نحوها زاعقا، "اقفلى خشمك يا مرة! ميت مرة أقولك خللى لسانك جوه بقتك، تفضللى كده ساكته زى البطانية اللى بنتغطى بيها. عليكى تبصى بس وما تتكلميش!".

شعرت أم حامد بغضب عات وأعلنت أنها سوف تذهب لبيت أخيها أحمد؛ هناك سوف تعامل بالاحترام الواجب. عندما امتطت حمار شحات، أخذت سماح فى التضرع له، "قوم يا شحات اجرى وراها وبوس على راسها، دى ماشية غضبانة". أجاب، "انشالله تروح جهنم!"

مع ذلك، أخذ شحات يراقبها وهى ترحل من الشباك وظل واقفا مكانه فترة طويلة. ثم طمأن أخته، "ما تخافيش يا سماح، أنا عارف انه لما امك تاخذ الحمار، يبقى أكيد حترجع قبل المغرب عشان اجيب عليها علف البهايم".

وهو مهموم وقلق بسبب استمرار بقاء القصب يوما آخر تحت لهيب الشمس الحارقة، ذهب نحو الشادوف ليسقى حقل البرسيم. خلع كل ملابسه ما عدا كلسونه الأبيض الذى يصل إلى ما بعد ركبتيه. لم يسحب سوى قدر بسيط من الماء، إلا واقترب منه بعض السياح الأجانب، يرتدون زى عمل أسود موحد قادمين من طريق التربة. تعرف عليهم شحات وعرف أن جنسيتهم روسية يتجولون الآن بعدما قاموا بزيارة المعبد. أحس بقليل من الإحراج بينما صدره وظهره يندان بالعرق، لذا أنزل جردله النحاسى فى البئر ورفعته ثم أفرغه بسرعة بالغة وهو يغنى، "يا لوبلى.. يا لوبلى".

توقف الرجال فى الطريق فوقه يشاهدونه ويلتقطون له الصور. واحد منهم، أسمن من الباقين، وقف يروح عن نفسه طاردا الذباب

بمنشة يدوية، تنهد بعمق وهو يقول، "بلوكسو.. بلوكسو"، ثم أخبر زملاءه بلغته، "هذا الرجل فقير، انظروا، إنه حافى القدمين لا يرتدى ملابس على ظهره". ثم وضع الروسى يده فى جيبه، وأخرج قلم حبر صغير وأعطاه لشحات، صائحا بصوت عال "باقشيش". ما أن تحرك السواح مبتعدين، أخذ شحات يتفحص القلم، فوجد أنه مرسوم عليه مطرقة ومنجل وأيضا هناك وجه إنسان متجهم له لحية. هز كتفيه، وأعطى القلم لأول غلام مر به، ثم استأنف عمله.

هذا المساء، حضر كامل إلى المنزل ليقول إن صبحى قد طرده من عمله كمشارك زراعى، لأنه علم بأنه ساعد شحات فى قطع القصب. صبحى أخطر البوليس أيضا أن كامل يزرع بعض الخضروات بطريقة غير قانونية على حواف التربة؛ لذا غرم ثمانية جنيهات وسيضطر أن يبيع شاة.

كامل كان يحس بقنوط بالغ، أخبر شحات، "صبحى سألنى: إيه اللى عملته ده مع شحات وأم حامد؟ قلت له، ولادى بياكلوا كل يوم والتانى فى بيت جدتهم، ازاي يعنى ما اساعدهش شحات فى قطع القصب؟، أجب صبحى: طيب بره! انت مالكش شغل عندى، قلت أنا : انت مش ربنا اللى بيرزق عبيده. لكن قول لى يا شحات، ليه هو بيكلمنى بالطريقة دى. أنا باشتغل فى أرضه طول السنة، وكل الوقت اللى فات ده ما ادنيش غير عشرة جنيه، وشوية علف للبهائم، هو بيعاملنى بالشكل ده ليه؟"

عندما عادت أم حامد واستمعت لقصة كامل، ابتهجت من حدوث ذلك وأخبرت كامل، "انت فلاح شاطر، بس كسلان شوية، ازاي مش قادر تكسب أكثر عشان بنتي وعيالك؟ دول بيدفعوا للحصادين خمسين قرش في اليوم السنة دي".

عندما عاد كامل إلى منزله، أبدى شحات غضبه من أم حامد، "ما تتكلميش مع كامل بالطريقة دي". رفعت أمه يديها إلى السماء قائلة، "يا رب، دا راجل ضعيف وعلى قد الحال. شىء صعب انى أخذ بالي دايما من عياله، ألبسهم واوكلهم. أنا تعبت خلاص. طاب ليه دايما كامل صاحب عياله وراه، طبعاً عشان يعطفوا عليهم ويشحتوهم كام قرش".

زاد غضب شحات، "إيه اللي بتقوليه ده؟ عشان يعنى كامل راجل فقير تتكلمى عنه كده؟ لكنك دايما تنفخى فى اخوكى أحمد لإنه مليان فلوس".

"كامل ده راجل بطل وما عندهوش مخ. ازاي يعنى يشتغل عند صبحى من غير فلوس؟"

"إذا عاز كامل أى حاجة، أنا حاديله. أنا باحب الفقريين اللي زى كامل. باقولك إيه يا مرة، انتى مش الرئيس فى البيت ده!".

سكتت أم حامد عن الكلام، فنصف القصب ما زال على الأرض ولم يحمل بعد إلى المصنع. لكن فى صباح اليوم، لم تتواجد أى عربة

فى ساحة التحميل. أخبر طيار المزارعين أن تعليمات المفتش تنص على أن ينتظر كل واحد أمام قصبه غدا، وسوف يتوافر عدد كبير من العربات بحيث يستطيع الجميع التحميل.

اليوم التالى كان الحر شديدا للغاية ولا تهب أى نسمة هواء فى الجو. تجمع الرجال تحت ظل شجرة ضخمة بجوار طريق القطار. لقد تعرض قصبهم لنار الشمس المحرقة لمدة ثلاثة أيام كاملة، ولن يمر وقت طويل حتى لا يساوى هذا القصب شيئا، وشقاء عمل عام كامل سوف يهدر.

فى مصر، هناك حالة ذهنية تسمى "التكيف"، معناها هو أن الرجل لا يفعل شيئا، لا ينطق بكلمة، لا يفكر فى شىء. إنه نوع من الاستكانة اليقظة، وسيلة لتحويل الاتجاه ذهنى للفرد لكى يخفض من مستوى الإحباط. فى مواجهة عجزهم عن مواجهة الجهات المسئولة التى تعوزها الكفاءة، انخرط شحات وزملاؤه فى تلك الحالة. منذ الفجر حتى الظهر، تمدد الرجال تحت فروع الشجرة، يتكلمون قليلا، يروحون على وجوههم، تأخذهم سنة من نوم، يسبحون فى خيالات خالصة، هى ليست سوى حالة استرخاء ذهنى صعب الاحتمال، مشابها فى ذلك أكوام القصب المكومة على امتداد طريق السكة الحديد تكويه شمس لا ترحم.

صحا شحات من هذه الغفوة عندما هزه لمعى، الذى كان فى حاجة إلى عمال أكثر لتحميل محصوله، وكان جالسا أيضا وسط المزارعين

فى انتظار القطار. جلس لمعى بجوار شحات، ثم قدم سىجارة له، وزفر متنهدا، "ازاى الحال دلوقتى؟". أجاب شحات بطريقة آلية، "الحمد لله على كل حال". حولهم تناثر الرجال الممددون على الأرض، يتناومون، يدخنون فى صمت، يحملقون فى اتجاه الحقول التى تناثرت فيها أعقاب القصب، ثم تصل أبصارهم إلى صفوف الأشجار البعيدة حيث توجد منازلهم خلفها، مرتفعا فوقها بقايا المعبد الفرعونى، وأعلى منه، يرون هضاب الصحراء الغربية التى تكتسى بلون أزرق باهت. هذه الهضاب ارتفعت كأنها جدار. النيل فى الحقيقة، هو قاع عميق مستقيم محفور فى قلب الصحراء، مياهه لها لون يصعب على المرء وصفه. إذا أراد فنان أن يرسمها، عليه أن يخلط اللون الأبيض، الأصفر، الأحمر، الوردى مع قليل من اللون البنى، وربما يمكن أن يضيف اللون الأزرق كظلال تبدو تحت الشمس الغاربة. فى هذا المكان، يسير النيل فى منحنى مهيب خلال الحقول المتناثرة على جانبه الغربى. المنظر يكون شكلا طبيعيا متميزا، ويصبح الإنسان متفهما لماذا اختار الفراعنة ذلك السهل الطيبى لإنشاء مدينتهم العظيمة.

تنحج لمعى ثم بصق على الأرض، قال، "من غير النتروكيما، الأرض كلها تبقى ولا حاجة". هو الآن زرى الشكل، يكسوه الغبار، غير خلىق، عيناه متفضضة الأطراف. على البعد وهو جالس هكذا، يبدو لمعى مهموما بالمحصول مماثلا فى ذلك شحات. استمر فى الحديث، "أرضنا

دى اتزرعت من زمان خالص، ودلوقتى حتى بناخد من تراب البلاد اللى عمروها زمان وخربت ونستخدمها سماء. كل الأراضى اللى هنا يا شحات مليانة من عضامهم وبرامهم، الأرض خلاص تعبت وقدمت.

تجاوب شحات وقال بصوت متعب، "كانت غلطة كبيرة إنهم عملوا السد العالى، الحكومة كانت بتظن إنه حيطلع أكل كثير، لكن الأرض بقت ضعيفة. القصب كان وحش السنة دى، غلط خالص إنهم منعوا الفيضان اللى كان بييجى كل سنة فى ميعاده. بدا صوته كأنه صادر من قم رجل طاعن فى السن، أضاف، "يا ريت يهدوه ويخللوا الفيضان يرجع من تانى".

ضحك لمعى، وقال بأسلوبه الهادئ، "لا، لا، الحال كويس دلوقتى، احنا حاليا بتزرع ثلاث زراعات فى السنة. عندك مثلاً القصب، الفول، الحمص والبرسيم. مثلاً أنا عندى ميت فدان، زمان كنت ازرع محصول واحد، إما قمح أو عدس. كان يمكن أتحصل على ألف جنيه دخل، وإذا دفعت مائتين جنيه للبذرة والرى وخلافه، مكسبى يرسى على تمنمائة جنيه، ومن المائة فدان دول، تلاقى عشرين أو ثلاثين فى المية ضاعوا بسبب الفيضان والحشرات. دلوقتى إذا أنا زرعت قصب بس، ممكن أكسب خمستاشر ألف جنيه من الميت فدان، طبعا حاصرف نص المبلغ، ويتبقى معايا قول سبع أو ثمان آلاف جنيه. قبل السد العالى، الحكومة ما كانتش تساعدنا كثير، دلوقتى احنا بنحقق إنتاج أكثر بمرتين

أو ثلاثة أكثر من قبل". رد شحات، "أنا راجل فقير وجاهل كمان". هو على اقتناع كامل أن رجلا غنيا مثل لمعى، هو المؤهل لأن ينطق بمثل هذا الكلام الكبير. لقد سمع مرة لمعى يقول إنه بعد عشرة أو عشرين سنة، لن ينتج وادى النيل فى مصر الحبوب والعلف، قال إن الدولة سوف تستورد العلف من السودان، القمح من سوريا والعراق، بذلك تستطيع مصر أن تنتج الفواكه، الخضروات، الزهور لتبيعها لأوربا، وأضاف لمعى، "أحنا حنعمل أحسن حاجة لمصر ونحقق فلوس كثير. دا احنا ممكن نعمل أى حاجة، بس الأول نعرف ازاي بتتعمل".

أفاق شحات من غفوته، "لا. إحنا لازم يا عم لمعى ناكل من عرقنا وشقاننا، وما نعتمدش على بلاد تانية توكلنا! ممكن بهايمننا تاكل ورد؟ تقدر عيالنا تبلى الزهور اللى بتقول عليها؟ جاموستى لازم تاكل من أرضى. ليه اشتري علف من غيرى ؟ لا، دا ما ينفعش". قال لمعى، "باقولك إيه يا شحات، فى رأى إنه لو الحكومة ادتتنا الدقيق عشان نعمل العيش، يبقى ممكن نعمل احنا بعد كده أى حاجة هما عايزينها". كان رد شحات مرتفع النبرة، لدرجة أنه أيقظ العديد من النائمين، "أبدا. الفلاحين ما يوافقوش على الكلام ده! المسئولين اللى فى مصر مبطلين فوق كراسيهم ومش فاهمين حاجة. يقدر الوزير يمسك الفاس ويزرع الذرة؟ طبعا لا. ما يقدرش غير انه يقرأ ويكتب وكان الله بالسر عليم". كل كيان شحات كان يخبره أن طبيعة الإنسان تدفعه دفعا لأن يكرر

العمل الذى برع فيه ويحافظ عليه؛ وما يعرفه الفرد أفضل كثيرا مما لا يفقه فيه شيئا. قال لمعى، "فى مصر بيقلوا". قاطعه شحات، "سيبك من مصر دى، أنا عايز الحاجة الكويسة تحصل هنا فى بلدنا".

ابتسم لمعى، "أحنا يظهر مش قادرين نسيب عوايدنا القديمة، مش كده يا شحات؟".

بعد ذهاب لمعى، كان شحات ما زال مهموما. أخذ يحملق على الحقول التى أمام عينيه، ثم تجاوزها ناحية الهضاب البعيدة، قائلا فى نفسه إن هذه الأرض كلها ليست سوى هبة من النيل؛ وبدون فيضانه السنوى والغرين الذى كان يوزعه على الأرض، فإنها سوف تموت يوما ما. قاطع أفكاره صوت سليمان الأجدش وهو يغالب نعاسه، "وحياة ربنا، انت عيل يا شحات، ليه اتكلمت كثير مع لمعى، راسنا ورمت!".

فات وقت الظهر، أخذ شحات يستجلى بعينه الأفق الجنوبى لعله يشهد أثرا لدخان القطار، لكنه لم ير شيئا. وهو حائر، والشمس تسرع نحو الأفق الأحمر فى الغرب، قام شحات وسار متجها ناحية دروة فاروق مخترقا الحقول المحصودة. وجد فاروق منحنيا فوق ولعة يحاول أن يصنع شايا. ما أن وضع الأقداح على فمهما ليشربا، حتى شاهد شحات بنظره الثاقب الآثار الأولى للدخان، ثم سمعا صوتا خافتا

لصفارة قطار، ثم، أخيراً، ظهر فى انحناءة طريق القاطرة ذاتها من بعيد. أخذ شحات فى عد العربات، إنها حوالى خمسين عربة. استمرت القاطرة فى تقدمها، ثم كانت تقف بين الحين والآخر لتترك بعض العربات. أصبحت تجر خمسا وعشرين عربة، ثم خمس عشرة، ثم ثمان. فكر شحات، لعل هناك المناءات من المزارعين متناثرين على طول الطريق منتظرين تلك العربات. لاحظ أن لمعى بمفرده حصل على سبع عربات، لذا فالثمانى عربات تركت له وللمنتظرين تحت الشجرة. لكن عدد المنتظرين بالإضافة إليه يصبح تسعة، وليس هناك سوى ثمانى عربات!

صرخ فى فاروق، "خللى بالك يا فاروق، فيه عجز فى العربيات، داخلين على خناقة إن شاء الله، قوم بسرعة، خلىنا ناخد عربيتنا".

"لا. رجلى وضهرى لسه موجوعين من المرة اللي فاتت، ما اقدرش أجري"

أسرع شحات جريا مخترقا الحقول نحو القاطرة التى تتحرك ببطء. ما أن رآه الرجال الجالسين تحت الشجرة، حتى انتفضوا واقفين وجروا على خط السكة الحديد. أخذ فاروق يبحث عن جلبابه وصندله. بعد ذلك، لاحظ أن شحات قد توقف عن الجرى، ثم تقرفص جالسا على الأرض. لعنه فاروق، "يا ابن الكلب، ما لقتش غير الوقت ده عشان تشخ!". لم يدر فاروق أن شحات كان فى قمة الاستثارة، لدرجة أن مصاريه تحركت عليه. فاروق، وهو حافى القدمين، ورأسه مكشوفة،

أخذ يحجل بسرعة تجاه القاطرة بالقدر الذى تسمح به قدماه. أخذ يقفز فوق الجسور كأنما هو ولد صغير، ويطرطش فى الماء كأن الشيطان بذاته يطارده.

سليمان وصل إلى العربية الأولى وادعى أنها تخصه، فى اللحظة التى وصل فيها شحات الذى أخذ يزعق فيه بوحشية، " سليمان، العربية دى بتاعتى، بتاعتك اللى بعديها ! روح خدها بسرعة ! مش عايزين خناق، العربيات كتير". سليمان، وقد رأى أن العربية التالية لم يحجزها أحد، أسرع نحوها. اثنان من رجال فاروق، أسرعوا بالحضور من مكان الجرن ليساعدا شحات فى جر العربية حتى مكان تواجد قصبه. سليمان وآخرون كانوا فى قمة الإثارة لدرجة أنهم دفعوا عرباتهم بعنف تجاه عربية شحات، مما جعل شحات وفاروق ومن معه يقفزون بعيدا حتى يتفادون السحق. أمطرهم شحات بسيل من شتائمه المنتقاة. الرجال الذين كانوا خلفه، أخذوا يزعمون، "ادفع بسرعة يا شحات، لبعدين حد يستولى على عربيتنا، خلىنا نحمل بسرعة".

فاروق الذى وجد حمارا فى مكان ما، أخذ يجول به هنا وهناك على الطريق الموازى للخط يصرخ بأوامره ويشتم الجميع، "واحد واحد يا بهائم ! كل واحد ليه عربية واحده بس! يا محمود، يا ابن الكلب! سيب دى لعلاء الدين. يا سليمان، يا طماع يا فقري، المفروض محدش بيتدى يحمل إلا لما كل واحد ياخذ عربيته!".

انفجر فيه سليمان كأنه البركان، "نحنمل العربية دى حتى
لو سنباط كلها غرقت دم!"

"خدها يا سليمان. يخرّب بيتك!"

حضر رجل مسرعا وأمسك بكتف شحات، "ساعدنى يا شحات
يا خويا. يا ربى، أنا لازم أأخذ عربية عشان حمايا!"

شحات لم ينظر خلفه حتى ليتعرف على من يحدثه، "أنا ما يهمنىش
حد خالص!"، قالها وهو يدفع بالعربة، "أنا واخذ العربية دى أحملها
بقصبي واخلص من الموضوع ده!"

عندما وصلوا إلى مكان تشوين قصب شحات، أخذوا يحملون
العربة بسرعة خرافية، بينما الشمس تغرب والظلام بدأ يحل جزئيا.
الآخرون اندفعوا ليساعدوا فى تحميل العربات الأخرى. فاروق اختفى،
وأخيرا انتهى العمل، واتجه شحات نحو منزله حاملا على كتفه سلما
كان قد استعاره من الكوم. لم يشعر من قبل بهذا القدر من التعب
والإجهاد، أخذ يتأمل السماء التى تزينت بالنجوم بتعبير فيه راحة
عميقة، حامدا الله. هوذا محصول القصب قد انتهى شأنه وفى انتظار
العام القادم. شعر أن حرارة جسمه مرتفعة وأحس أنه محموم وكل
عضلاته تنفج عليه. عندما حياه رجل عابر مستفسرا إلى أين العزم،
استدار شحات وبطيئته الساخرة قال، "رايح جهنم!"

بعدما تخلص من السلم، وصل منزله فى الظلام، ليجد أم حامد واقفة فى الحارة تصرخ وتحرك يديها بجنون، "شحات، تعالى بسرعة! جاموستى يا ولدى، يا خسارة يا جاموستى!". وهى تحاول جاهدة التقاط أنفاسها وفى حالة هستيرية، أخبرته أن الجاموسة وهى تتجول وتسير فى اتجاه المعبد الفرعونى، سقطت فى المحلة، وهو الاسم الذى أطلقه القرويون على بركة أمون - رع المقدسة. كان الذعر متملكا من أم حامد، تظن أن هذه الحادثة ليست سوى عقاب من السماء، لأنها طلبت يوما معونة الآلهة القديمة لإنجاب ذكر يعيش.

اندفع شحات نحو المعبد، وشق طريقه وسط القرويين المتجمعين حول شاطئ البركة الموحد الذلق. فى الأسفل، وسط المياه السوداء، المغطاة برغاو خضراء، أخذت الجاموسة تتحرك هنا وهناك خائفة من صيحات المتفرجين أكثر من أى شىء آخر. خلع شحات ملابسه بسرعة ووضعها على جانب، ثم انزلق فى البركة ووصلت المياه حتى صدره، وهو يصرخ بتحديد الاتجاهات، "بسرعة، هاتوا الحبال دى! ياللا يا رجالة. انتو بتتفرجوا وجاموستى بتغرق! خللوا بالكم من العياييل دول، لبعدين يقعوا فى المياه! انت يا كامل، شيل شوية الحشيش دول!". بدأ الهدوء يكتنف أعصاب الجاموسة بعدما تعرفت على صوت صديقها شحات، وهى مستمتعة ببرودة الماء الآسن.

فى الظلام، كان العديد من المتفرجين يتزلقون ويسقطون بسبب الحشائش الزلقة. صاح شحات، "ابعدوا شوية يا عيال، ما تخلوش حد يقرب ناحية المياه!". بسرعة ربط الحبال حول كل قدم للجاموسة، وثبت آخر حول بطنها، بينما كامل يصنع طريقا بالتخلص من الحشائش ويجهز ممرا طينيا يمكن شد الجاموسة نحوه. أمسك طابور من الناس بالحبال، ثم أخذ شحات يوجههم بصوت خشن منقلب، "شدوا أكثر يا رجاله! شدوا حيلكم! شدوا!". لفترة ، بالرغم من الصياح، اللهاث، التأوه لم يحدث شىء. ثم بطرطشة مياه عظيمة، اندفعت الجاموسة خارجة من المياه وهى تنخر بصوت عال كله خوف.

عندما عاد شحات بجاموسته إلى المنزل، أخذ الجميع فى تبادل رواية هذه القصة بانفعال شديد، يقدرون قيمة الجاموسة، يتذكرون ما نطق به شحات، ما فعله وكيف كان منظره ويستمتعون بهذا الحدث المسائى المثير.

الأم والابن

بعد العشاء، أصيب شحات بإسهال. رأسه كانت تدور، وعندما شاهد سماح وهي تضرب كلا من نوبى وأحمد، انفجر فيها، "سيبيهم لوحديهم، دا آخر يوم فى السنة. دول عيال صغيرين وتعبانين". تملك الغضب سماح فردت، "انت اللى مدلعهم، حتى لو طلبت من واحد منهم يجيب نرة ملح أو بق ميه، ما يرضاش".

فقد شحات تحكمه فى أعصابه، فرمى فى اتجاهها بفردة صندله، فزاغت منه وهي تشتمه. قام، وعلى وجهه تعبير مرعب. صاحت أم حامد، "أجرى يا سماح، أجرى". فى لحظات قليلة استرد هدوءه، لكن سماح استمرت غاضبة، وأخبرت أمها، "شحات ده مجنون".

شعر أنه فى حال أسوأ صباح اليوم التالى، تقياً مرتين، لكنه كان قد وعد فاروق بأنه سوف يحمل جوالين عدس من الجرن يسلمهما إلى المفتش الزراعى فى مكتبه الذى يبعد حوالى ميلين على الجانب الآخر من سنباط، لكن عندما وصل هناك، وجد المكتب مغلقاً وعدد كبير

من الناس منتظرين خارجا . انتظر شحات معهم حتى وقت الظهر . أخيرا ظهر المفتش وفي معيته طيار . إلا أن المفتش رفض استلام عدس الحكومة من شحات قائلا ، "إذا انا ابتديت أخذ حبوب من دلوقتى، حاتحجز هنا طول وقت بعد الظهر، على دلوقتى أروح أطل على الغيطان، لازم كلها تتحرق ونخلص منها بعد كام يوم".

بالنسبة لشحات، وهو فى قمة التعب والإرهاق بسبب الحر وما يشعر به من مظاهر الحمى والإسهال، كان هذا أكثر مما يحتمل، لذا انفجر، "ليه ما تاخدوش الحبوب دلوقتى؟ إذا ما جنبناش فى الوقت المحدد تحملونا بغرامة، وإذا جنبناها ترفضوا استلامها؟ نعمل إيه يعنى؟"

أخذ الجمع يشجع شحات ويصفق له! لكن طيار، خوفا من أن يتعرض شحات للأذية، تدخل وسحب شحات جانبا قائلا، "كفاية كده، خلاص! روح بيتكم وانا حآخذ بالى من العدس ده".

ما أن وصل إلى منزله وهو يترنح فى سيره، ألقى بنفسه على فرشته محولا وجهه ناحية الحائط. شعر بدوخة وسخونة تسرى فى بدنه، عيناه امتلأت بالدموع. كل من شحات وأم حامد لديهما خوف غريزى مبالغ فيه من المرض. إنهما لا يخافان من الموت، لكن لا يلزم سوى أقل القليل من المتاعب الجسدية، وعكة معدة، ارتعاش بسيط، حتى يشعران أنهما على شفا الموت، فوق كل شىء، كانا يخشيان الحمى بالذات.

ما أن وضعت أمه يدها على جبهته، نسيت كل شيء من مهام المنزل واستقرت بجواره، ترجوه أن يشرب شايا أو قهوة، فكان يهز رأسه رافضا صانعا صوتا معينا بلسانه يعنى الرفض، ثم يدير جسده بتأن ليواجه الحائط مرة أخرى. فى وقت العشاء، استطاع أن يتناول قليلا من الفول المدمس والقلفل الأخضر. أثناء الليل حلم أن معدته قد انتفخت وأصبحت باللونة ضخمة، فصحا مفزوعا غارقا فى عرقه.

ازدادت الحمى ومعها الإسهال فى اليوم التالى، لا يتحرك إلا وتقرص عليه بطنه فيسرع جريا نحو مكان الأعشاب الطويلة المجاورة لجدران المعبد، ثم يعود متهالكا ووجهه أصفر ويكاد أن يغمى عليه. عندما علم الجيران أنه مريض، أتوا جميعا فى المساء ليطمئنوا عليه، كل منهم يهز رأسه بالتحية ويقول بشكل رسمى، "سلامتك يا شحات، عياك ده حل بدرى، إن شاء الله تخف ويعدى بسلام".

أتى أصدقائه يمزحون، "إيه يا شحات، هو انت لسه ما متش؟".

فيبتسم ابتسامة ضعيفة ويرد، "إن شاء الله انت يا بعيد"

"واه، وليه لا يعنى، إذا كانت إرادته"، ثم يضحكون ليرفعوا من معنوياته.

شمس الدين، الطالب، حضر بالرغم من مشاغله الكثيرة، كان والده قد أخبره بعدم قدرته على الصرف عليه أكثر من ذلك، بينما هو كان يأمل أن يلتحق بدراسة أعلى، لذا فهو بعد الامتحان الأخير سوف يجند

فى الجىش؁ أأبر شحات؁ ؤا واءب على لازم أقوم بيه. بالكاد استطاع هذا الشاب أن يأفى المراءة التى يحس بها؁ عندما أأبر شحات بأن الحاج عبد المطلب سوف يرسل ابنه الأكبر؁ أحمد؁ إلى الجامعة فى القاهرة السنة القادمة. كان شحات يعلم بأن شمس الدين اعتاد الكذب عندما كان يأبر الغرباء بأنه يتعلم فى القاهرة وليس فى معهد متوسط بأسوان. أراد شمس الدين؁ قبل أن يغادر مرقد شحات؁ أن يترك انطبعا فاضلا؁ لذا أأبر شحات أنه يود له أن يأف من مرضه قبل قدوم يوم الجمعة؁ حيث إنه ينتوى أن يلأى أأبة فى الجامع؁ عنوانها "كيف نألى".

هذا أبهج شحات أكثر من أى أحد أأر؁ بالكاد استطاع أن يأفى شعوره بالإأارة. بعدها أبلغ أم حامد؁ "عندنا فى بلدنا ناس عايذة الحرق؁ كل المأرمين واللى ماسكين فى الدنيا بايديهم وسنانهم أأروحا الجامع يوم الجمعة؁ عشان يسمعا شمس الدين وهو يأطب فيهم ازأى يكونوا مسلمين بأق وأأقق. الحمد لله على كل أال".

كأير ممن زاروا شحات بدأوا فى الشأوى من أجوم شرس للعقارب؁ فبين ليلة وضاهاا؁ عأر على تلك الأشرة المؤذية فى كل مكان؁ فى طريق التركة؁ عند السكة الأديد أأى داخل البيوت ذاتها. الأولاد الصغار أأأوا يأوبون الشوارع ممسكين بمأاعل أو مصابيح مأولين الإمساك ببعض منها لبيعها للمستأفى فى الأقصر. طفالن وشاب

فى الثامنة عشر من عمره تعرضوا للدغ العقارب فى الكوم، وقد توفى الشاب. أسوأ ما فى الأمر، هو أن هناك امرأة لدغت وهى تعزى وتتدب فى جنازة الشاب. قال شحات إنهم يجب أن يلوموا السد العالى. قبل ذلك، كان كثير من العقارب تغرق بسبب فيضان النيل، لم يظل الزوار كثيرا فى زيارة شحات، بالرغم من أن أم حامد كانت تعزم عليهم بشرب الشاى. لكن الضجيج المتصل وهم فى حضرته، مع دخان السجائر والثرثرة التى لا تنتهى والضوضاء، تركته كأنما هو الخرقة البالية وشاعرا بأنه أسوأ مما كان.

فى الليلة التالية لمرضه، هبت رياح جنوبية مجنونة، إنها الخماسين. أصبح الهواء حارا لا يطاق ومشبعاً بغبار خائق. كما يحدث دائما فى الخماسين الذى يحدث فى الصيف، تنتشر حالات الحمى والإسهال بين سكان القرية؛ قالت أم حامد إنه بانتشار هذه الرياح المحملة بالغبار ومعها العقارب أيضا، لا تتذكر هى أياما أسوأ من ذلك، لقد اضطرت أن تقفل كل النوافذ، وبذلك أصبح البيت مكتوما وخائفا.

نام شحات معظم اليوم الثالث، لكنه فى المغرب خرج ووقف فوق السطوح ليشاهد السماء بمنظرها الرائع باللون الأحمر والذهبى من جراء ذلك الغبار الكثيف وظلاله على ماء التربة ونوافذ اللوكاندة. ثم شعر فجأة بنسمة باردة تهب بشكل لا يمكن التعبير عنه بعد ذلك الحر الخائق داخل المنزل المحكم الإقفال، لذا حمل فرشته إلى الخارج. لكن ما

أن هبت رياح الخماسين مرة أخرى، قامت هذه بطرده شر طردة وأزاحته داخل المنزل بسبب ذلك الغبار الكثيف الذى تجمع فوراً وغطى أكتافه ووجهه وبدأ كأنه كريات الطلع، وحتى عندما غطى وجهه ببطانية، وهو يكاد أن يختنق، وجد الغبار طريقه إلى عينيه وأنفه بسهولة بالغة.

معظم القرويين، لا تظل حالة الحمى والإسهال التى يتعرضون إليها فى ذلك الوقت سوى يوم أو اثنين، لكن فى الليلة الرابعة لمرض شحات، تطورت علته إلى حد خطير. ارتفعت مظاهر الحمى وأصبحت حرارة بشرته ملتهبة، لدرجة أنه تعذر عليه النوم، لكنه وهو فوق سريره، أخذ يحملق فى سكون على نقطة معينة من السقف، بينما ذهنه فى بلاد بعيدة. بعد صلاة المغرب، لم تترك أم حامد جانب فرشته، تضع يدها بين الحين والآخر على جبهته تتحسسها.

انزعجت من رقده تلك، فعيناه مفتوحتان عن آخرهما، وبالكاد يلتقط أنفاسه، لذا سألته، "شحات، راسك واجعالك قوى؟ دى سخنة زى النار يا ولدى". أجاب، ولكن بعد برهة، "أيوه يا امه، بس انا نازل أحلم".
"تحلم بيايه يا ولدى؟"

"حاجات كتيرة خالص". لفترة لم ينطق بحرف، ثم، عندما اعتقدت أنه استغرق فى النوم، فوجئت به يسألها، "يا امه، إذا انا مت دلوقتى، حيحطنى التربى فى القبر، مش كده؟ ويعدين يجينى ناكر ونكير يسألونى ويضيقوا على؟"

"أيوه يا ولدى"

كان يتكلم بصوت واهن متعب، لدرجة أنها أمالت رأسها للأمام لتتابع كلماته، أضاف، "أنا عملت حاجات وحشة كثير، زى القمار، معاكسة البنات، الشرب وكمّان الشتيمة والخناق معاكى، كمّان أنا أخذت الانتاشر جنيّه اللي كان المفروض أسلمهم لفاروق. الملاكين دول مش حيكونوا حلوين قوى معايا، دا انا سمعت كمّان إن وشهم فى حالتى حيكونوا زى العفاريت، حيمسكوا فى خناقى وهات يا ضرب، لغاية ما يوصلونى للنار السابعة، وحاقعد هناك لغاية ما كل ذنوبى تخلص".

انتاب الفرع أم حامد وهى تستمع لهذا الكلام، "معلش، ما تاخذش فى بالك"، ثم حاولت أن تسرى عنه، وهى تمسح جبهته بخرقه مغموسة فى مياه باردة، قالت، "يمكن يا ولدى ياخدوك للجنة علطول".

مرة أخرى، زادت فترة الصمت، أخيرا قال، "ناكر ونكير دول" ثم بصوت ضاحك خافت كأنما قد أعجبتّه الفكرة، "لا. لا، أنا مش زى شمس الدين، طبعا هما حيسألونى، انت كنت بتشتّم أمك؟ إذا قلت أيوه، حينزلوا فى ضرب، وإذا قلت لا، يعنى باكدب، برضك حينزلوا فى ضرب، زى ما بيعمل فى الشيخ الفقى والغفرا". توقف عن الحديث. أغمض عينيه، راح فى غفوة متجددة. بالنسبة لأم حامد، مرت الساعات وهى فى أشد حالات القلق والانزعاج، وخيل لها أن الأمسية لن تنتهى.

بعد أن حل الظلام الدامس خارجا، وقفت أمام النافذة، بدا شكلها كخيال. ظلت فى وقفتهى تلك لفترة طويلة، إلى أن فتح شحات عينيه مرة أخرى.

سألته، "أجيبك اللمبة؟". لكنه لم يجب، فأضافت، "راسك لسه بتوجهك؟"

"خالص خالص. والأحلام نازلة ترف على".

استقر فى ضميرها أنه يجب أن تحضر له طبيبا مع بزوغ الشمس. مرت ساعات، ثم حضرت سماح والولدان صامتين وحملوا فراشهم إلى السطوح. جلست أم حامد مرة أخرى على الأرض بجوار فرشة شحات. كان ما زال مرتديا جلبابه الأسود الذى ذهب به إلى مكتب المفتش؛ وقد رفض أن يغيره. عندما حضرت سماح، وسألت بصوت خفيض عما إذا كان هناك أى شىء ممكن أن تقوم به، إلا أن أم حامد لم تفكر فى أى شىء سوى أى تستقر بجوار فراش ابنها. أخبرت سماح والحزن ممسكا بتلابيبها، "حياتى مش حيكون لها طعم من غيره"

"أنا عارفه كده يا امه"

ارتعش صوت الأم وهى تنهه، "إذا.. إذا ما خفش يا سماح، ما اقدرش أبدا أستحمل كده". تفحصت سماح وجه أمها الذى غرق فى الدموع، وعندما كانت تتحدث تخطط كلماتها بالنشيج والأنين.

أضافت الأم، "لما اتولد، كنت أنا مش أبوه اللي وشوشت فى ودنه الله أكبر، عمرى قلت لك كده؟ لكن يا ربى، فين أيام زمان من دلوقتى؟ دا ابنى الأولانى اللي عاش لغاية ما بقى راجل". ثم كتبت أنينها بقطعة قماش حتى لا توقظه.

حوالى الساعة العاشرة، ظهر ظل نور أحمر متأرجح على جدران الغرفة، ثم حضرت سماح لتخبر والدتها أن الرجال ابتدأوا فى حرق أعقاب القصب فى الحقول كما يفعلون كل سنة بعد قطع القصب. قامت أم حامد وخرجت لتلقى نظرة فى اتجاه الشرق، فشاهدت منظرا عجيبا، فى خط مفرد، من إحدى نهايات الأفق الشرقى إلى الآخر، فى منتصف المسافة حتى بلوغ النيل، ارتفع جدار من النيران طوله ما بين سبعة إلى ثمانية أقدام، الشرار ينتشر فى كل الاتجاهات كما لو أن هناك مجموعة هائلة من الزناجير تلقى بالنيران عاليا. بدا الوادى كله كأنه قد تفجر باللهب البراق. كانت فى موقعها هذا، تسمع صوت النار وهى تتقدم وتأكل.

بالتأكيد، انتظر المفتش ورجاله انتهاء عاصفة الخماسين، لكن ما زال هناك ريح خفيفة، وكل ما هو على مرأى البصر يسبح فى ضوء أحمر متذبذب. حرق حقول القصب، يعنى أن الحصاد قد انتهى، وأن القصب كله قد وصل إلى مصنع التكرير. بالرغم من أن موقع النار كان بعيدا نحو سنباط، إلا أنها بدت كأنها قريبة للغاية وتهدد أم حامد.

وجدت أيضا هالة سوداء من الدخان تتحرك فوق الحقول، بينما أسراب الطيور تفر هاربة. اللهب يرتفع عاليا في السماء كثيفا، لونه أبيض متوقد بحيث ظهر نصل كل فرع حشيش واضحا تماما. تدريجيا، بدأت ألسنة اللهب في الخمود، بينما حزم من الدخان الأسود تحوم فوق القرية.

عادت أم حامد مرة أخرى لتجلس بجوار شحات في الغرفة المظلمة، عندما تشتعل بعض من أعقاب القصب التي لم تلتحقها النار بعد، ترسل فجأة صورة شعله من اللهب تنير الغرفة. هذا المنظر ذكر أم حامد بنيران جهنم. أغمضت عينيها وباتت تغفو قليلا، لكن حتى وهي تنساب نحو النوم، كانت ما زالت ترى تلك الأضواء المتوحشة، كأننا نحن في اليوم الأخير، وجدت نفسها داخل إطار منظر مربع كله لهب ودخان، بينما إبليس ذاته، وهو ضخم الجثة، أسود، له قرون وقبيح الشكل- يقود شحات إلى النار وهو يدفع به بعصا طويلة، كما كان شحات يفعل عندما كان يطارد الأولاد إذا تصرفوا تصرفا لا يرضيه. تملكها خوف وفزع، لذا سارعت بإيقاظ نفسها وأسرعت تتحسس نبض شحات، تلاحظ حركات صدره لتتيقن أنه ما زال يتنفس، ثم انخرطت في دعاء باك وتضرع لله لكي ينقذ ابنها.

حوالي الساعة الثالثة صباحا، بدأ شحات في التقلب بعنف في فراشه، وهو يئن ويتوجع وينطق بعبارات غير مفهومة كما لو كان يحلم بكابوس. لقد كان يتوجع طوال فترة المساء، أما الآن فهو يقذف بيديه

فى كل الاتجاهات محاولا الهرب من شىء مرعب. غطت أم حامد فمها بيديها، غير قادرة أن تحول ناظريها عنه؛ حاولت أن توقظه من حالة الهذيان تلك، وأخذت تناديه بصوت خفيض، "شحات، شحات يا ولدى". أخذ هو فى التأوه بصوت عال متآلم، لدرجة أن سماح والولدين وقفوا على الباب بالكاد يلتقطون أنفاسهم، معتقدين أن شحات يموت.

كل من الولدين الصغيرين ماتا فى جلدهما من الخوف، شعرا كأنهما فى طريقهما للبقاء والعيول، رغبا من صميم قلبيهما أن ينطقا بشىء بهيج، لكن أنات شحات الخشنة أصبحت أعلى ومستمرة، لاحظت أم حامد أنه يود أن ينطق بجملة "الله أكبر.. الله أكبر..".

فجأة فتح عينيه، ثم جلس قاعدا ونظراته موجهة إلى نقطة محددة فى الظلام، وصرخ بصوت مرتفع ممتد "الله أكبر.. الله أكبر..!"

تراجع الأولاد إلى الخلف فى زعر بالغ، حضر الجيران منزعين، شراعات النوافذ والأبواب فتحت، الكلاب هوهوت، بدأ الأطفال فى النحيب- أسرع أم حامد إلى النافذة ودفعت بالشراعات للخلف، وصاحت بأعلى صوت، "لا، لا. شحات عيان خالص وهو يبيلم، ما فيش حاجة يا ناس!".

عندما استدارت، أسقط شحات رأسه بعنف على المخذة وهو يتنفس بعمق، ثم صدرت منه أنات عميقة هزت كل كيانه، أخذ يجاهد

ليلتقط أنفاسه. قبضت أم حامد على يده وانتظرت أن ينطق بشيء. عندما تحدث معها، تكلم بصوت هادئ، لكن بنبرة ضعيفة وبانفعال وما زالت عيناه مركزتين على شيء ما بعيدا عن محتوى الغرفة. قال إنه حلم بأنه كان في حوش مقابر- يتجول بينها وهو يرتدى جلبابه الأسود القديم الممزق، شعر بأن رأسه تؤله؛ فهو قد تعرض من قبل إلى التعذيب من شياطين بعث بهم إبليس، كانوا يnehشون وينبحون داخل دماغه، ثم أخذ يبكي وينن إلى أن سقط فجأة فوق شاهد قبر وخبط رأسه وأصابها. كان الأمر يبدو كأن هناك مجموعة من الشياطين المهتاجة المتوحشة، يدورون داخله في ثورة يريدون أن يخرجوا.

ثم فجأة ظهر أمامه رجل ملتج يرتدى ثيابا بيضاء، يحمل في يده سبحة كهرمانية، هذا الرجل أخذ ينادى عليه في صوت له صدى غريب، قال، "مين؟ مين انت؟ شحات؟ انت لسه بتشحت؟ تعالى عندي، تعالى! ليه لابس هدوم سود بتاعة روح نجسة؟ أدخل هنا، أدخل!"

ثم اجتازا سويا بوابة ضخمة، في الحال أصبح الهواء باردا ومنعشا، مع ضوء مبهر جميل يملأ المكان، بالكاد استطاع شحات أن يفتح عينيه فيه، كان الضوء يلمع كنور الشمس، من داخل هذا الضوء انبثق شكل رجل آخر، هو أيضا ملتج، لكن هناك هالة من النور الذهبي تحيط به، لدرجة أن شحات اضطر أن يغطي وجهه بسبب الإبهار، ثم أخذ منه هلاهيله السوداء وأحرقها أمامه، وأعطاه عباءة بيضاء لامعة

ليلبسها، ثم ربط زنارا أخضر حول وسطه. بعد ذلك قاداه إلى الأمام ليسير في حديقة واسعة تزينها أشجار إعجازية وزهور وينابيع ذات جمال لا ينطق به، كل هذا ملاء بشعور مقدس يصعب وصفه. حبس نفسه وتعثّر نبض قلبه وسمع أصواتا ترتفع في رتم هادر سحرى تقول "الله أكبر، الله أكبر"، هو أيضا، شاركهم في هذا النداء وقد سيطر عليه فرح لا ينطق به اكتنف كل كيانه.

من خلال الكلمات المتدفقة من فم شحات، من النيران المنطلقة من عينيه، من كل حركاته، أدركت أم حامد ذلك الجمال الذى يصفه، لدرجة أنها وقفت وقد رشقت قدميها فى الأرض متيقنة أن هذه بالحق هى البشرى الطيبة. الآن هو سوف يشفى، لأنها فهمت ماذا يعنى هذا الحلم.

الرجل الأول هو الملاك جبريل، والثانى هو النبى بذاته، لأن المباركين فقط هم الذين يمكن أن يعاينوا وجهه. هو الذى ربط الزنار الأخضر حول خصر شحات ، وحرق الشياطين الذين كانوا يعربدون فى صدر شحات، حدث ذلك عندما حرق ملابسه السوداء.

أم حامد إنسانة طموحة، تأمل دائما من صميم قلبها، لكنها حتى الآن لم تتل ما يسر القلب. الآن وقد غط شحات فى نوم عميق، بشرته باردة والحمى اختفت، أخذت تردد بعض الأدعية التى تشكر فيها الله على نعمائه. مع ذلك، الشكوك ما زالت تعربد فى صدرها، هل هى حقا تريد أن تتغير طباع ابنها؟

الجزء الرابع

الإصبع المتحرك يكتب، وقد كتب،
هو يتحرك قدما، لكن لا دهاؤك أو تقواك،
تغريه أن يلغى ولو نصف سطر منه.
كل دموعك، لن تستطيع محو حرف فيه.
من رباعيات الخيام

تراجيديا وكوميديا

فى الحياة الحقيقية، الحدث الفردى العرضى الذى يمكن أن يغير كل شىء، أمر نادر الحدوث، وهذا ما أدركته أم حامد التى تتمتع بخيال خصب رومانتيكى. دائما ما يفعل الناس كل ما هو عادى من شئون الحياة، مثلا تناول الطعام حول النار - مجرد تناول الطعام - لكن فى نفس الوقت، بدون تفكير ، يتحقق شعورهم بملء السعادة التى تغمر كيانههم. بنفس القدر، هذا يحدث بالنسبة للمأسى والتراجيديا، حيث تتقلب حياة بعض الأشخاص فى سلسلة متواصلة من الإخفاقات. وهذا مماثل لمقولة أن يصبح شحات هو سيد قراره، وقادرا على أن يملأ الفراغ الذى خلفه وفاة والده. هنا تستقر مجموعة كاملة من الإخفاقات الغامضة وإساءة للحكم، معظمها تافه للغاية، بحيث يمر بدون الانتباه إليه عندما يحدث فعلا.

عندما طويت صفحة شهر مايو وحل بدلا منه يونية ثم يوليو، رمال الصحراء وغبارها تحولت لتصبح حرارة لا تطاق، حانت الذكرى السنوية لوفاة المرحوم عبد الباسط بدون أن يدري أحد بقومها، العائلة أيضا ليس لديها المال الكافى لكى تحتفل بهذه المناسبة حق احتفال.

خلال تلك الشهور، وجد كل من شحات وأمه وخاله أنفسهم فى حالة تطاحن وتصادم مشترك، لم يرغب واحد منهم فى حدوثه. لكن، كالسمكة التى وقعت فى شرك الصيد، تعلقوا جميعا بآمال زائفة من صنع خيالاتهم، وسيقوا نحو التزامات لا يستطيعون الوفاء بها. كما يحدث فى كل الصدمات العائلية، الغضب الناشئ عن الحب المعارض، جعل من مناقشاتهم أكثر عشوائية والكلمات المتبادلة أكثر قسوة وتجن.

من بين الثلاثة، نجد أن أحمد يعتقد أن على الإنسان أن يقرر مصير حياته. بالنسبة لشحات وأم حامد، القدر والنصيب يتحدد بناء على حركة قوى خارجية لا يمكن التنبؤ بها، وكل ما هو حسن مصدره الله فقط. مع ذلك، ألا يستطيع أتباع إبليس من الشياطين أن يسممو إرادة الإنسان، بحيث يحدث ضررا بالغا بالفرد ولكل من يحبه؟ كما هو حادث فى أحلام شحات، لا يستطيع أحد أن ينقذهم من تلك الملمات سوى الله وحده.

ما أن بذرت تقاوى السمسسم فى الأرض، وما أن بزغت النباتات الخضراء لحصول القصب الجديد، حتى قل الجهد البدنى المطلوب بذله فى الحقل- هذا لحسن الحظ بالتأكيد، فدرجة الحرارة خلال فترة الظهر ترتفع إلى درجات لا يمكن للبشر احتمالها. شحات، وعنده الآن من الوقت ما يكفى ويزيد، استدان مائة جنيه من الحاج عبد المطلب، لقد كان يأمل، وهو الآن رئيس عائلته، بأنه إذا تيسر له الوفاء بتسديد مصاريف

الاحتفال بسنوية والده، فإن هذا كفيـل بأن يحقق له الشعور بالحرية أخيراً، ويصبح بعدها إنساناً محترماً محبوباً. جرب حظه أولاً فى موضوع شراء الغنم ثم ذبحها، عندما تأكد له أن هذا النوع من النشاط ليس مربحاً، اشترى مسناً للسكاكين وأخذ يدور به من منزل إلى آخر.

كل من المشروعين فشلاً، ومما جعل الأمر أسوأ بالنسبة له، اتهام خاله له بأن فشله يرجع لسوء اختياره للعمل الإضافى، طلب منه أن يبذل جهداً أكبر على أن يبيع الساطور والمسن فى سوق المدينة ليحصل على ربح من ذلك. شعر شحات بغضب جامح يسيطر على كل كيانه، لذا قضى ليلة فى قهوة عبد اللـاه. عندما عاد إلى المنزل، كان يتطوح من السكر وشرب الحشيش. انتظرت أم حامد حتى استغرق فى النوم، ثم فتشت هـدومه واستولت على كل النقود المتبقية فى جيوبه، واستخدمتها فى شراء جوالين من الدقيق من دكان الحاج عبد المطلب. فعلى الأقل، هذا ما قالتـه لشحات فى اليوم التالى، لن تجوع العائلة. بذلك ترك شحات وهو مدين. لقد طار رأسـماله، وليس لديه الوسيلة المناسبة للتعويض.

أمه، هى كالعادة، ممزقة ما بين الحقيقة والخيال، ترفع يديها للسماء بين الحين والآخر تقول، "من فىن حـالاقى فلوس عشان أصرف على عيالى دول؟ من فىن؟"، لكن لا يمر سوى وقت قصير حتى تتشامخ وتقول إنها سوف تدعو مائة شيخ لـكى تحتفل بذكرى سنوية المرحوم عبد الباسط.

هذا الأمر كان يشعل غضب شحات، فينفجر فيها، "حلمك شوية على الفلوس! عايزة يعنى تصرفى كل اللي ف جيبك على السكر والشاى؟ وتندمى نص سكان بلدنا يحضروا عندنا عشان تضايقيهم! دا إحنا لو جينا عشر مشايخ بس، حناكل بعديهم عيش وبصل ويس!". فتشتعل هى أيضا بالغضب وترد، "انت مش جوزى! مش ابو عيالى! ليه بتتمقلت على؟"

بدأ شحات مرة أخرى فى معاقرة الخمر. فى ليلة عاد إلى المنزل وهو يتطوح فوجد أمه وخاله مجتمعين سويا. عندما دخل، فهم من الطريقة التى كانا يتبادلان بها النظرات أن الحديث بينهما كان يدور عنه. شيطانه همس فى أذنه أن يعطيها شيئا مثيرا يحيرهما. أعلن لهما أنه ينوى أن يتزوج فتاة معينة، تصادف أنها تنتمى بصلة قرابة لصبحى والحاج على. هذا الأمر لم يخطر على باله من قبل، الآن نجح بالفعل من شد انتباههما.

صرخت أم حامد، وصاح فيه أحمد، "هو انت مش راجل؟ ازاي تقول انك حتناسب العيلة دى بالذات؟". صاح شحات فى وجهه، "بعد سنة من دلوقتى أنا حاعملها، وما حدش فيكم حيقدر يمنعنى".

فى الحال، بدأت أم حامد فى اقتراح هذه وتلك من بنات عائلتها كعروس مناسبة له، لكن شحات قال إنهم جميعا يشبهن أنثى الجاموس. هدد أحمد بأنه سوف يسجل اسم شحات لكى يلتحق بالجيش، لكنه تراجع عن ذلك عندما لاحظ أنه كان مرحبا بذلك.

فى حر الصعيد الذى يشبه نار الفرن، تقل قدرة المزروعات على امتصاص الغذاء والماء من الأرض. المفتش الزراعى فشل فى زيادة كمية المياه الموجهة لحقول سنباط، لذا جفت نباتات القصب وتكسرت، وسمسم شحات، الذى كان ينمو جيدا فى مايو، أصبح نموه معوقا فى يونيو. بقدوم شهر يوليو، وتحت أشعة الشمس الحارقة، توقف تماما عن النمو. فى النهاية، اصفر لون نبات السمسم وتضاءل حجمه، بالتالى أصبح عقيما. عندما شاهدت أم حامد حقل السمسم، صاحت، "خلاص، رحنا بلاش، ضاع منا المحصول ده كمان". لم تعد تلقى باللوم على فاروق، بالرغم من أنها كانت دائما ما تصف أعماله بأنها نص نص. ثم تشكو لشحات قائلة، "وإيه اللى يقدر فاروق يعمل؟ ما فيش فيه جاية من طرف الحكومة، صرفنا كتير على النتروكيما، لكن هى فين المياه؟". إنها للأسف، مدينة للحكومة بمبلغ مائتين من الجنيهات، هذا بخلاف مائة جنيهه سحبت بها لوازم البيت من دكان الحاج عبد المطلب. ولم تحصل حتى الآن على نقود المعاش الذى وعدت به.

فى غمرة قلقها وعجزها، لجأت أم حامد بشكل منتظم إلى طلب المشورة من أخيها أحمد، بدأ لشحات أنها بالكاد تستطيع أن تتنطق بجملة مفيدة بدون أن تذكر، "أحمد قال، أحمد عمل، هذا زاد من درجة امتعاضه وتذمره، لذا عاد إليهما وهو أكثر إلحاحا فى طلب زواجه من إحدى قريبات والده. أخيرا، وقد قر فى ذهن أحمد

أنه ربما يكون شحات جادا فى هذا الأمر، طلب من أخته أن تتقدم للمحكمة بطلب لتحصل على حكم بأنها هى الوصية على سماح ونوبى وأحمد. بهذه الطريقة، كما شرح أحمد، إذا نفذ شحات هذه الزيجة وحدث أى نزاع، حينئذ تكون هى المحكمة فى أربعة أخماس أرضهم الزراعية. محتارة والقلق يحيط بها من كل جانب، وافقت أم حامد على اتخاذ هذا الإجراء. وتحدد للنظر فى طلبها هذا، أحد أيام الأسبوع الثانى من شهر أغسطس، هذا أضاف رصاصة أخرى فى عملية إذلال شحات.

لذلك، ما أن حل شهر أغسطس والجلسة، تقدمت كل من أم حامد وأحمد بطلباتهما، لكن شحات عارضهما، وصلة القرابة التى تربطهم جميعا أصابها الشئ الكثير. كانت أم حامد على وعى كامل لما يمكن أن يحدث إذا زادت فيها. فى أعماق قلبه، كان شحات أيضا يدرك ذلك، لكن كل منهما صمم أن يؤذى الآخر.

قبل يومين من انعقاد جلسة المحكمة، نشبت خناقة كبرى بين شحات وأمه. هو دائما ما يعترض أن تذهب سماح إلى الحقل لتحش عليقة البهائم من الحقل، أعلن، "أنا قلت ميت مرة، ما تبعتيش سماح الغيط، ما احبش حد من الجيران يجيب سيرة اختى بكلمة بطالة".

لم تكن هناك رغبة كامنة فى ضمير أم حامد أن تنخرط معه فى خناقة، لكنها لم تستطع أن تمنع نفسها من رسم ابتسامة ساخرة

على وجهها وتقول، "أيوه يا ولدى، لو كنت انت بتجيب اللى يكفى بهايمننا، ما كنتش اضطريت أبعت سماح".

مجروحاً، فكر شحات أن يطلق عليها إجابة مفحمة، "أنا عايز أبيع الجاموسة واشترى بدالها تاكسى". بسرعة شاهد مظاهر القلق والذعر ترسم على وجه أمه، أخيراً أصاب الهدف، صاحت أمه وقد لحقها قلق حقيقى، "أبدأ، مستحيل، دى اللى اشتراها لينا هو أحمد، عشان العيلين وسماح، مش عشانك"، ثم أضافت، "أبوهم مات، ولقوا فى خالهم نعم الأب".

عندما بدأ شحات فى شتم خاله، قاطعته جازمة، "إذا ما بطلتش شتيمة فى أحمد، أنا مش قاعدالك فى البيت ده دقيقة واحدة! حأخد سماح والولدين واروح بيت أخويا! حاخليه يودينى مصر عشان نعرف نقبض المعاش، وإذا ما كانش لى معاش، حاغسل هدوم الناس وامسح بلاط البيوت، كمان ممكن اشغل عيالى خدامين".

أصيب شحات بصدمة شديدة، أمه لم تتكلم بهذا الشكل من قبل، لذا انفجر فيها، "ليه؟ ما عندكيش بيت؟ احلق شنبى دهه إذا أخذتى قرش صاغ من الحكومة!". استمر الغضب مسيطراً عليه، فكر أنه إذا كان البيت لا يسعهما معاً، فعليه هو وليس هى مغادرة المنزل. إنه سوف يذهب إلى القاهرة، نعم، وسوف يصطحب معه الولدين. لذا نادى عليهما، "نوبى، أحمد! مين فيكم يوافق يروح معايا مصر؟".

الولدان، وهما مغرمان بشحات ، وفى حيرة شديدة من كثرة الخناقات الناشبة بينه وبين أمه، وافقا على هذا الاقتراح بكل سرور. صاح شحات وأمارات الانتصار بادية على وجهه، "شفتى، وانتى يا سماح، إيه رأيك؟". سماح وقد استمعت لقدر كبير من هذا الكلام الفارغ، التفتت غاضبة من والدتها وشحات قائلة، "إيه الكلام أفاضى ده! إذا سافرتم كلكم أنا مش حاسيب بيت ابويا. لازم انتو الاتنين تتكسفوا على نفسيكم!". هذا القول عقلهما، وانتهت بذلك تلك المعركة الجزئية.

عندما حضر أحمد إلى المنزل تلك الأمسية، وهو يحضر الآن كل يوم تقريبا، أخبرته أم حامد عن تهديد شحات، "لازم تتكلم معاه يا أحمد، دا تعبنى خالص".

نصحها أحمد، "مش ممكن يكون بيتكلم جد فى موضوع بيع الجاموسة، دى على كل حال مشكلة بسيطة، الزمن حيحلها. سيبى الموضوع على ما هو عليه"، قالت، "الأيام دى، نازل فى تهديد، بيقول انه حيروح مصر ويسيبنى. أنا مش عارفة أروح لمن وقين. إذا جيت عندك، يغضب ويضربه الدم ويقول، المفروض خالى ده ما يخطيش البيت ده تانى، ليه تقدميله انتى شأى وأكل؟".

لم يهتم أحمد كثيرا بهذا الحديث، قال، "شحات مش عايز يبيع الجاموسة يا اختى، هو بس عايز يعمل معاكى شبطة والسلام، بكده يلاقى عنده عذر يتحجج بيه ويروح بسببه لمصر، ويبعد بكده عن المسئولية".

فى الحقيقة، يشعر أحمد بالتوتر سواء عندما يخاطب أخته أو شحات. كان واضحا أمام عينيه أن العلاقات تزداد سوءا بين الأم وابنها من يوم لآخر، وأنه يمكن أن يلام على ذلك إلى حد ما. منذ أدرك شحات عدم قدرته على الحلول مكان والده، أصبح متوترا ومن السهولة بمكان إثارته، وبذلك يصعب التعامل معه. فى منزله، أخبر أحمد زوجته، "حاحس براحة شديدة لو شحات وأمه اتصالحوا مع بعض. نفسى شحات ده يصبح راجل بحق وحقيق وياخد باله من الغيط والبيت ويتجوز جوازة كويسة. دا كل اللى نفسى فيه".

أحمد يلوم أم حامد مثلما يلوم شحات، فهى التى ورطت العائلة فى الديون، واستمرت فى إسرافها كأنما عبد الباسط ما زال على قيد الحياة يحضر مكاسبه من القمار. أحمد يشعر ويؤمن أنه لا يجب على المرأة عموما أن تتدخل فى أمور الزراعة أو المحصول. هذا هو عمل الرجل تماما، حتى لو كان هذا الرجل هو شحات. لذا التفت بعنف نحو أم حامد قائلا، "انتى السبب فى كل حاجة بتحصل هنا. مش قادرة تضبطى بيتك زين، ولا قادرة تلجمى ولدك. بتصرفى فلوس مش بتاعتك، وتخلقى عدوين ليكى من غير لازمة". ثم، وهو يشاهد الدموع وهى تنهمر من عينيه، وافق أن يتكلم مع شحات.

بحث عنه أحمد، إلى أن وجده فى خص وراء منزل العزب، هناك كان شحات يساعد صديقة فى تشحيم محراث. كان كل من الشابين

قذرا، وجههما وملابسهما عليها خطوط سوداء من الشحم. أسرع العزب وأحضر بطانية نظيفة وكنبة ليجلس عليها أحمد، الذى كان يرتدى جلبابه الأصفر النظيف. ظل الخال صامتا لفترة، ثم تتحنن مخاطبا شحات، "ها.. انت إيه اللي عايزه يا شحات؟"

"عايز أبيع الجاموسة"

"ليه؟"

"هو كده وخلاص. أنا حاعمل كده، وما فيش حد يقدر يدخل بيتى ويقول اعمل ده وما تعملش ده. أعمل اللي أنا عايزه".

رأى أحمد أن إعلان ابن أخته هذا، يخفى وراءه قدرا كبيرا من الإحساس بالفشل، لذا قرر أن يستخدم العقل والمنطق فى الحديث معه، فأحمد، أكثر من أى شخص آخر، يؤمن أنه من الممكن للإنسان أن يحدد مصيره ومستقبله إن شاء ذلك، ألم يفعل هو كذلك؟.

قال بصوت رزين كله تعقل، "انت راجل دلوقتى يا شحات، وعندك أخين صغيرين وأخت لازم تاخد بالك منهم وترعاهم. ازاي تقدر أمك تصرف عليهم وتكسيهم وتاكلهم؟ انت عارف إن فيه ناس يا ما مش بيحبوها عشان مناخيرها المرفوعة لفوق وكلامها الكثير. المفروض انت اللي تاخد بالك من عيلتك، بدل من ابوك أو امك أو حتى أنا".

شاب عيني شحات قليل من الضباب، واستقرت غصة في حلقه. هو عندما يستمع لخاله يتكلم هكذا، يود من صميم قلبه أن يكشف كل مكنونات قلبه ويخبره بكل ما يقلقه ويشغل باله. هو لم يفكر لحظة واحدة أن يبيع الجاموسة، أو أن يقترن بعروس قريية لصبحى والحاج على، كل ما يطلبه ويتمناه هو أن يعامل كإنسان راشد. الآن وهو يستمع لخاله وهو يخاطبه كفرد له احترامه وكيانه، أراد هو أيضا أن يبوح بما يرهقه. لكن من يستطيع أن يضمن بأنه إذا فعل هذا، واستمع له خاله بكل التفهم والتقدير، أن لا يستمر في نفس الموقف الحالي، أى أن يظلا غير متفاهمين؟. لكن على أى حال، طبيعته المشاكسة تغلبت أخيرا، أو قل هم شياطينه الذين كانوا يعربدون في قلبه، أو ربما مرأى أحمد - وهو جالس أمامه، أنيقا، وسيما بارد الأعصاب، مع مظهره الذى يؤكد انطبعا يوحى بنجاحه البالغ فى حياته العملية وسلطته التى لا تنازع - أو ربما كل هذه الاعتبارات، جعلته يكرر القول، "أنا عايز أبيع الجاموسة".

اكتسى وجه أحمد بقدر كبير من الحيرة، وبدأ عليه كشخص موشك أن يفقد أعصابه. مظهره الأول الذى كان عبارة عن تفهم وتعاطف وتعقل، حل بدلا منه تدريجيا نوع من الغضب الجامح وأصبحت ملامحه حادة، متجهمة وراقضة.

قال، "بص يا شحات، الجاموسة لا هى لك ولا لى، أنا خطيت برجلي وسط النار عشان أخصصها لاختك واخواتك. إذا كنت فاكرا انك تقدر تبيعها دلوقتى، يبقى انت مش عارف راسك من رجلك".

كانت هناك الآن فرصة متاحة لشحات لأن يتراجع، لكن أمه ظهرت فجأة على باب الخصر، ثم ما أن رأى وجهها الفخور القلق، أخذ يكرر مجدداً، "أنا لازم ابيع الجاموسة". تراجع أحمد للخلف وعيناه ينطلق منهما الشرر، وأخذ يلفظ كلماته بصعوبة بالغة، "بس باقواك إيه يا شحات، لغاية اللحظة دى، أنا باحترمك كراجل. لكن إن فكرت تمس بصباغ واحد الجاموسة دى ..."

"ما فيش حد فى البلد دى أو اللي حواليتها يقدر يخلينى أغير رأيى!"

وقف أحمد على قدميه دفعة واحدة، "اسكت! أنا دلوقتى أبوك، ما تتكلمش معايا بالشكل ده"، فى غضب جامح خبط بقبضته على الباب وهو يرتعد من الانفعال. رد عليه شحات، "أبويا ميت إيه سنه دلوقتى، ما ليش لا أب ولا أم كمان!"

أحمد وصوته كالرعد وهو يتقدم خطوة إلى الأمام، "أخرس. ينقطع لسانك عشان ما تنطقش بحرف واحد"

تقدم العزب ووقف بينهما، "بس، معلش، المسامح كريم". أزاخه شحات جانباً، وأخذ كل من شحات وخاله يتبادلان الشتائم. أحمد وهو يرتعد من الغضب، انحنى وتناول فردة صندله ورفعها عاليا كأنما ينتوى أن يضرب بها وجه شحات. لم يحدث من قبل، حتى فى أقسى لحظات

الجنون، أن تبادلا مثل تلك الشتائم المقذعة غير المبررة. بالنسبة لكليهما، الأثانية ظهرت فى أجلى صورها، شحات لأنه شعر بأنه إنسان فاشل، وأحمد بسبب كرامته المجروحة وعدم إبداء مظاهر الاحترام الواجبة له. إن البؤس لا يوحد الناس، كما قد يتخيل البعض، لكنه يفرق ويبعد.

أحمد، وهو يجاهد لالتقاط أنفاسه، فقد توازنه وعقله، فهوى بقوة على وجه شحات بالصندل، محدثا صوتا مريعا. بعد لمحة زمن، بدا على وجه أحمد أمارات الذعر، إنه لا يصدق ما فعله بابن أخته، لقد تذكر على الفور كيف أنه، بنفس الطريقة، أفقد زوجته القدرة على السمع. لقد عرضها على أكثر من طبيب بلا فائدة، الآن هو تسبب لشحات فى نفس الأذية. أحس بالإعياء والخدر يسرى فى مفاصله، فارتمى على الكنبه ودفن وجهه فى كفيه، أما العزب فإنه اصطحب أم حامد إلى الخارج.

حمل وجه شحات الآثار الحمراء للضربة التى تلقاها على وجهه. فى ألم أخفض رأسه وهو يحلق فى وجه خاله بنوع من الكراهية الفجة العميقة، لا يوجهها سوى مختبر للأحزان، يرى من كان يحبه ويقدره وقد نزل قدره أمام عينيه مئة درجة.

عندما نطق أخيرا، أتى صوته على شكل عواء حيوانى، "إذا حظيت الجزمة فوق راسى يا خالى، ما اقدرش أنطق بكلمة، لكن إذا حببت أضربك دلوقتى، لا انت ولا عشرة زيك يقدروا يمنعونى!". بالكاد منتبها لما يحدث أمامه كما لو أن كل شىء قد انتهى أمره، رد أحمد بصوت أجوف،

"آيوه.. انت على حق. أنا عمري ما حاخطى حتتكم دى تانى، حاخذ
اختى وسماح والعيلىن لبيتى فى الأقصر، أأكلهم واكسيهم وكل حاجة.
خلاص، كل شىء انتهى بيننا ."

"خد أختك بس. سماح دى أختى، ونوبى واحمد دول اخواتى، دول
مش بتوعك، دول ناسى وأهلى وملزومين منى".

اتجه أحمد إلى أم حامد واخبرها، "إذا كنتى عايزة تيجى لبيتى،
أهلا وسهلا، قومى هاتى هدمك والعيال واجهزى".

صاحت بين نشيجها وبكائها، "مش ممكن يا خويا أسيب بيت
جوزى"

"آيوه، عندك حق يا اختى"

خرج أحمد وهو يجد فى سيره، كأنه يرغب بشدة أن يتركهم جميعا
خلفه. عندما وصل إلى منزله القريب من النيل، أخبر زوجته،
"أنا مش راجع لبيراط دى تانى أبدا"، ثم كرر ذلك ثلاث مرات، "أبدا،
أبدا، أبدا". أفكار أحمد فى تلك اللحظة كانت قاسية، غير عادلة
أو إنسانية، بل إنه فكر أنه لو تحصل على مسدس، فإنه سوف يتوجه
فورا إليهم ويفرغه فى قلب شحات. لقد حكم على أم حامد وشحات
حكما جائرا، وقلبه امتلأ بقدر هائل من الاحتقار والكراهية. لكنه ما أن
هدأ قليلا، حتى رفع عينيه للسما طالبا، "محتاج لمساعدتك يا ربى،

اللهم اخزيك يا شيطان، دا بيوسوس فى صدرى انى أروح اقتل ابن اختى،
يا رب، انت الغفور الرحيم.

عندما هداً تماماً، أخبر زوجته، "أنا.. من دلوقتى، ما ليش دعوة
خالص بيهم، لا بالواد ولا امه، غسلت إيدى منهم".

عندما رجع شحات إلى المنزل، لم يخاطب أمه، بل دخل من فوره
ليستحم، ثم غير جلبابه وجمع حاجاته فى صرة صغيرة، ثم التفت نحو
أخويه قائلاً، "نوبى انت وأحمد، قولوا لأمكم مع السلامة، إحنا نازلين
مصر".

لم تصدق أم حامد أنه جاد فى قصده هذا، لذا تحدثت بسخرية
بالغة، "أيوه يا خويا، سافر وفى ستين ألف سلامة"، ثم استدعت كل ما
تمتلكه من كبرياء وأنفة لتقول، "أخويا قال لى إنى امترك نص اللى معاه،
لكن انا قلت له أبدا ما اسيب بيتى. قلت له، دا مش بيت شحات، دا بيت
جوزى، ومش ممكن أبدا أطلع منه لغاية ما اموت".

زعق فيها شحات، "خدى الأرض كلها كمان، اشبعى بيها، أنا مش
عايزها، ومش راجع هنا تانى". صاحت بصوت متصاعد، "فاكر يعنى
انك لو مشيت، ما حدش حياخد باله من الأرض؟" ثم انطلقت فى ضحك
هستيرى، عيناها لامعتان بالغضب، ثم وهى تجمع كل إرادتها، هزت
أصبعها فى وجهه "إذا لقيتنى مرمية على شريط السكة الحديد ومقطعة

حتت، ابقى ولا تاخذ بالك منى، لكن أخويا أحمد، ربنا يخليه، لو شافنى حتى مكشرة، ييجى طوالى ويطبطب على".

دفعها شحات جانبا، "إذا البيت ده كله سقط فوق راسك، مش حارفع صباع!". ثم أدار ظهره وأسرع فى طريقه يلحقه الصبيان، وكان هذان حافيين يرتديان جلابيب قطنية قدرة اعتادا على لبسها. ما أن أدركت الأم أنهم بالفعل راحلان مع أخيهما الأكبر، حتى طاردتهم وهى تلهث، وتقريبا كادت أن تنكفى على الأرض، وطرحتها هبطت على كتفها، وشعرها تطاير فى الهواء، "انت ما تلزمنيش يا شحات"، هذا ما صرخت به وهى تجرى وراءه، مما أدى إلى أن يفتح الجيران نوافذهم ووقفوا على الأبواب، "روح، روح، خاب أملى فيك؛ إياك تدخل بيتى تانى". فجأة توقفت فى مكانها وهى تنتحب وتنشج، ثم استدعت أصعب قول يمكن أن يؤثر فيه، فقالت، "خالك أحسن منك ألف مرة".

هذه هى آخر الكلمات التى نطقت بها أمه وسمعوها شحات. لم تتوقع هى تأثير هذه الكلمات عليه، لكن فى حالة الرفض والإنكار الجامح هذه، سوف يتذكر هو بشكل دائم تلك الصرخة طوال حياته - لقد أطلقته حرا.

تركت أم حامد وحيدة، رجعت إلى فرشتها، سقطت عليها وأخذت تنتحب وقد دفنت وجهها فى وسادة. لساعات طوال ظلت فى رقدتها تلك

مرتديه ملابسها تحملق فى السقف، وتطلب من سماح أن تتخلص من فضول الجيران. شعرت كأن الغرفة والجدران والسقف جميعا قد قدت من كتلة مصمتة من الحديد، وأنها إذا استطاعت أن تزيل هذا الحديد، فسوف تتحسن الأمور ويصفو لها الحال. ثم تذكرت أن لا حديد هناك، ليس من شىء سوى رحيل شحات ومعه ولداها الصغيران. امتد الزمن ليصبح هو الأبدية، سمعت صوت عمرو يؤذن لصلاة المغرب، بين الحين والآخر، تسمع أصواتا تتحدث فى الطابق الأرضى. تحولت أفكارها نحو نوبى وأحمد، سماع قرار المحكمة فى موضوع الوصاية سوف يكون فى الغد. هوذا شحات ينتقم منها وذلك بمنعها من حضور جلسة المحكمة. ما الذى سيفعله القاضى إذا لم يكن الصبيان حاضرين؟. هى فى قمة انزعاجها وحزنها، وهذا الفكر مستقر فى ذهنها، أسرعته بالهبوط إلى الدور الأرضى وهى تبدو غير مهنمة أو جذابة كعادتها، بل وجهها متورم وملابسها مكرمشة.

التفت بملاءتها السوداء، وجعلت سماح تسرج لها الحمار، غادرت المنزل وهى تحت الحمار على الإسراع فى اتجاه النيل. أحمد لم يكن متواجدا فى منزله وزوجته لم تشاهد سوى شحات والولدين. وهى ذاهلة عما حولها، تركت الحمار هناك وركبت المعديّة لتعبر النيل، ثم استأجرت عربية حنطور نقلتها حتى محطة السكة الحديد. لقد شوهدها هناك يشترون التذاكر وأخذوا فعلا قطار المساء متجهين إلى القاهرة.

لقد نفذ ما انتوى أن يفعله، لذا رجعت إلى منزلها واليأس الكامل مسيطر عليها.

لم تكن فى حاجة أن تقلق بخصوص القضية، فالقاضى عندما لم يجد شحات أمامه ليناقض طلباتها، بل وأثبت بذلك عدم قدرته على تحمل المسؤولية عندما استبعد الولدين، منح للأم حق حضانة ابنيهما الصغار، كان أحمد قد ذهب معها لحضور الجلسة. شعرت بعد ذلك بالذنب يأخذ بمجامعها، هى كانت على يقين كامل أن شحات لن يطالب حتى بنصيبه الشرعى فى الأرض، إنه جاحد معها، لكنه هو فى الواقع مشابه لها تماما، لديه نفس الشموخ والكبرياء الجامح.

مر أسبوع بأكمله، كلما حضر أحد من القاهرة، تأتى إليه أم حامد وتسأله عما إذا كان قد رأى شحات والولدين. كانت خائفة أن تسافر إلى القاهرة بمفردها، كيف يمكن أن تعثر عليهم فى مدينة يقطنها ثمانية ملايين من البشر؟ عندما لم يدلها أحد على شىء، بدأ قلبها يتقسى بالأكثر على شحات. إنها لن تغفر له أبدا عملته تلك، قالت لسماح، "شحات ده عمره ما حاخليه يخطى بيتنا تانى طول ما انا عايشة!".

إذا أى إنسان سأل عنه، تجيب هى بكل مرارة، "شحات مات، يا رب يموت". بعد تسعة أيام من الخناقة، وهى تصنع الجبن، حضرت إحدى الجارات مسرعة ووقفت على الباب لتخبرها أن نوبى وأحمد قادمان الآن فى الطريق. لم تصدق أم حامد ذلك، وهى فى ذهول كامل،

قفزت واقفة، ودلقت اللبن على الأرض، ثم اندفعت خارجة . استدار الصبيان ليدخلا الحارة، ما أن رأتهما، حتى غمرتها سيول من الراحة والفرح، فهجمت عليهما وأخذت تضمهما إلى صدرها وتقبلهما وهى تبكى بحرقة. ثم أخذت تتأمل فيهما، إنها متعبان ورفيعا العود ولا يزالان بملابسهما التى سافرا بها وقد أصبحت أكثر تمزقا وقذارة. لذا ارتفعت درجات غضبها وبعنف بدأت فى استجوابهما. قالوا إن شحات ضغط عليهما لكى يرجعا، أما هما فقد كانا غير راغبين فى تركه، لكن كان هناك عجز فى نقوده، وهو فى القاهرة، استلف جنيهين، ثم اصطحبهما إلى محطة باب الحديد وتركهما فى رعاية جندى من القرنة كان عائدا إلى موطنه وأعطاه الجنيهين . لكن عندما حضر كمسرى القطار، جعلهما هذا الجندى يختبئان تحت المقاعد محتفظا بالنقود لنفسه ولم يستغن حتى عن قرش واحد، لذا سافر الولدان بدون طعام. ما أن وصلا إلى الأقصر، حتى اضطرا أن يستعطيا أربعة قروش من رجل من القرية وجدوه فى السوق لكى يدفعوا حق ركوبهما المعدية. أما عندما كانا فى القاهرة، فقد استقر بهما المقام فى غرفة صغيرة لأحد أقارب عبد الباسط، وهو جرسون فى قهوة. كان يقدم لهما طعاما فى الصباح والمساء فقط، بينما يختفى شحات طوال النهار باحثا عن عمل، لكنه لم يعثر على شىء. نوبى مرض؛ قال إنه أصيب بالإسهال وتقيأ فى القطار.

تدفقت الدموع على خد أم حامد، وما أن انتهيا من رواية قصتهما، حتى ركعت على ركبتيهما وأخذت في الانتحاب بمرارة كأنما هي في جنازة، صاحت، "تعالى يا عبد الباسط، تعالى شوف نوبى وأحمد، تعالى يا راجلى وشوف شحات عمل معانا إيه!". حضرت إليها كل من سعاد وبطة، لكنها لم تهدأ أبدا، أخذت وهي ترتعش تقول، "أعمل ايه بس يا ربى، ولا حاجة. أعمل يا رب كل اللي يرضيك". بعنف مفاجئ، أمسكت بطرحتها وأخذت في تمزيقها إربا وألقت بها جانبا، ثم رفعت وجهها الباكي نحو المساء، ثم بصوت مرعب أصاب من التفوا حولها بقشعريرة، "يا رب، إذا كنت أنا شريرة، عاقبنى وخط على! لكن إذا كان هو الغلطان، احرقه فى نار جهنم".

عن راكبي الخيول العربية .. وإرادة الله

فى الثامن من شهر أغسطس، وهو يوم جمعة، عاد شحات فى وقت الاحتفال بمولد سيدى أبو الحجاج، الذى سيبدأ اليوم. ما أن خطا على رصيف المحطة وخرج إلى الشارع، شاهد فى نهايته بقرب النيل، رجالا فوق السلالم الخشبية يعلقون الزينات والمبات الكهربائية المعلقة فى حبل طويل، يزينون به المسجد وضريح الولى اللذين يقعان فى حضان الجدران الجرانيتية لمعبد الأقصر الشامخ. كان شحات يسير وشمس ما بعد الظهيرة تصب أشعتها على وجهه وتتسلل خلال الأرجاء المفتوحة بين قمم الأشجار والمنارات وأعمدة المعبد الجبارة. مقام أبى الحجاج يقع داخل نطاق ساحة من ساحات بناء ضخمة شيدته رمسيس الثانى، كان هو أيضا مغطى بأشعة الشمس التى تلمع كأنها الجواهر. خلف المعبد يقع نهر النيل ومرسى المعدة التى سوف تقله إلى البر الغربى. فى الأحوال العادية، كان يجب عليه أن يسارع هو نحوها، لكن الآن ليس فى ذهنه فكر محدد، لذا توقف فى مكانه يستجلى ذلك المنظر المبهر لفترة طويلة.

يستمر الاحتفال بالمولد عشرة أيام. كل ليلة تجذب إليه عشرات الألوف من الفلاحين المقيمين بالقرى المحيطة بالأقصر، وسوف يحجون إلى مقامه احتفالاً بمولده ووفاته أيضا. كل ليلة، سوف يتجمع ألوف

من البشر - بينما صوت المنشدين العميق الخشن يترنم بالأنكار والشعر والمديح، ويتم تضخيم أصواتهم إلى حد بالغ الإزعاج يؤدي إلى الصمم بواسطة ميكروفونات مثبتة في كل مكان - تجدهم وهم يتراقصون في وجد ديني عميق، يتمايلون ويتطوحون في مكانهم ويديرون أجسامهم هنا وهناك لساعات وساعات بعنف بالغ، وينتشر في الجو زغاريد النسوة الزاعقة الطويلة مع أصوات المنشدين المتسارع الصاخب.

الباعة يتجولون وهم يزعمون، "حصوة في عين الله ما يصلى على النبي!"، ثم يسير موكب هائل من الدراويش، يدورون بعنف يلوحون بعصا طويلة فوقها مصابيح متألئة. خارج جدران المعبد، في ساحة متسعة، يتجمع مجموعات ضخمة من المسكين بالمزمار، الناي والصنج؛ وأمامهم الحواة، البهلوانات، المشعوزين، الراقصات، الأراجوزات والمصارعون، وعلى بساط الحشائش تتجمع المراجيح والدورات والزحاليق وكل ما يبهج الأولاد. هناك أيضا مئات من النصبات يباع فيها كل أنواع الحلويات، المشروبات واللعب. ثم تجد مئات من القرويين يحملون عصيهم يدورون في حلقات متتابعة، أو يلتفون حول أنفسهم والسكاكين الحامية بين أسنانهم وأخرى مغروسة ومخرقة خدودهم. كل

واحد يحيى الآخر، حتى من يعرفه معرفة بسيطة، كأنما هو صديقه الحميم. ويستهلك قدر هائل من الخمر، البيرة والحشيش. بعد منتصف الليل، يمكن لك أن تعثر على عدد من النسوة المتشحات بالسواد واقفات تحت ظلال الأشجار يعرضن تقديم خدماتهن لقاء أجر معلوم.

مع تدفق الجماهير الهائل، دوى موسيقات الفرق المختلفة التى تلعب كلها فى نفس الوقت، أصوات الباعة الجائلين العالية، الصيحات الباكية، الأصوات الصادرة من العارضين، قرع الطبول، الصوت الثاقب للنايات، الصوت المزعج للدقوف والصنج، الضحك، الصراخ، وفوق الجميع الصلوات التى تم تكبيرها عشرات المرات بواسطة الميكروفونات، تكتمل بذلك صورة عش المجانين هذا.

فى وقت النهار، تتضاعف أعداد تلك المواكب، ترى الجمال المزخرفة بالزينات، العربات المكسوة بالورود وهى تحمل أطفالا بالعشرات، جماعات من الحجيج حفاة الأقدام يلوحون بالأغصان وهم يستمعون للأنشيد الدينية، و، كما كان يحدث أيام الفراغة، ترى فلوكة كاملة العدة تحمل على العربات التى تجرها الحمير تسير متمهلة فى شوارع المدينة.

لكن كل هذا لا يقارن بما يحدث فى الليلة الختامية للمولد، وهو
يحل فى اليوم العشرين من شهر أغسطس. فيه يحضر عدد من البدو
المتطين الجياد العربية الأصيلة، وقد حضروا بها من بطن الصحراء
العربية، يلوحون بعصيتهم فوق رؤوسهم، يصيحون صيحات ثاقبة،
يروحون ويرجعون وهم فوق ظهور جيادهم بسرعة بالغة وبراعة منقطعة
النظير خلال ممر ضيق، يحيط به الجمهور من كل جانب. كل المظاهر
السابقة يمكن لشحات أن يتجاهلها، إلا مظاهرة هؤلاء المتطين الجياد،
فهى تشعل فيه روحه البدوية حتى الصميم.

هذه الليلة وليال لاحقة عليها، بات شحات فى بيت صديقه العزب.
إنه لا يخرج أبدا أثناء النهار بحره المزعج، لكن عندما تنتشر نسمات
باردة فى المساء مصدرها الصحراء الغربية، يتسلق هو الهضاب ويسير
مبتعدا بقدر الإمكان عن الوادى ويستمر فى سيره لساعات طوال. فى
يوم العشرين من الشهر، اكتمل القمر واقترب شكله من الأرض، وأخذ
يرسل ضياءه فينير الهضاب والصحراء بضوء خافت محبب. عندما
سأله العزب لماذا يسير فى الدروب الصحراوية ليلا، علما بأن هذا
الصديق يخشى تماما تقليده فى ذلك، أجاب شحات بأنه يفعل ذلك لكى
يصلى منفردا. ثم وضع الأمر بقوله، "الناس الثانية يصلوا عشان ربنا

يرزقهم بمحصول كويس، بفلوس، جوازة حلوة. لكن انا بأطلب منه حاجة واحدة بس. هي انى أموت".

فى إحدى المرات وهو يسير فى الطريق الموازى للترعة، رآته أم حامد، فأشاحت بوجهها وتابعت سيرها. منذ اللحظة الأولى التى خطا فيها من القطار، علمت هى أنه قد عاد، لكنها كانت ما زالت فى حالة من عدم الاتزان؛ فى لحظة تبدأ فى شتم شحات، وفى التالية تبكى وتلوم العناية الإلهية، ثم فى ثالثة تؤنب نفسها قائلة، "أنا غضبت على ولدى، ربنا بيعاقبنى، وأهى الزرعة بتموت، نفسى أشتكيك يا رب!". فأخبرتها سماح بانفعال بأنه يجب أن تتقبل حكم الله طالما أنه صادر من لدنه.

كثيرا ما كانت تعلن، "هو أحمد اخويا، ما فيش غيره، حتى ولو انه ما خطاش بيتى من يوم ما شحات سافر، وما سألش فى. بس برضه، هو أحسن من أى حد وعمره ما يمكن ينسانى أو ما يسألش عنى". اعترفت لسماح بأنها تلوم نفسها كثيرا بسبب حبها للثرثرة والكلام الكثير، وقالت، "شحات ده زى ابوه تمام، ما يحبش الكلام والרט الكثير"، ثم ذهبت بعيدا وتمنت لو أن شحات مد يده عليها كما كان عبد الباسط يفعل أحيانا، ثم تذكرت كيف أن ابنها أنقذها مرة عندما تهجم عليها زوجها، فى نوبة غضب، وكاد أن يفصل رأسها من جسدها ببلطة.

اشتياقها لشحات عميق للغاية، لما كان شحات يشتغل فى الغيط
يا سماح، كنت انا مرتاحة ومبسوطة. دلوقتى انا تعبانة والهـم راكبنى.
أعمل ايه بس يا ربى؟ اشتريت ست شـواتل نـتروكيـما عشان زرعة
القصـب، لكن دلوقتى فاروق بيقول انه لسه عايزين شـوالين كمان. لو كان
شحات لسه هنا، كنا اتشاورنا فى الموضوع ونشوف إيه الصالح".

فى الحال، يطرأ على ذهنها فكرة أن صبحى والحاج على ربحا
سحرا لشحات، لذا قالت لسماح، "هـما بيفكروا انه لو بعد عنى ،
حاكون تحت رحمتهم". هذا التفسير أسعدها لأنها بذلك استطاعت أن
تلقى باللوم على جهة أخرى، وكانت هى قد استشارت الشـيخة داية التى
أكدت لها أن شحات واقع تحت تأثير عمل شرير، لذا ملأت الشـيخة
طاجنا صغيرا بالماء، وغطته بقطعة قماش، وأخذت تلففه وهى تهـمس
ببعض من أدعيتها، ثم أزاحت الغطاء، ويا للعجب، الماء اختفى. بدلا منه
وجدت خيوطا قطنية قالت إنها منتزعة من جلباب شحات، ومعها وجدت
أيضا حجابا وبعضا من جذور النباتات والأعشاب. طبقا لتوجيهاتها،
أخذت أم حامد كل هذه المصائب وأحرقتها فى منزلها. لكن للمرة الأولى،
تخيب مجهودات الشـيخة داية.

وهى حانقة وممرورة بسبب انقضاء عدة أيام بعد ذلك، ولم يحضر
أحمد لزيارتها، أخيرا تلفعت ملايتها وذهبـت لتزوره فى منزله الذى يقع
بقرب النيل. لكنه لم يقابلها بالود المعتاد، بل وأخذ يعنفها بحدة بالغة،

"إذا أى حاجة وحشة حصلت يا مرة، يبقى انتى السبب! ازاي اقدر ارفع راسى قدام الناس وابن اختى واد بايظ ؟ لكن انتى برضك السبب. أنا حادور على بلد تانية أروح اسكن فيها أنا وعيالى بعيد عنك!".

فى تلك اللحظة فقط، أدركت أم حامد أنها فى حاجة ملحة لتواجد شحات بقربها، أخذت تتنهد وهى تفضفض لسماح التى عينتها كاتمة لأسرارها وصديقة، "إذا أى واحد اتكلم كلمة بطالة تمسنى، شحات ممكن يقتله قتل. دا دايمًا كان يدينى فلوسه أحفظهاله، وكان يوافق على كل كلمة أنطق بيها، يا سلام يا ربى، بس هو إيه العمل السوالى عملته فى حياتى؟"

لم يكن الابن والأم فقط فى حاجة لأن يتلاقيا، لكن كل القرية أيضا كانت مهتمة بهذا الموضوع. كثير منهم قصد شحات لكى يعقله ويعيده لمنزله، منهم فاروق، شلتوت، العجوز يوسف، وأصدقائه عبد الرحمن، التعبان، العزب والقط، ولدهشة شحات البالغة، أتى إليه أيضا الحاج عبد المطلب ليقول، "إذا خالك شافك وانت بتشتغل فى الغيط، وحاك انصلح، طوالى حيتكسف على روحه، وبكده تنقطع كل الألسنة اللى بتكلم كلام بطل فى حقك".

صباح يوم، حضر شحات إلى الحقل وخاطب فاروق بشأن نقص المياه التى تروى حقل القصب. فى ظهر نفس اليوم، عندما حضرت سماح لتحش بعض الحشيش للبهائم، وجدته وهو بينى سورا من الطين كان قد تهدم فى جدار الجنية، فاندفعت جريا لتخبر أمها.

أخيرا استسلم شحات ورضى أن يذهب لزيارة والدته برفقة العزب. أثناء سيرهما فى شوارع القرية، أصيب بحالة فجائية من التوتر والشجن، لكن صديقه منعه بالقوة من أن يستدير عائدا. كانت هناك عاصفة تهب من الصحراء الغربية، والآن تعلق ضباب أبيض من الغبار على جدران المعبد والمنازل والأماكن الخالية من الأشجار، وخلت شوارع القرية من المارين. عندما شاهد شحات الأشجار وهى ملتحفة بالغبار الثائر، وقهوة شلتوت المسنكرة والصحراء الخالية من خلفه، بدا له كأن القرية كلها فى حالة من الموت والخواء، كما لو كان هذا المنظر فصل من فصول أحلامه، كأنما هى الحطام الساكن للمعبد الفرعونى.

عندما كان يقف فوق الهضاب التى تعلو القرية، يبدو العالم أمامه عظيما وغامضا، ويرى نفسه أقوى وأكبر من أى إنسان آخر. الآن وهو سائر إلى بيته، بدا له كأنه ينحدر من الهضاب غير المحددة للحياة.

ما أن وصلا إلى المنزل، حتى لاحظ أن كل شئ الآن فى نظره يبدو صغيرا ضئيلا عن الصورة التى انطبعت فى ذهنه، حتى أم حامد المنتظرة فى الفسحة الداخلية، بدت منكشمة وأكبر من سنّها، كتفاها منحنيّتان إلى الأمام بطريقة لم يعهدا من قبل. كانت تتوقع هى أن يتقدم نحوها ويقبل رأسها طالبا السماح والمغفرة، كان هو يتوقع أن تتدفع نحوه والدموع تسح من عينيها وتحتضنه بشوق ولهفة، لكن هذا لم يحدث أبدا، كلاهما لم يفعل ما هو متوقع.

أم حامد لها حضور طاع، فبخلاف أصابعها المرتعدة، بدت في مظهرها أكثر برودا وقسوة. حيث العزب بكل ترحاب قائلة، "حمدلله على سلامتك يا عزب!"، وتجاهلت تماما تواجد شحات. وعندما قدمت بعض الحلوى للعزب، أخذ هذا يمزح، "متشكرين، بس انا حآخذ اتنين"، ثم صدرت منه ضحكة قصيرة. كان العشاء معدا على طبلية على السطوح، أربعة حمامات محشية بالفريك، فطيرة كبيرة يحبها شحات مصنوعة من الدقيق، البصل، شوربة الفراخ. أكل العزب بشهية مفتوحة وهو يصدر أصواتا غريبة من فمه. أما شحات، فإنه لم يتناول شيئا، لكنه جلس صامتا كأنه تمثال يستمع إلى حواريت أمه.

تحدثت أم حامد بلا توقف في شتى الأمور، وأخذت تثرثر بكل ما أوتيت من حيوية وطاقة. عائلتها جميعا بخير، ولله الشكر والحمد! - لكن مياه الري غير كافية في أرض سنباط. عبد الرحمن اشترى أرضا وليس تاكسيا كما كان ينتوى أولا. زوجة شلتوت، زينب وكذلك امرأة صبحى ولدت كل واحدة منهما ولدا ذكرا، لكن هي الآن لا تتذكر الأسماء التي أطلقاها على كل واحد منهما. قاطعها العزب مازحا، "لازم سموهم ناكر ونكير"، فضحكت أم حامد جزلا. كانت تجلس على الأرض وحولها ثلاثة من أحفادها الصغار يجلسون أحيانا على حجرها، أو يشدون شعرها وذراعها، راسمين بذلك صورة رائعة للأمم السعودية. حينما أحضرت سماح الشاي، ولم يلمس شحات كوبه، تبرع العزب وشرب الكوبين

وهو يتصيب عرقا، ثم استمرت أم حامد فى الرغى: فاتح ونعمات تطلقا، لكن نعمات لن تستطيع الزواج الآن لأنها تحمل طفل فاتح، سنية أيضا حامل للمرة الثانية، وسوف تغادر القرية قريبا لتلحق بزوجها الذى يعمل فى أسوان. بطة سوف تتزوج من الشاب الجمسى بعد يومين، ثم بصوت هامس قالت إن "على"، وهو الشاب الذى رفضت أن تقترن به، هرب من الجيش وحضر إلى الأقصر، وإنه قد حلف بأنه سوف ينتقم لشرف العائلة، بالتاكيد سوف تحدث معارك دموية تلحق بكل من الطرفين. بطة بنت مش كويسة، لا تختشى أبدا وماشية على حل شعرها. الحاج عبد المطلب وسالم يتعاركان مرة أخرى، لكن هذه المرة بسبب إيجار بعض الأراضى، واليوم بالذات ذهب الحاج ليتقابل مع مأمور القسم. يوسف العجوز هو الذى قال ذلك، لكن إذا أى إنسان صدق هذا الثرثار....

استمرت أم حامد فى سلسلة من الحكايات لا تنتهى، وصوتها يتناسب مع كل حدث ترويها، الآن هى همسة مصدوم، صيحة معترض، ضحكة ساخر، حكم جازم، تتحدث بطلاقة، لكن مثبتة نظرة قلقة تجاه شحات، بينما هو يحملق ساكنا على قمم المساكن وأعواد النخيل، لكنه من جانب آخر كان يستمع إليها، متفكرا فى ذهنه كيف أن الحياة فى قريته هذه ليست سوى نوع من الكوميديا التى لا تنتهى. يوما ما كان يشاركها البهجة بما تنطق به، أما الآن فإن حكاياتها تملأ قلبه بحزن لا مثيل له.

فى الخارج، أخبر العزب، "لما دخلت بيتى ده، حسيت كأنه طابق على صدرى. ما كنتش قادر ألقط نفسى، حسيت انى حاتخنق، كأن فيه شيطان إسود ماسك زمارة رقبتى". إنه لم يتبادل أى كلمة مع أمه، ولا حتى لمحة، أضاف ، "أنا راجل مش عيل صغير، ممكن أعرف مكانى كويس. فى ظرف يوم أو يومين، حاروح للجهات الحكومية واطلب الأوراق اللازمة، وبأسرع وقت يمكن أروح السويس". صوته كان ينقصه الاقتناع، "أبويا كان بيديلها فلوس كتير من القمار، لكن انا ما اقدرش أعمل زيه. أنا مش أبويا".

عندما أخبرها العزب فى اليوم التالى أن شحات ينوى أن يغادر القرية مرة أخرى، قررت أم حامد أن تعمل واجب سنوية عبد الباسط بعد خمسة أيام من انتهاء مولد سيدى أبو الحجاج. كانت تعلم يقينا أن شحات عندما يعلم، سوف يضطر للبقاء حتى يحضر هذه المناسبة؛ فمن مهام الابن الأكبر الإشراف على خدمة المشايخ الذين سوف يحضرون للإنشاد. قالت أيضا إنها سوف تستقدم مائتين من المشايخ من القرى المجاورة، واعدة نفسها أن هذه المناسبة ستكون آخر مظهر من مظاهر إسرافها، بل وفى استطاعتها أن تذبح شاتين بدلا من واحدة. بدون تفكير، أسرع للحاج عبد المطلب واستدانت منه خمسين جنيها. هى مماثلة لعبد الباسط من قبلها، عندما تواجه بالكوارث، عليها أن تظهر للجميع، بما فيهم ابنها، أنها ترفض رفضا باتا أن تخسره أو تفقده.

الساعة الثالثة بعد الظهر، القرية مستغرقة فى نوم القيلولة وساكنة؛ كأنما الحياة قد انمحت منها، شحات كان منهمكا فى إصلاح الحائط المتهدم. لقد ثبت أن أم حامد كانت على صواب. ما أن أخبره العزب بالوقت الذى حددته لتحفل بسنوية المرحوم، أدرك فوراً أن الواجب يحتم عليه أن يظل فى القرية، على الأقل كنوع من الاحترام لذكرى والده، وهو منهمك فى عمله، مرت عليه امرأة ملتحفة بالسواد، لم تكن سوى بطة التى كانت تطرق باباً بعد الآخر تدعو الجميع لحضور حفل زفافها. شحات احترام شجاعته، دع القرية تسلقها بالسنتها، لكن هى لن تفوت فرصة لحاقها بالسعادة أن تتسرب من بين يديها، كما حدث معه هو.

استمر فى عمله لبضع دقائق قبل أن تمزق صرخات مجنونة سكوت القرية، صرخات لم يستمع شحات لمثلها من قبل. جرى حافى القدمين عبر الحقول فى اتجاه الصرخات. بعض الصبية والبنات الذين كانوا يلعبون فى الشارع بدأوا فى البكاء والعياط. امرأة عجوز اندفعت نحو شحات وهى تنذب وتخبط خديها بيديها. الأبواب والنوافذ فتحت على مصراعيها وأخذ الرجال فى المنازل القريبة فى الجرى. مئات من أسراب الحمام، أثارها هذا الهرج المفاجئ، فنهضت من فوق جدران المعبد وأخذت تطير عالياً فى دوائر متلاحقة. جمهرة من الناس كانت متجمعة فى إحدى أطراف القرية، دفع شحات طريقه وسطهم، ثم وقف ساكناً فى مكانه. بعض من المتجمعين خلفه هربوا من المنظر

الذى أمامهم مقشعرين جزعين وهم يهزون رؤوسهم، ثم بدأوا فى فتح أفواههم لينطقوا بشيء ما، لكنهم صمتوا كالآخرين. حل هدوء قاتل ولم ينطق أحد بحرف.

على بعد مسافة صغيرة أمامهم على الطريق، رقدت بطة وهى تئن وتتوجع. ملابسها مرفوعة إلى فوق بحيث بان جسدها الأبيض لامعا تحت شمس الظهيرة الباهر. طرحتها بجوارها ممزقة، شعرها الطويل الأسود ملتف حول طوب الأرض. كانت الشمس ترسل أقسى ما عندها من أشعة، لدرجة أن كل التفاصيل كانت واضحة للعيان. فوقها انحنى شاب بملابس الجندية، تعرف عليه شحات فورا، هو ليس سوى "على" ابن حسن. كان يحمل فى يده مسدسا يهدد بأنه سوف يقتل أول من يفكر الاقتراب منه. كان هناك دم يلطخ يده. عندما رأى شحات الدماء تلوث ما بين سيقان بطة، علم ما الذى حدث. فى القرية، يتم فض بكارة العروس برقة، باستخدام إصبعين فى ليلة زفافها، بحضور أمها لكى تمسك بها وتهدئ من روعها وهى تتألم. بعد ذلك تستعرض الأم قطعة قماش ملوثة بالدماء للنسوة الحاضرات كدليل على استمرار عذرية ابنتها. لقد انتقم هذا الجندي لشرف عائلته شر انتقام. فبطة الآن لن تذهب للجسمية وهى عذراء.

لم يتحرك أحد حتى قام هذا الشاب واستدار وأخذ يجرى فى اتجاه جدران المعبد، ثم اختفى فى حنايا الصحراء. ما زال الجميع

واقفين مذهولين، أخيرا اخترق صفوفهم كل من أم حامد، سعاد وبهية ونسوة أخريات وأحطن بالفتاة التعيسة الصامته، يخفين عريها بملابسهن السوداء الطويلة. بعض من النسوة انكفأن على جانب من الطريق وأخذن فى البكاء والعويل، كما لو أن إحداهن قد ماتت، بعد ذلك حملن بطة إلى منزل أمها.

أخذ شحات ينصت لتعليقات الناس الذين حوله، وتحقق وهو مندهش أن التعاطف كله كان إلى جانب الجندي وليس بطة. وفكر، إذا كان قد تزوج من سنية، فربما كانوا قد قتلوه. توقف عن الإنصات، وأخذ يستجلى وجه السماء. فى العلا، أخذت أسراب الحمام تطير فى دوائر متتابعة وهى تطلق همهمات حزينة. بدأ الناس فى التفرق، بينما شحات يجاهد فى التقاط أنفاسه. لقد تفجرت داخله رغبة قوية فى أن يغادر بعيدا عن هذه القرية.

بسرعة تسلق الممر الضيق المؤدى إلى الهضاب الغربية، ولم يتوقف إلا عندما وصل إلى قمة هضبة عالية مطلة على الوادى. هناك ارتمى على بعض الصخور البارزة مبعدا وجهه عن منظر القرية، ومحملا فى اتجاه تلك الصحراء الخاوية. كل عضلاته كانت تتوجع والعرق يتسابق ليقترحم عينيه. أخذ يلتقط أنفاسه بجهد عظيم محاولا ملء رئتيه من الهواء البارد النقى. كل ما حوله ليس سوى السماء ذات الزرقة العميقة فوق غبش الصحراء والودى المترب المفبر. ضم ذراعيه بقوة حول

صدره، كما لو كان يتقى بهما بردا ألم به فى الداخل، وأخذ يعصر بدنه عصرا، كأنما هو شحات فعلى يطاردونه فى الشوارع، مكسورا ضعيفا، أو أنه حيوان تلقى علة ساخنة وفى انتظار أن تلحقه ضربات أخرى. رقد فى مكانه هذا بلا حراك فترة طويلة، بدا كأنه إنسان فقد فى الفراغ اللانهائى، وهو الآن مجمد وفى وضع يائس.

مر الوقت. الشمس الآن فى طريقها للغروب، ثم غربت فعلا وسط هالة من الضباب القرمزى على حافة الصحراء. الهواء أصبح ساقعا، يود أن يخبره بالحدود الضيقة التى يمكن للإنسان أن يمارس فيها حرته. انتفض من رقدته واقفا مدركا أنه مضطر اضطرارا أن يعود للوادي، فقط لى يحس بالدفع.

مرة بعد أخرى، أخذ يسائل نفسه، "أنا حاعمل إيه؟" كأي إنسان تجمد وانحشر فى حالة من الانقباض الخالص، عجز أن يبتعد بأفكاره ليرسم لنفسه مستقبلا. قال إنه سوف يسافر إلى السويس أو إحدى البلاد العربية، لكن داخل قلبه الفلاحى، شعر أن مجرد مغادرته قريته هذه، هو الموت بعينه. أخذ يحملق فى الصحراء، حيث لا يمتد إلى نهاية الأفق شىء سوى الرمال والهضاب. لقد تمنى أن يفقد نفسه وذاته إلى الأبد فى ذلك الفراغ الساكن الهادئ، تلك الهضاب الصخرية، سوف تبعد عنه العالم كله وتحميه فى فراغ لا حدود له، فكر، "حياة البدوى هى أجمل حياة، دائما متمتعا بحريته، لكن ما أن يعيش الإنسان فى قرية،

فإنه فوراً يصبح فلاحاً للأرض، ولن يصادف في حياته إلا المتاعب والمصاعب. اثنان أو ثلاثة من البدو يتعايشون مع بعض ويراعون ويحبون بعضهم بعضاً، فيه كل الكفاية.

بشكل غامض أخذ يتصور نفسه، رجلاً، ذرة تافهة، يختفى وينوب في الخواء الذي لا يشغله أحد، هناك ستكون الصخور والرمال هي أصدقائه وزملائه، لكنه حينذاك لن يخشى الفراغ أو الصدى الذي ينبثق من خطو يخطوه، لقد ود من صميم قلبه أن يهرب إلى حياة حرة لم يعيشها من قبل. ربما كان قد سمع بعض الأشياء عن حياة البدو منذ زمن بعيد، ربما أيضاً أن يكون قد ورث تلك الرؤى الحياتية الحرة وتغلغل في دمائه وبشرته التي ورثها من أجداده البدو. ظل لفترة طويلة مثبتاً نظره يستجلى الصحراء الشاسعة إلى الأسفل.

أصبح الجو أكثر برودة، تسلق إلى هضبة أعلى وأخذ ينظر إلى الوادئ في الأسفل. من ثانيا الضوء الخابى وهو يستعرض المنازل والأشجار، الوادئ المنبسط الأخضر بنهره المتسع الملتوى، بقايا المعابد الفرعونية، التربة والطريق المجاور لها، كانت جميعاً تتلاشى تدريجياً، يرى الناس وهم يتحركون كأنهم دُمى صغيرة تتحرك ببطء. يمكن له الآن أيضاً أن يشاهد على بعد ميل في اتجاه الجنوب الطريق المستوى الذي يؤدي إلى وادئ الملكات، والتمثالين الضخمين المهشمين لمنون، الرامسيوم على اليسار، ثم الوادئ الضيق الذي يؤدي إلى معبد

حتشبسوت الذى يتلوى فوقه تلك الهضاب التى تؤدى إلى وادى الملوك.
كل هذه المعالم عرفها وخبرها فى طفولته. ربما يخبرنا الحجر والنقوش
الهيروغليفية عن الحروب، المذابح، لكن المأسى والدماء قد انقضت منذ
زمن موغل فى القدم، الآن هى ليست سوى رسوم حائطية وحطام وبقايا
لها نفس هدوء الصحراء.

حل الظلام، لكن نحو الشمال، فى اتجاه ثنية من النيل، شاهد ثلاثة
أشعة لفلوكة تسبح فى الماء. بالنسبة لشحات، النيل هو بحر النيل،
مانح الحياة. فى هذا الشهر بالذات كان يفيض ويغطى جانبيه، أما الآن،
ومنذ خمسة عشر عاما، حجز السد العالى تلك المياه، لذا لن يفيض
النهر مرة أخرى. تعجب وتفكر شحات عما سيكون شكل حياته إذا لم
يتم ترويض النيل، بالطبع سوف يكون أكثر فقرا، لكنه سيكون حينذاك
فى حوض الرتم القديم الطبيعى المألوف. هذا السد هو الذى خلق
لفلاحى الصعيد ذلك العمل المستمر طوال العام فى الأرض حتى فى أيام
الصيف الذى لا يطاق. هو السبب فى انتشار ظلمبات الديزل، الخناقات
المستمرة عند تحميل القصب إلى المصنع، اللمعين، الفاروقيين وأمثال
الحاج عبد المطلب، هو الذى غذى إسراف أمه وتطلعاتها الجامحة.

بالنسبة لشحات، أصبح النظام والتعقل محدودين. لن يتمكن العلم
أو التقدم أن يعظما من شأنهما، بل بالعكس، جعلتا الحياة أكثر صعوبة
ومشقة. أليس هناك الشياطين المختبئون، القدر الأعمى، إغراءات إبليس،

ثورة الدم الحار للشخص نفسه، تنتظر جميعا المرء فى مفترق للطرق؟ لم
إن، يحدث نوع من التغيير؟

سمع أصواتا بعيدة حية، أخذ يجهد أذنيه ليتسمع. استطاع
أن يميز نهيق حمار على البعد، نداء ممطوطا لبائع يغنى قائلا
"البصل الطلو اللى زى العسل"، زمارة تلعب بموسيقى فرح وزواج،
عويل خافت لصوت امرأة تعدد. يا للعجب، أحدهم يتزوج، وآخر قد مات.
تذكر على الفور أمه وهى تحكى الليلة الماضية عن كوميدى الحياة
فى القرية، ثم تذكر بطة وهى ملقاة على جانب الطريق والدماء تغطى
فخذيها، فى الحال رجعت إليه حالة اليأس القاتل.

بدأ القمر فى الصعود، كاد أن يكون مكتملا، غدا هو الليلة
الختامية لمولد سيدى أبو الحجاج. غرق الوادى فى الظلام، فحول المنازل
والأشجار المستندة على بعضها بعضا، بدأ بحر من الضباب المنير
يتصاعد إلى العلا. ظل هذا المنظر طويلا فى ذاكرة شحات، حزم من
البخار بيضاء كأنها الأشباح، طفت ببطء فوق الحقول الممتدة على مدى
البصر، وبقرب القمر ذاته رأى نتفا ضخمة من السحاب لونها أصفر
ترتفع فوق انحناء الصخور وأخذت تتحرك بلطف بالغ.

شعر شحات كأن الله ذاته قريب، يلقي بنظرة نحو الأسفل، كما هو،
من عليائه فى السماء. الصحراء المبدورة بالنجوم التى لا يحصى لها عددا،

كانت بعيدة بعدا لا يمكن إدراكه، لعل من هذا المكان البعيد تتجمع الملائكة تشاهد ما يحدث على الأرض، على الأرض يعبث إبليس وأتباعه ويخلقون الشر والعنف، لكن هنا على الأقل، فوق هضاب الصحراء، كل شيء يسبح في السلام والطمأن وحكم الله الذى لا يمكن لكائن ما أن يتحداه. بينما ينظر إلى الأسفل نحو الوادى المملوء بالظلال، تذكر كلمات سنّية عندما قالت إن الغروب يبدو كأن الأرض تعبر عن شكرها لله، لقد عاكسها حينذاك وقال إنها فرعونية تعبد الشمس، لكن الآن، وقر في ذهنه أن الأرض ربما تكون فى حالة من الانتظار لتدخل مجالا كله خير، فالشمس سوف تشرق بعد ساعات قليلة فوق الصحراء وتهزم بذلك الظلام المخيف.

الحياة قد تبو قاسية وسخيفة، لكن كل شيء موضوع فى مكانه المناسب ومقدر، وهو جزء من خطة الله. هذا ما تعنيه حياة الناس على الأرض، ثم زعق بصوت عال، "كله من عنده، أنا ما ليش يد فى أى حاجة، كل شيء من عندك يا كريم".

كان الممر الذى يخترق الصخور منحدرًا بشدة، لكن شحات لم يفكر كثيرا فى قوته أو أين يضع قدميه. أحيانا كان القمر ينير أمامه، وأحيانا خلفه. ما أن اقترب من المنحدر الأخير، حتى سمع عواء ذئب صحراوي. بالنسبة لشحات، كان صوته يشبه أصوات الجن وأتباع الشيطان الذين كانوا يطاردونه بالشكوك، كانوا دائما ما يهمسون فى أذنه، "انظر ما الذى سوف يحدث لك يا شحات، دقق النظر".

بعد الظهر، الطريق إلى النيل كان مزدحماً بالناس، فهم يتدفقون إلى الأقصر ليشاهدوا الليلة الختامية للمولد. أم حامد كانت في منزلها ترعى بطة، وكلها استنكار ورفض لما حدث. ورفضت أيضاً أن يحضر كل من نوبى وأحمد الليلة الختامية، فالاحتفال بسنوية عبد الباسط على الأبواب، والمفروض أنهم جميعاً فى حالة حزن، لكن الولدين تسلاً ووجدا شحات واقفاً فى مكان عبور المعدية ومعه العزب وعدد آخر من الأصدقاء. أخبر شحات الولدين أن يلتصقا تماماً بجانبه عندما يختلطون بالزحام فى البر الشرقى، وقال إنه سوف يرسلهما إلى المنزل مع أحد الأصدقاء عندما يحل الظلام.

أخواه بالكاد تعرفا عليه. ففى منزل العزب، أصر أن يتهندم ليحضر تلك المناسبة الهامة، لذا اختفى جلبابه القديم الكالج وشاله الرمادى وقدماه الحافيتان. بدلاً من ذلك، استحم، حلق شعره وذقنه وشذب شاربه، وفوق عمامته شد شالاً أبيض طرفه يتطاير فى الهواء، واضح أنه جديد. كان وسيماً للغاية، كأنما هو شخص آخر غير شحات الذى عرفاه.

تم تجهيز مركبة بخارية أحضرت من أسوان لكى تسع تلك الجماهير الكثيرة المتدفقة تريد أن تعبر النيل، فهناك عشرات الآلاف من المتوقع أن يحضروا الليلة الختامية. الولدان، وهما ما زالوا غير معتادين على منظر شحات الجديد، شعرا بسرور بالغ عندما صعدا مع شحات

إلى الطابق الأعلى للمركب واستندوا جميعا على السور. بينما يراقب شحات النيل وهو يزحف مبتعدا، لم يشاهده من قبل بهذه الروعة والجمال. شمس ما بعد الظهيرة ترسل إشعاعات براقية على صفحة المياه وتنعكس على الهواء ذاته. من فوق ظهر المركب، أشرق النهر بنور الشمس، وأصبح لون مياهه ذات لون يصعب وصفه، هو خليط لين ورقيق من اللون الأزرق الغامق، الفضي، الأخضر، وفي أجزاء أخرى أشرقت المياه بلون نحاسي. كل هذا بدا في عين شحات كأنه خلطة منسجمة من الألوان الخضراء والزرقاء والفضية. لم يشأ أن يغادر النيل، وشعر بالأسى عندما وصل المركب إلى البر الشرقي وانسل الجميع إلى الشاطئ.

كانت شوارع الأقصر مكتظة بالجماهير، شحات والولدان وأصدقائه ذابوا في وسط بحر من الناس متجهين جميعا نحو مقام الولي المبارك، الذي شاهده وهو منتصب عاليا في حوض معبد الأقصر. فموقع المقام هو ساحة عظيمة كان قد بناها رمسيس الثاني الأعظم بين الفراعنة. ببطء شديد، والرجال يضغطون عليهم من كل جانب، تقدموا حثيثا من مكان رسو المركب حتى مركز البوليس، ثم شقوا طريقهم بمشقة بالغة خلال حارة صغيرة إلى طريق السوق واجتازوا صفا من المحلات، أخيرا استداروا غربا ليواجهوا النيل، حيث حملوا حملا وسط الجماهير. ما أن خطوا في رحاب المعبد، حتى تعلق

الغبار والعفار الذى أثارته أقدام الرجال الزاحفة وتعلق فوق آلاف من العمم والرؤوس، خالقا ضبابا كثيفا لونه أصفر. فى ثنايا هذا الضوء الغريب، وجدوا أنفسهم فى مواجهة مباشرة للشمس، مما اضطهرم أن يضعوا أيديهم فوق حواجبهم. سهام من الضوء المبهر، اقتحمت الأماكن المفتوحة ما بين أعمدة المعبد الفرعونى الضخم بتمائيله ذات الأحجام الخرافية، كذلك عم فوق قمم الأشجار وضريح الولى. الهواء تشبع بجزيئات لامعة من الغبار، وكل شىء بدا كما لو كان من وراء حجاب من الضوء الأصفر البراق. الضريح زين بمجموعة هائلة من الأعلام، بينما التف حول مناراته وأعمدته الجرانيتية حبال مثبت فيها لمبات كهربائية عارية.

باستثارة متصاعدة، شقوا طريقهم إلى الأمام، لكن الطريق كان يصعب تماما العبور خلاله، من حولهم، هناك أجساد تضغط عليهم. تكونت خيوط من العرق أخذت تجرى فوق جبهة شحات؛ وأمسك بقوة بيدي الصبيين الساخنة الغارقة فى العرق. حولهم أطلق الرجال تحيات صاخبة إلى بعضهم البعض، وسمعت أصوات كلها انفعال. لكن على وجه العموم، أصبح الاستماع لأى شىء متعذرا بسبب تلك الضوضاء الشاملة. أصبحت حرارة الدفع والاندفاع، مع الأجساد المتلاصقة تماما، شيئا مستحيلا وخائفا، فيه تتشتت عناصر الرؤية والسمع. أحس شحات برأسه تدور وتلف، وأخذ يحملق من خلال الرؤوس المععمة،

مرة على المنارات، وأخرى على الضريح الذهبى، ثم نظر مباشرة إلى الشمس التى أخذت تلمع فى عينيه. الغبار والعفار الملتمع وحزم الأضواء، ألقت بتدفقات مبهرة من الضوء على العمم البيضاء التى أمامه. أكد له ذلك المنظر الذهبى الذى يراه أمامه، أن هذا ليس مجرد غبار وضوء، لكنه عبارة عن رؤيا؛ هذا المنظر السحري المختلط بالضياء الرائع، وذاك الصياح الذى يصدر من المتجمعين حول الضريح - الذى فى حد ذاته يؤكد فناء وغرور الحياة، وتواجد ما هو أعلى وأسمى - دعاه هذا كله لأن ينسى ذاته ويسبح فى الذكريات، تمنى أن يموت. فماضيه مؤلم ومستقبله مبهم، وهذا الحاضر السحري ، تلك الهمسة من العمر، سوف تصبح ماضيا عما قريب وتنسى كئى شىء آخر حدث له. لماذا إذن يعيش؟

صاح واحد بجواره، "الجياد، الخيل!"

التفت وشاهدهم، أتوا من جهة اليسار فى هياج مرعب، الجياد براكبيها تنطلق بكل ما أوتيت من سرعة كأنما تنتوى أن تعلى رؤوس الحاضرين. كان هناك رعد من صوت الحوافر، سحابة من الغبار، ثم ظهرت رؤوس ممتطى الجياد من البدو، التى استقرت خلفا، والوجوه إلى جانب، رقاب بنية اللون، عضلات مشدودة كالحبال، عواء وصيحات جبارة، عصيان مرفوعة إلى أعلى فى الهواء، يستخدمون المهاميز، فتنتطلق الجياد وهى فى حالة من الجنون. ضد أشعة الشمس المبهرة،

والجلبة والضجة الكبرى، بدوا كأنهم ليسو فرسانا، بل هم حلم انبثق من ثنايا الأساطير، لا يظن شحات أنه شاهد شيئا آخر يفوق ذلك فى جلاله وعظمته. اندفع هو إلى الأمام، ممسكا بكتفى الصبيين، يزاحم الناس حتى يتسنى لهم أن يقفوا أماما ليشاهدوا. رجال البوليس يهزون عصيهم بعصبية بالغة، يحاولون إزاحة الناس إلى الخلف ليجلوا طريقا للفرسان. هؤلاء يركضون فى اتجاه واحد وهم يهتفون بأدعية الحمد لله فى صيحات متوحشة مثيرة، ثم يدورون بكل مهارة ويركضون راجعين نفس المشوار، يتفادون بعضهم بعضا بمقدار شعرة رأس، وهم يصيحون: الله أكبر، الله أكبر، وهى صيحة الحرب الإسلامية. عندما يحدث توقف بسيط لهذا العرض، يمر الناس بسرعة متجاوزين رجال البوليس لينتقلوا إلى الجانب الآخر، مخاطرين بحياتهم، لعلهم يشاهدون منظرا أفضل، ثم ينطلق الفرسان مجددا ، وكل إنسان انخرط تماما فى هذا العرض البدوى المتوحش.

شحات يشاهد العرض وهو مشدوه، مسحور، ثم غلبه نوع من الوجد الغريب، لون الهواء مبهر- بلون لم ير مثيلا له من قبل - السماء، المنارات، الهتاف المحيط به من كل جانب، صياح الفرسان المملوء حماسا، ملأ كل هذا نفسه بفرح غامر غير منضبط. أخيرا سوف يعثر على ذاته وكيانه، فى مكان بعيد، مكان يقع فى حضان الأبدية ذاتها، سوف يعثر على الخلاص ويتخلص من كل ما يتعبه ويشغل باله وروحه،

عندما نظر بوجد وانتباه نحو الفرسان القادمين المندفعين ضد شعاع الشمس، وسمع الصياح الثاقب من حوله، رأى نفسه كما كان يظهر فى أحلامه، مرتديا ملابس بيضاء، بينما هلاهيله السوداء قد أحرقت، ثم وهو يروح ويجىء، مثل هؤلاء الفرسان، وسط حديقة متلالاة رائعة الجمال، ويستمتع لأصوات متبلة تحمد الله، حرة غير مقيدة. ثم همس لنفسه، "كله من عند الله".

ثم اندفع إلى الأمام.

بدا له أنه قد وصل إلى الجهة الأخرى بسلام، مع ذلك تردد قليلا، واستدار ليووجه الفارس القادم ونظرة اعتذار تكسو وجهه، ثم فجأة، حط الحصان بكل ثقله فوقه، واختفى تماما خلف الحصان الجاثم وراكبه.

حدثت فترة صمت فجائية، لكن هذا لم يحصل فى الحال بالنسبة لجميع الناس، فالبعض ما زال يصوت ويصرخ. بدا أيضا أن الزمن قد تباطأ، حتى أن قرع حوافر الخيل، العمام البيضاء، سحب الغبار الكثيف الأصفر، أخذت جميعا تدور وتلف حول بعضها ببطء شديد. الأبيض تحول إلى أحمر، قرع الحوافر والغبار أخذ يدور أكثر ببطئا؛ هذا هو ما يتذكره أخوة شحات: الصمت المفاجئ، صوت قرع الحوافر وهو يرتفع وينخفض، الأبيض الذى تحول إلى أحمر، الغبار وهو يدور ويدور ببطء بالغ.

كان العزب هو الذى وصل أولا. ركم على ركبتيه وحضن رأس شحات بين ذراعيه. رأى الولدان الرأس عاريا وقد تحول فى اتجاه واحد، بينما الوجه عبارة عن قناع كامل من الدماء والغبار. رفع الرجال الجسد وحملوه خلال الزحام، أحدهم كان يزيح الناس بعنف بكلتا يديه ليتقدم الصبيان إلى الأمام، لم يكن هذا سوى عبد الرحمن، وبدأ الجمهور يتحرك معهم. ثم عندما وصلا إلى مكان فسيح، لمحا جسد شحات وهو مسجى على الأرض بجوار حائط، بينما بعض الناس منحنون عليه، وآخرون ممسكون بعصيان غليظة يلوحون بها لى يتفرق المتفرجون، لكن الناس تدافعوا وضغطوا عليهم. لعدة دقائق، تعذر عليهما أن يشاهدا شيئا، وبالكاد استطاعا أن يلتقيا أنفاسهما.. ثم تم سحبهما من بين الجمهور مرة أخرى، فوجدا أنفسهما محشورين داخل عربة مفتوحة.

هناك كان شحات مكوما على مقعد بجوارهما، يجلس منحنيا ورأسه مستندة على ذراعه، ثم شاهدا عمته الممزقة مليئة بآثار الدماء والغبار. خلال دموعه الثخينة، بدت بشرته لامعة ومندية وحمراء. بدون أن يتحرك أو يرفع رأسه، لى لا يريا وجهه، كانا هما يحملقان فى شعره المجعد وقد غطاه الدم والغبار، خاطبهما. لم يدريا حينذاك أنه فى حالة صدمة عصبية، وأنه لن يتذكر ما قاله لهما لاحقا، لقد أمرهما بصوت أجش متعجل أن يتبعا العزب حتى النيل ويعبرا النيل ويذهبان

إلى بيت خالهما أحمد لأنه يأمن عليهما هناك. لقد كانا يستمعان إلى صوت متحشرج فظيع، لدرجة أنه عندما وصلت العربة إلى المستشفى، شعرا براحة عميقة للابتعاد عن هذا المنظر غير المألوف لأخيها، وتأكد لهما أن الله لم يشأ أن يميته بالرغم من كل ما حدث له ومنه.

لا اله إلا الله... لا اله إلا الله...

هذا الهزيز العميق، بأصوات خشنة، رن بكل حماس خارج المنزل، وبينما الصيحات تتردد متسارعة بكل نشاط وهمة، وقف شحات أمام والدته وهي تملأ الصينية باكواب الشاي. كان الوقت هو منتصف الليل، والدعوات المنطلقة تعلو إلى عنان السماء لعلها تبعث بالراحة لروح المرحوم عبد الباسط.

خرج شحات من المستشفى ذلك اليوم فقط، وبالرغم من أن رأسه ما زالت ملتفة بالضمادات وجسمه متصلب ومتألم، أصر أن يفى بواجباته كابن أكبر لأبيه. لقد كان حظه حسناً للغاية، حافر الحصان خبطه في جانب جبهته الأيمن، وتسبب في إدماء شديد تطلب سبعة غرز، وربما يحمل آثار ذلك بشكل دائم. ساقه اليمنى وذراعه ما زالا لونهما أزرق بسبب الكدمات، لكن جميعها سوف يبرأ مع الوقت، أما الصعوبة التي كان يعاني منها عندما يتنفس، فقد اختفت الآن تماماً. عندما عبر الطبيب عن اندهاشه لعدم تعرضه لإصابات أخطر من ذلك، كان رد شحات، "الحمد لله"، ولم يذكر أى تفاصيل عن الحادث، وإذا تم الضغط

عليه ليحكى، يستعيد المثل القائل "المقسوم تشوفه العين"، لذا تدريجيا، اختفى الاهتمام بتحري أسباب الحادث، وكل ما كان يهم القرية هو أن شحات قد عاد إلى منزله.

وهى منتظرة داخل المستشفى، مر على خاطر أم حامد كل أحداث حياتها، من البداية حتى النهاية بكل تفاصيلها، ثم تذكرت وعد ابنها عندما قال إنه سوف يكون فريدا من نوعه - بالمقارنة بغيره ممن تعرفهم، بما فيهم أخيها أحمد - وأنه سوف يصبح رجلا كاملا يتحمل المسؤولية. تذكرت أيضا كيف أن المرحوم عبد الباسط كان دائما ما يغفر لشحات. تعلم هى تماما أن كل القرويين يحبونه، وأيقنت أن هناك أسسا قوية ومنطقا مقبولا يتنبأ له بعيش هانى وحياة كلها سعادة وتوفيق. بذعر بالغ، كلبش فى قلبها، عندما تخيلت حياتها خاليه من وجوده. عندما حضر إلى المنزل، ودت أن تخبره بأن الماضى عدى وفات وهو ليس سوى سلسلة من الأخطاء، وأنهما يمكن أن يستأنفا حياتهما من جديد، هو أخيرا أصبح ذلك الراشد الذى تحتاج لعونه، هو مثلهما، مساويا لها، إنه ابنها.

لكن خلال الأيام القليلة التى ظل فيها داخل المنزل، لم ينطق بشيء، بينما أم حامد فى هم مقيم خشية أن يكون مخططا لأن يغادرهم إلى الأبد. كانت على يقين بأنها سوف تخبره بأن كل شيء سوف يبدأ من جديد، وأنها سوف تراعى منذ الآن موضوع إسرافها وتبذيرها للنقد،

وأنها مستعدة أن يعيشوا عيشة بسيطة قانعة، وهو الذى عليه أن يتخذ القرارات مهما كان شكلها، لأنه هو رجل البيت. لكن فى كبريائها العنيد، لم تجد فى نفسها المقدرة أن تعترف له بكل هذا.

” الله.... الله..... الله..... الله

صياح مائتين من الشيوخ تقريبا تصاعدت إلى عنان السماء. لم تشاهد القرية من قبل مثل ذلك الذكر، بالرغم من أنهم جميعا يعلمون أن أم حامد قد اقترضت نقودا من الحاج عبد المطلب لكى تقيمه. تناول شحات الصينية من يد والدته واستدار لكى يذهب بها، فصاحت وقد وضعت يدها على فمها، ”شحات“، لقد كانت فى خشية أن يغادر بمجرد انتهاء الحفل.

التفت نحوها، ”عايزة إيه؟“

لم تستطع النطق بما كانت تنوى أن تخبره به، وربما لن يحدث هذا أبدا، لكن أخيرا نطقت بجملة واحدة، ”السلام يا ولدى“، ثم استدارت خلفا، وبدأت فى البكاء بحرقة واضعة منديلها على عينيها، هى تدرك الآن أنها على وشك أن تفقد كل شىء. رجع إليها شحات وهو يقول، ”بس. بس بطللى عياط“. ثم ترك الصينية واقترب منها وضمها إليه، الاكتاف التى استراحت بين يديه كانت ما زالت دافئة ومضطربة، لاحظ أيضا كم أصبحت نحيفة وصغيرة الحجم، علم يقينا أن حياتها

بدأت فى الأقول، لقد وضع له الآن أن أقسى الأعوام وأصعبها وأكثرها تعقيدا مع أمه ما زالت فى رحم المستقبل، لكنه لم يهتم. أحس فقط بنوع من التعاطف العميق نحوها، همس لنفسه، أنه مهما حدث فإنها ليست سوى إرادة الله ومشيتته، مدركا فى استسلامه هذا، أنه يتنازل عن بعض من حريته، وربما لن يعثر عليها مجدا، لذا شعر بنوع مختلط من الحزن والفرح.

حلت مواسم وانقضت، أتت أيام الشتاء، مظلمة، طويلة، باردة، ثم سريعا تحولت إلى نار الصيف، وبدأت الظلال تطول تحت أشجار الاكاسيا المترهلة التى تراصت على طول التربة، وأحضر الحصادون حبوب الصيف إلى المنزل، أخذت طيور أبى قردان تتغذى على خيرات الحقول المروية حديثا، ثم يحل الشتاء مرة أخرى. الزمن يمر، وخلال كل ذلك الوقت، يصنع شحات القليل، يذهب ويعود من حقله، يبدو عليه أنه يعرف كل حجر، كل شجرة على طريق العربات الذى يصل ما بين سنباط ومنزله. هنا يجد ماضيه وحاضره، ولا يتصور أى مستقبل بعيد عن حقله. الطريق من وإلى القرية، ومرة أخرى ما بين حقله ومنزله، وحالا سوف يفكر فى الزواج.

وافقت أم حامد وكذلك خاله على العروس التى اختارها، وهى ابنة عم لوالدته، وقد أخبر شحات صديقه العزب، "البت مش حلوة قوى، لكن أنا حظيت عيني عليها ولقيتها بنت كويسة، وتشتغل تمام، حتكون نافعة خالص فى بيتنا".

كالمعتاد، بددت أم حامد معاشها المتجمد فى موضوع إدخال الكهرباء إلى منزلها، هذا أشعل الحسد فى صدور جيرانها المضطرين إلى الاستمرار فى استخدام لمبات الجاز. الحاج عبد المطلب ثار ثورة عظمى وهدد بأنه سوف يلجأ إلى المحكمة إذا لم تسدد الديون التى عليها، هذا الأمر سبب نوعاً من الأسى فى صدر صديقتها بهية. وكان إذا ندد شحات بأمه، تقول هى، "ربنا هو الرزاق". ما زالت أمنية أمنياتها أن تزور مكة قبل أن تموت. حصاد القصب أنقذ العائلة من مأس كثيرة. يوماً ما سوف تنتج أشجار النخيل بلحا بكميات كبيرة يكسوهم بحلة من الرخاء الجزئى. الآن هو شحات الذى يتعامل فى معظم الدخل، كلما أصبح أكثر استقلالاً فى تصرفاته المالية، كلما زادت درجة مشاكسة أم حامد، لكن إذا حدثت خناقات بينهما، فكلاهما يعلم أن الصلح قادم. لقد اعتاد القرويون على عادات الأم والابن، لكن لم يتقبلوا أبداً موضوع زواج بطة من الجسمى.

سنية هجرت القرية كلية، كانا قبلاً يختلسان النظرات والكلمات، ولا يعلم أحد مقدار ما يشعر به شحات جراء فقدانه لها.

نوع من القدرية تغلب على طباع شحات، ولم يعد يفكر فى الماضى. كل جموح شبابه - الآمال والعواطف الملتهبة أصبحت خافتة بلا شكل أو طعم أو لون، شىء ما يتذكره كحلم. لكنك الآن فى استطاعتك أن ترضيه وتجعله مرحاً فكها، وهو سريع الفهم والبديهة كما كان دائماً، ولا يستطيع أحد أن يحكى قصة فى إحدى الأمسيات بقهوة شلتوت مثلاً يفعل شحات.

ما بعد ذلك

كمراسل يكتب عن حياة الفلاحين، أود أن أشرح كيف كتبت قصة شحات هذه.

معظم علماء الأنثروبولوجي (علم الإنسان) تنحصر بحوثهم العملية داخل قرى العالم ومدنها، طريقتي كانت مماثلة لعملهم. معنى هذا، أنني عندما أذهب لقرية ما، أبدأ أولا بدراسة نظامها البيئي والاقتصادي أو الزراعي- الحرث، الزرع، نزع الحشائش، الحصاد ثم دراسة المحاصيل الأساسية. بما أن الجهد العضلي هو مركز الحياة في القرى التقليدية، كنت أنخرط فيها مع تطور البحث الذي أقوم به. هذا الأسلوب هو أسرع طريقة لاكتساب ثقة الفلاح وقبوله، كذلك أيضا لكي أنمي الشعور بالحياة في أي مجتمع اختار دراسته. إذا استراح القرويون وعاقروا بعضهم الخمر في المساء، كما يفعل الكثيرون، كنت أشاركهم في هذا. في معظم الأحوال، كنت أستخدم مترجما معي، أستأجر خدماته محليا، أيضا استفيد منه بعض المعرفة بالألفاظ المتداولة بلغته هو. لقد اكتشفت أن تواجد مساعد من نفس البيئة

الاجتماعية محل الدراسة يمدنى بتعضيد خلقى هام. كنت أيضا أسجل بطريقة الاختزال ملاحظاتي وكل ما ألتقطه من حوارات بقدر الإمكان، مفضلا التعرف على المعلومات من الحوار العادى بدلا من تدبير نوع من المقابلات الرسمية، إما مكتوبة أو مسجلة على شرائط. حتى أفضل المحاورين الذين يتصفون بالحيادية، يميلون إلى أن " يقودوا " بدون شعور منهم أو حتى بشعور منهم بالموضوع الذى يتناولونه فى خطوات محسوبة مقدما .

على هذا المنوال، يقود تفحص المجتمع الزراعى إلى معرفة نظام التسويق بشكل طبيعى، كذلك تحويل قيمة المحاصيل إلى نقود وطعام تتغذى به الأسرة. من الزراعة، يتحول الإنسان بشكل طبيعى ليتعرف على الحياة الاجتماعية والدينية. بذلك لا يختلف نظام التعايش هذا كثيرا عما يصنعه عالم الإنسانيات. مماثلا لهذا العالم، على أن أدرس نوع الحضارة التى أفرزت تلك القرية، تاريخها، معتقداتها، فلسفتها، فنونها، أدابها وأحوالها السياسية والاقتصادية الحالية. ويقدر الإمكان، أحاول أن أستجلى نوعية القيادة العليا التى تحكم. فى حالة شحات هذا، كان رئيس مصر حينذاك هو الرئيس أنور السادات.

لإنجاز قصة شحات، انتقلت لهذه القرية عام ١٩٧٤، وعشت فى فندق القرية الذى يديره ابن عم أبيه، وهو صبحى. فى الحال استأجرت خدمات اثنين من المترجمين، كلاهما طالب، واحد من أجل الفترة الصباحية

والآخر للمسائية (المترجمون عادة ما يتعبون بعد خمس أو ست ساعات من الترجمة المستمرة). ولدة ثلاثة شهور، أنهيت دراسة النظام الزراعى للقرية، وكان على أن أتعرف على الناس. شحات وأصدقائه كانوا من ضمن معارفى؛ وكنت قد قابلتهم لأول مرة فى الحفل الذى وصفته فى قصتنا هذه. وكنت حاضرا أيضا عندما مات والده، عبد الباسط. بعدها رجعت إلى القاهرة لأقضى عدة أسابيع أنون على الآلة الكاتبة كل ملاحظاتي. عندما عدت، كان كل من شحات ووالدته فى حالة حزن بالغ على وفاة المرحوم، ثم عادا لممارسة حياتهما العادية وانخرطا فى شئون القرية كالعتاد. فى تلك اللحظة أختريتهما ليكونا هما عماد قصتى.

فى نفس الوقت تحصلت على خدمات رجل أعتبره مترجما رائعا موهوبا، هو نوبى أبو الحجاج. هو موظف حكومى فى الأقصر وتاجر (يدير محلا لبيع السجائر فى المساء). مدينة الأقصر تبعد حوالى ثلاثة أميال من بيراط. كان هذا من حسن حظى، لأن نوبى هذا ينحدر أصله من إحدى العائلات المرموقة التى يعتقد أنها تنحدر من نسل الرسول محمد (صلى الله عليه وسلم). هذا حقق لنا نوعا من القبول العام فى القرية. بالإضافة إلى وضعه المميز داخل مجتمع القرية، لم يكن نوبى قديسا، لكنه كان يستمتع بالشراب والمنادمة مثل أى شخص يجلس بجواره؛ هذا أعطى لنا فرصة لأن نفحص ونتوغل فى حياة كل من القديسين والأشرار فى آن واحد.

فى كل واحدة من عشرات الدراسات التى قمت بها وتختص بدراسة حياة الفلاحين، هناك قدر كبير من الارتجال ومحاولة الإفادة بقدر الإمكان من الظروف. تدريجيا، تتبثق وسيلة معينة ومحددة تحكم العمل وتستمر بعد ذلك بطريقة مرضية. شحات وأنا كنا نصحو مبكرا لنذهب إلى حقلة فى الصباح الباكر؛ فى البداية لم يكن يعرف أى كلمة باللغة الإنجليزية، وأنا أيضا بالنسبة للغة العربية، لكن شحات كان سريع البديهة والفهم، لم يمر وقت طويل قبل أن يعرف كلانا قدرا مناسباً من لغة الآخر، بحيث أمكن لنا أن نتواصل؛ فى الحقيقة، شحات الآن يتكلم اللغة الإنجليزية بطلاقة منقطعة النظير. فى منتصف النهار نعود إلى منزله، هناك نجد أم حامد وقد أعدت لنا غداء لذيذا نأكله فى غرفتها العلوية المريحة، وكان يحضرنا أيضا نوبى أبو الحجاج الذى يحضر ممتطيا دراجته من المدينة، معتبرا أن وظيفته الحكومية قد استوفت حقها منه. لمدة أربع أو خمس ساعات يوميا، بعدما نأكل ونحتسى أكواب الشاي والقهوة، يبدأ شحات وأمه ونوبى وأنا فى استعراض كل الأحداث التى وقعت خلال الأمسية السابقة وهذا الصباح، نعيد تكوين الحوارات والأحداث التى أسجلها فى سجل ضخم (فى الواقع، أصبح هذا السجل عبارة عن سبعمائة صفحة مكتوبة على الآلة الكاتبة بعد ذلك). أحيانا كان نوبى المترجم يظل معنا حتى إنه أحيانا يحضر معنا وجبة العشاء، لا سيما إذا كانت هناك حفلة أو وليمة مقامة فى مكان آخر بالقرية.

خلال فترات ما بعد الظهر، لمدة استمرت ستة أو سبعة شهور، كوناً فيها تاريخ العائلة السابق. المتعلم قليلا من المصريين، الذى يحفظ القرآن عن ظهر قلب وهو صغير، له ذاكرة مدهشة. كثيرا ما كنت أنا ونوبى نستعرض معلومات أم حامد وشحات منفردين عن تفصيلات حادثة معينة حدثت فى الماضى؛ كان من النادر أن يختلف سردهم للواقعة كثيرا، حتى الحوارات بمنطوقها نادرا ما تختلف. الجزء الثانى والثالث من قصة شحات الذى ينتهى بموضوع مرضه وحلمه وهو فى الجنة، يتوافق مع تلك الفترة.

فى اللحظة التى ظننت أن القصة قد انتهت أحداثها، سافرت إلى القاهرة وكتبت المسودة الأولى من واقع مذكراتى، حدث موضوع عراق شحات مع أمه وخاله وأنا لست فى القرية. هذه الأحداث قمنا بإعادة صياغتها بعد ذلك من جلسات تمت معهم هم الثلاثة كل واحد بمفرده. عندما أخبرنى شحات بموضوع الخناقة وهو فى القاهرة، عدت فورا إلى القرية. مع ذلك، كنت متواجدا خلال الأحداث الدرامية للفصل الختامى لهذا الكتاب: عودة شحات لمنزله واستئناف نشاطه، اغتصاب بطة فى عز الظهر على طريق القرية، هروب شحات إلى قلب الصحراء، الاحتفال بمولد الحجاج بالأقصر، التصالح ما بين الأم وابنها. النهاية بفقراتها المختصرة، كتبتها لاحقا بعد عامين. كانت الخاتمة مختلفة تماما فى القصة الأصلية، كان على شحات أن يغادر القرية فى نهاية القصة

الأصلية، لكن عندما أعدت التفكير، رأيت أن النهاية الحقيقية كما كتبتها مجددا ما كان من الممكن تفاديها.

ربما يخطر على بال القارئ عدة أسئلة فيما يختص بهذا الأسلوب الذي اتبعته، وسوف أحاول هنا أن أتوقعها. لقد حاولت أنا ونوبى المترجم، على قدر استطاعتنا، أن نظل ملاحظين وليس مشاركين، وأظن، بشكل أساسى، أننا نجحنا فى ذلك، ولا سيما لدور نوبى كعامل ملطف (كنت أنا وشحات دائماً ملازمين لبعض، فى كل أوقات صحننا، لمدة عام كامل تقريبا؛ عدة مرات نشبت بيننا معارك مرة، بالأخص معارك نشأت من السكر المشترك، وبالطريقة العربية، كانت تصل أحيانا إلى حد تبادل اللكمات، مرة ألقينا على بعض المقاعد، وأحيانا كنا نشتبك فى معارك حقيقية، هذا كان يسوء القرية، وكل شخص، وبالأخص نوبى، كان يسعى لتحقيق الصلح والسلام بيننا. كنت أفرح بذلك، طالما أن هذا سوف يجلى المواقف ويصفى الأجواء، كذلك شحات، لكن حينما يتصل الأمر بالوقائع المؤثرة على سير القصة، كنت أنا ونوبى نبتعد تماما.

ككاتب، كنت أشعر أننى أفهم وأعرف هؤلاء الناس جيدا، لذا كان اهتمامى ضئيلا فيما يختص بإعادة تصوير الأحداث وما اعتمل فى القلوب؛ لا شئ أو حتى كلمة واحدة فى الحوارات قمت باختراعه. مثلا المنظر القبيح الذى تحاول فيه جدة بطة إنقاذها من زواج سيئ،

كنت أنا ونوبى واقفين على السلال، منزعجين لكن خائفين من أن نتدخل فى أى خطوة من المعركة. مرة أخرى، عندما أصيب شحات فى الليلة الختامية للمولد، قمت أنا ونوبى وآخرون من أبناء القرية أن نتخاقل وتندافع ونرفص لكى نجبر الجماهير لكى يبتعدوا عنه ليمكن لنا أن ننقله إلى المستشفى، وهناك اضطررت أن أمثل دورا هستيريا لكى يسرعوا بمعالجته لأنه كان قد فقد كمية كبيرة من دمه. على العكس، شكرنا الله لأننا لم نكن حاضرين خلال أيام خناقة شحات مع والدته؛ كل من نوبى وأنا أحسنا براحة عميقة ونحن نلتقط تفاصيل الحدث من فم المشتركين فيها بعد ذلك بوقت كاف، عندما هدأوا جميعا. كنت أيضا حاضرا يوم أن اغتصبت بطة وأصبت بصدمة حضارية، لكن هذا ما حدث مع شحات أيضا.

فى لحظات كثيرة، كنت أصف الأفكار والمشاعر الداخلية للأبطال، لا سيما بالنسبة لشحات وأمه؛ هذه تم ترسيخها بناء على ما أخبرنى به كلاهما وما شعر به حينذاك.

ما أن بدا عملنا الحقيقى، كنت أقضى جل وقتى معهم، أتناول الطعام فى منزلهم، وأحيانا كثيرة أبات عندهم، بالرغم من أننى كنت أفضل أن أحتفظ بغرفتى التى استأجرتها باللوكاندة القريبة كمكان هادئ أستطيع فيه أن أنام وأكتب.

مع إمكانية استثناء موضوعين كنت قد كتبتهم عن الحياة الريفية، أشك أنتى تعرفت على أحد، شاملا فى ذلك أفراد عائلتى ذاتها، بمثل تلك المعرفة الحميمية وأنا أدرج فى معرفتى بشحات.

هذه الطريقة، هى الاندماج الشخصى الكامل، بالطبع تختلف عما يصنعه عالم الأنثروبولوجى، على الأقل من الناحية الفنية. عالم الإنسانيات عادة ما يبدأ دراسته باستخدام نموذج تصورى مبدئى ليقود به اختباراته ولساعدته فى ترتيب الحقائق. من المحتمل أيضا أن يستخدم إجراءات علمية أخرى، مثل الاختبارات البحثية، التقديرات الجزافية أو أى نوع من الأنواع المتعددة للقياسات العلمية المعترف بها. ربما يستخدم طريقة السؤال والجواب ليجمع إحصاءات عن طريق أخذ عينة كبيرة من أهالى القرية. مهما كان أسلوبه العلمى، فإنه سوف يستخدم أسلوبا إما أن يكون "نظريا" أو "علميا" أو "دراسيا". الصحفى، بالإضافة إلى اهتماماته المختلفة، تدريبه، ارتباطاته الأكاديمية المختلفة، سوف يتبع أسلوبا آخر تماما للبحث والفهم.

فى النهاية، كل دراسة تهتم بالإنسان تمتد ما بين جناحى العلم والفن، والفرق ما بين الصحفى وعالم الإنسانيات هو واحد من عدة درجات؛ واحد يخلط بعض العلم مع الفن، الآخر يخلط بعض الفن مع العلم. كل من عالم الاجتماع والمراسل الصحفى، إذا كانا أمينين ويشعران بالمسئولية تجاه الحقائق، يهدفان فى الواقع إلى زيادة التفهم

بالموضوعات كنوع من الدراسات العلمية المقبولة، أو كصورة حقيقية كما يتصورانها ويكتبان عنها. نقرأ هنا إحدى الملاحظات التي كتبها أنطون تشيكوف في إحدى مذكراته، عندما كتب، "سوف يكون الإنسان في أفضل حال عندما توضح له حقيقة شأئه".

هذا هو هدفنا العام والسبب الذي من أجله كتبت قصة شحات وبالطريقة التي اتبعتها في الكتابة. هو إنسان حقيقي، وشخصيته ووجوده هما الوسيلتان للتعرف عليه.

رشارد كريتشفيلد

واشنطن،

خريف عام ١٩٧٧

ملحق الصور



صورة الغلاف



صورة (شحات)



نجع لوهلة وهو واحد من أحد عشر نجعا يكونون قرية بيراط

وهو يقع خارج أسوار مدينة هابو ، وهو المعبد الجنائزى للفرعون رمسيس الثالث وفى الجانب الشرقى الأعلى لهذه الصورة تظهر حقول لوهلة والنجوع العشرة الأخرى لبيراط ، وهى تتناثر من الصحراء حتى الجانب الغربى للنيل . وتقع مدينة الأقصر عبر النيل على بعد ميلين شرقاً .



المنظر من الجانب الشمالى للمعبد كذلك لحارس المعبد . فى الخلفية يتبدى نجع
قرنة مرعى ، كذلك تلال الصحراء الغربية ، حيث تبدأ تلك الصحراء الشاسعة .



من الناحية الجنوبية ، يظهر النجع الوحيد المسيحي ، وهو نجع باسيلي ويقع فى
طرف الحقول المروية ؛ ويوجد هناك كنيسة فى تلك الصحراء القاحلة والتي
استخدمت فى العبادة منذ عهد الاحتلال الرومانى لمصر .



أعمدة المعبد لرمسيس الثالث ، وهضاب الصحراء الشرقية تنهض فوق البيوت
الطينية للفلاحين ، وتظهر أيضا أشجار النخيل بينما شحات يزرع حقل أسرته
بالبصل والبرسيم .



مجرى قناة مياه الري التى تجرى خلف بيت الشحات ، وكذلك ما تبقى من الأرض الزراعية التى خلفها الأجداد . هذا المجرى يمر على حديقة عائلة شحات المزروعة بالنخيل والعنب ، وكذلك يمر بمنزل سنية ، وتظهر الأرض التى يحرثها (العزب) ، كذلك منزل وأرض الحاج عبد المطلب وهو بخيل القرية .



أم حامد ، والدة الشحات ، تلك التي تجاهد لكي تحافظ على عزة نفسها وعطشها الجامح لبزوغ مستقبل أفضل ، بالرغم من حياتها الصعبة ، وما تعرضت له من مأس .



إنه شحات ، وهذا الاسم يعنى فى اللغة العربية «ذلك الذى يستعطى» ، لكنه أيضا يعنى «المرجو من الله» . شكله الذى ينتمى إلى الجنس السامى ، وطباعه الحادة وعشقه للصحراء ، تكشف عن أصوله البدوية .



شحات ، النيل ، ومعبد الأقصر



أحمد ، الأخ الرصين لأم حامد ، وهو مثال الرجل الكامل في نظر شحات ، لكنه أيضا يعتبر منافسا له في حب واحترام الأم .



فاروق ، مشارك شحات فى المزارعة ، وهو إنسان له معاييرہ الخاصة بالقيم والأخلاق .



إنه العجوز يوسف ، ذلك الذى يبيع الليمون للسواح ، وهو يقف أمام لوكاندة
هابو . منزل شحات قريب ، ويمكن الوصول إليه عن طريق حارة صغيرة خلف
اللوكاندة .





شحات يعمل على المشادوف ، وهو أداة يدوية لرفع مياه النيل من القنوات إلى الحقول ، وكان يستخدم على مدى ست آلاف من السنوات الغابرة .



العزب ، وهو صديق شحات ، وهو يمثل شكل فلاحى مصر القدماء ، الذين هم
من أصول فرعونية وليس عربية .



بهية ، زوجة الحاج عبد المطلب ، وهى صديقة أم حامد وزميلتها فى الثروة
ورواية الحكايات .



فاتح (على الشمال) وهو تاجر المواشى ، ولعى (على اليمين) وهو الذى يمتلك
مائتى فدان ويعتبر أغنى الملاك فى بيراط .



«الشعبان» أحد أصدقاء الشحات



عبد الرحمن ، صديق آخر للشحات



جمال



شحات وهو يصنع الكنافة أثناء شهر رمضان ، بينما ما زال في حالة الحداد
على وفاة والده .



شحات وبصحبته أخيه الأصغر نوبى فى فترة غروب الشمس أمام معبد
رمسيس الثالث .



شحات وهو يرقص على الموسيقى التي انبعثت من راديو القهوة



بطة ، وهي قريبة شحات



شحات وبجواره أخيه أحمد ينظفون الجاموسة في مياه ترعة رمسيس ، مهملين
إمكانية إصابتهم بديدان البلهارسيا التي تتواجد بالملئات بجوار الشاطئ .



شمس الدين (على اليسار) وهو الطالب المجتهد ، يقرأ القرآن ، بينما شحات يستمع إلى أغاني الحب العربية براديو شمس الدين .



عندما توقفت الجاموسة عن إدرار اللبن ، شك شحات أنها قد أصيبت بعين
أحد الحساد .



أم حامد وقد ارتدت أفضل ملابسها وهى فى واحدة من زياراتها النادرة للحقول



أم حامد تراقب شحات وهي يزرع ما تبقى من أرض الأجداد ، والحديقة التي
بها النخيل والعنب تظهر في الخلف .



أحمد أثناء إحدى معاركه مع شحات



شحات يهرب إلى التلال التي تعلو القرية



من فوق التلال الصخرية خارج بيراط ، شحات يحملق في الصحراء



شحات يستعرض وادى النيل أسفل



المترجم الذي ساعد المؤلف ، نوبى الحجاج



شحات وأم حامد يفحصان الصور الفوتوغرافية التي تحكى قصتهما



شحات ، وأم حامد ، ومؤلف هذا الكتاب ، ثم أحد الفلاحين . وكانوا يعملون فى الحقول كل صباح ، ثم يتقابلون مع أم حامد والمترجم نوبى الحجاج لمدة أربع أو خمس ساعات بعد الظهر لكى يشكلوا الأحداث والحوارات . أما شحات الذى كان يتحدث اللغة العربية ، بالتدريج تعلم اللغة الإنجليزية .

المؤلف فى سطور

رتشارد كريتشفيلد

هو كاتب ومراسل صحفى أمريكى يراسل صحيفة (الإيكونوميست) اللندنية، ومساهم فى مجلة (كرستيان ساينس مونيتور)، وقد كتب العديد من الدراسات التى تختص بدراسة حياة الفلاحين فى العالم الثالث منذ عام ١٩٥٩، وهو مؤلف لعدد كبير من المقالات والكتب فى هذا الموضوع بالذات، يشمل ذلك كتاب " اللغز طويل المدى "، " الوعاء الذهبى المكسور "، " حياة الفلاحين فى ظل أربعة حضارات "، " القرى " فى عام ١٩٨١ تسلم الجائزة الأولى لمؤسسة ماك آرثر.

هذا الكاتب قضى أكثر من عامين مع شحات وجيرانه من الفلاحين القاطنين بقرية بिरط القريبة من مدينة الأقصر، يسجل معاركهم، أفراحهم، عاداتهم، والحفلات والولائم والذكر، ويرسم صورة تعتمد على الحوارات الحقيقية لأبطاله. لذا أيها القارئ لا تنزعج عندما تقرأ هذا القدر الكبير من الشتائم المتبادلة بين أبطال القصة، لأن هذا هو ما يحدث فعلا فى مصر. لإتمام قصة شحات هذه، قدمت له مؤسسة فوررد منحة عام كامل ليقضى وقته وسط فلاحى الصعيد، وتحت الشمس المحرقة.

المترجم فى سطور

سمير محفوظ بشير

ولد فى ٢٩/٣/١٩٣٧

حصل على بكالوريوس تجارة ١٩٥٨ ، وكان يعمل محاسباً
فى الجمعية التعاونية للبترويل .

النشاط الفنى :

كتب للمسرح الكوميدي .. وتم تصوير مسرحيتين له فى أبو ظبى
عام ١٩٨٠ باسم : بس فينك يا عريس ، عن الفراق .

من مترجماته :

ترجم عدداً من الكتب لدار ميريت عند صديقه الأستاذ/ محمد
هاشم منها :

- قصة جوجل - تأليف : بيتر فايس .
- عن الكتابة - تأليف : ستيفن كنج .
- احتفال - مؤلفه ذو أصل أمريكى (هتور همر) .

التصحيح اللغوى : عبد الوهاب صلاح
الإشراف الفنى : حسن كامل